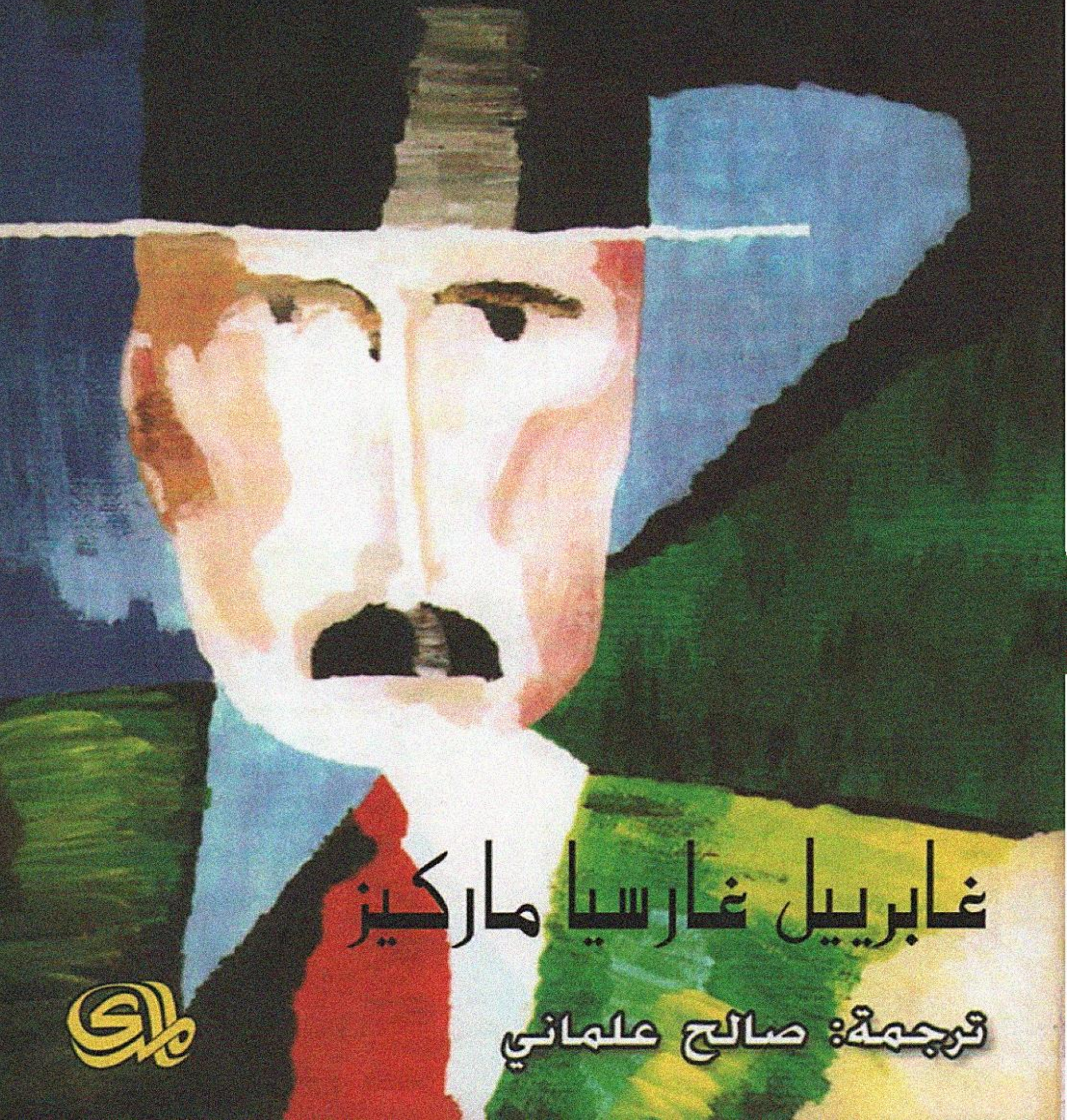
مكتبة نوبل 1982

• ليس لدى الكولونيل من يكاتبه
• ساعة الشؤم



غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة: صالح علماني

رواية

Author: Gabriel García Márquez
Title: El coronel no tiene quien le escriba
la mala hora
Translator: Saleh Almani
P.C.: Al Mada
First Edition: 2009
Third Edition: 2014

المؤلف: غابرييل غارسيا ماركيز
عنوان الكتاب: ليس لدى الكولونيل من يكاتبه
ساعة شؤم
ترجمة: صالح علماني
الناشر: المدى
الطبعة الأولى: ٢٠٠٩
الطبعة الثالثة: ٢٠١٤

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧

www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: info@almada-group.com
www.almada-group.com

ISBN: 9782843059759

مكتبة نوبل
1920

غابرييل غارسيا ماركيز

ليس لدى الكولونيل من يكاتبه
ساعة الشؤم

ترجمة:
صالح علماني

ليس لدى الكولونيل من يكاتبه

نـزع الـكـولونيل غطـاء علبـة البُنْ، وتأكـد مـن أنـه لم يبـق فـيها سوى قدر ملعقة صغيرة. فتناول الإبريق عن الموقد وسكب نصف الماء علـى الأرض الترابيـة، ثـم كـشط بـسـكينٍ محتويـات العلبـة فـوف الإبريق إلى أن سقطت آخر ذرات البُنْ مختلطة بصدأ العلبة.

وبينما كان ينتظـر غليـان القهوة، شـعـر الـكـولونيـل وهـو يجلـس إلى جانب الموقد المصنوع من لبْن، وعلى وجهه تبـدو مظاهـر الانتظـار الواثـق الـبريء، بـأن نبتـات فطـر وزنـابق سـامة تنمـو فـي أحـشائـه. إنـه تشرين الأول. فـي صبـاح يـوم مـن الـصعب تـصـريفه، حتـى لرجـل مثلـه تجاوز أصباحاً كثيرة مثل هذا الصباح. فخلال ست وخمسين سنة ـ منذ انتهت الحـرب الأهليـة الأخيرة ـ لم يفعـل الكولونيـل شيئاً سـوى الانتظار. وكان تشرين أحد الأشياء القليلة التي تصل في موعدها.

رفعت زوجتـه الكلّة عنـدما رأتـه يـدخل إلى حجـرة النـوم حـاملاً القهـوة. لقـد عانـت تلـك الليلـة مـن نوبـة ربـو، وتتنابهـا الآن حالـة مـن النعاس. لكنها اعتدلت لتناول الفنجان.

ـ وأنت؟ ـ قالت.

فكذب الكولونيل قائلاً:

ـ لقد تناولت قهوتي، ومازالت لدينا ملعقة كبيرة من البُن.

فـي تلـك اللحظـة شـرعت الأجـراس تقـرع. كـان الكـولونيـل قـد نسي الجنـازة. وبينمـا كـانـت زوجتـه تتنـاول القهـوة، نـزع أحـد طرفـي أرجوحـة النـوم وطواهـا إلى حيـث طرفهـا الآخـر، وراء البـاب. فـكـرت المرأة بالميت.

ـ ولد سنة 1922ـ قالت ـ. بعد شهر تماماً من ميلاد ابننا. يوم السادس من نيسان.

وتابعت رشف القهوة ما بين شهقات تنفسها المتعثر. إنها امرأة تبدو وكأنها مبنية من غضاريف بيضاء مستندة إلى عمود فقري متقوس وبلا مرونة. تضطرها تقلبات تنفسها إلى تشديد أسئلتها. وعندما انتهت من تناول القهوة كانت ما تزال تفكر بالميت.

«لا بد أن دفن المرء في تشرين شيء رهيب»، قالت. ولكن زوجها لم يعرها اهتماماً. فتح النافذة. كان أكتوبر قد استقر في الفناء. وبينما الكولونيل يتأمل النباتات التي تتشق عن اخضرار كثيف، والأخاديد الدقيقة التي خلفتها الديدان في الوحل، عاوده الإحساس من جديد بالشهر المشؤوم في أمعائه.

ـ أشعر بأن عظامي رطبة ـ قال.

فردت زوجته:

ـ إنه الشتاء. منذ بدأ المطر يهطل وأنا أطلب منك أن تنام لابساً جوربيك.

ـ منذ أسبوع وأنا أنام بالجوربين.

كان المطر يهطل ببطء، ولكن دون توقف. وكان الكولونيل يود أن يلف نفسه ببطانية صوفية ويعود من جديد إلى سريره المعلق. غير أن إلحاح الأجراس البرونزية ذكّره بالجنازة، فدمدم: «إنه تشرين»، وسار نحو وسط الغرفة. وعند ذلك فقط تذكر ديك المصارعة المربوط إلى قائمة السرير.

وبعد أن حمل الفنجان الفارغ إلى المطبخ، ملأ نابض ساعة بندول مثبتة ضمن إطار خشبي مزخرف في الصالة. وعلى العكس من غرفة النوم الضيقة التي لا تناسب تنفس المريضة بالربو، كانت الصالة

واسعة، وفيها أربعة كراس هزازة حول منضدة صغيرة عليها شرشف وهرّ من الجص. وعلى الجدار المقابل لجدار الساعة، عُلقت لوحة لامرأة متكئة وسط حرير ناعم شفاف، ومحاطة بمتوددين في زورق مترع بأزهار.

كانت السادسة وعشرين دقيقة عندما انتهى من تعبئة الساعة. بعد ذلك حمل الديك إلى المطبخ، وربطه إلى دعامة بجانب حفنة من الذرة. نفذت مجموعة من الأطفال من خلال السور المتشقق، وجلست حول الديك لتراقبه بصمت.

- لا تنظروا كثيراً إلى هذا الحيوان، فالديوك تهترئ من كثرة النظر إليها - قال لهم الكولونيل.

ولكن الأطفال لم يرفعوا أنظارهم عن الديك. وراح أحدهم يعزف على الهارمونيكا أنغام الأغنية الدارجة «*لا تلمسني اليوم*»، فقال له الكولونيل: «هناك ميت في القرية». فدس الطفل الآلة في جيب بنطاله، ومضى الكولونيل إلى الغرفة ليرتدي ملابسه ويذهب إلى الجنازة.

لم تكن ملابسه البيضاء مكويّة بسبب نوبة الربو التي أصابت المرأة. فكان على الكولونيل أن يحسم أمره بارتداء بدلة الجوخ السوداء التي لم يستخدمها بعد الزواج إلا في مناسبات خاصة جداً. وقد كلفه العثور عليها في أسفل الصندوق جهداً ليس بالقليل. كانت ملفوفة بأوراق صحف، ومحفوظة من العثة بكرات صغيرة من النفتالين. تابعت المرأة التي كانت مستلقية على السرير التفكير بالميت.

ـ لا بد أنه التقى مع أغوسطين الآن ـ قالت ـ. وقد لا يخبره بالحالة التي صرنا إليها بعد موته.

فقال الكولونيل:

ـ لا بد أنهما يتحدثان عن الديوك الآن.

عثر في الصندوق على مظلة كبيرة وقديمة. كانت زوجته قد كسبتها في سوق خيري اقيم لجمع تبرعات لصالح حزب الكولونيل. في تلك الليلة ذاتها حضروا عرضاً في الهواء الطلق. ولم يتوقف العرض برغم المطر الذي كان يهطل. وشاهد الكولونيل، وزوجته، وابنه أغوسطين ـ الذي كان عمره حينئذ ثماني سنوات ـ العرض حتى نهايته، وهم جالسون تحت المظلة. لقد مات أغوسطين الآن وبطانة المظلة التي من الأطلس قد اهترأت بفعل العث.

ـ انظري كيف صارت مظلتنا التي كمظلات مهرجي السيرك.

قالها الكولونيل وكأنه يقول عبارة قديمة كان يستخدمها بكثرة. وفتح فوق رأسه جهازاً غامضاً من أسلاك معدنية. ثم تابع:

ـ إنها تنفع الآن لعد النجوم فقط.

ابتسم. ولكن المرأة لم تتكلف مشقة النظر إلى المظلة ودمدمت: «كل شيء هكذا. إننا نتعفن في الحياة». وأغمضت عينيها لتفكر في الميت بمزيد من التركيز.

بعد أن حلق الكولونيل ذقنه بالتلمس ـ إذ لم تكن عنده مرآة منذ زمن بعيد ـ ارتدى ملابسه بصمت. كان البنطال ضيقاً وملتصقاً بالساقين كأنه سروال داخلي طويل، ويغلق عند الكاحلين بشريطين منزلقين، ويثبت عند الخصر بلسانين صغيرين من القماش نفسه يمران من خلال إبزيمين مذهبين ومخاطين على ارتفاع الكليتين، فهو لم يكن يستخدم حزاماً. أما القميص الذي بلون كرتون عتيق، وله قساوة الكرتون أيضاً، فإنه يغلق في أعلاه بزر نحاسي، وهذا الزر نفسه يثبت أيضاً الياقة المستعارة التي كانت ممزقة، لذلك تخلى الكولونيل عن وضع ربطة العنق.

كان يقوم بكل حركة كأنه يؤدي مهمة خطيرة. وكانت عظام يديه مغطاة بالجلد اللامع المشدود والمخطط بتفرعات العروق كجلد الرقبة. وقبل أن يلبس حذاءه ذا الكعب العالي اللامع، حكّ الوحل العالق بنعله. وفي هذه اللحظة فقط رأته زوجته وهو يرتدي ملابس يوم عرسه. وأدركت عندئذ كم هرم زوجها. قالت:

- تبدو كأنك ذاهب إلى حدث هام.

- هذه الجنازة حدث هام - قال الكولونيل -. فهذا هو الميت الأول الذي يموت ميتة طبيعية منذ سنوات عديدة.

انقطع المطر بعد التاسعة. وأخذ الكولونيل يستعد للخروج عندما جذبته زوجته من كمّ سترته، وقالت:

- سرّح شعرك.

حاول أن يثني شعره الخشن بمشط عظم، ولكن جهده ذهب سدى.

- لا بد أني أبدو كببغاء - قال.

تفحصته المرأة. وفكرت أن لا. فالكولونيل لا يبدو كببغاء. إنه رجل جاف، له عظام متينة كأن مفاصلها من براغ وصمولات. وبسبب حيوية عينيه فقط لا يبدو كائناً محفوظاً في الفورمول.

«إنك في حالة جيدة هكذا»، وافقت هي وأضافت بينما زوجها يغادر الغرفة:

- اسأل الطبيب عما إذا كنا قد ألقينا عليه ماء ساخناً في هذا البيت.

كانا يعيشان في طرف القرية، في بيت سقفه من السعف وجدرانه مطلية بكلس قد تقشّر. وكانت الرطوبة ما تزال منتشرة، ولكن المطر كفّ عن الهطول. نزل الكولونيل باتجاه الساحة عبر

زقاق يفصل بيوتاً متلاصقة. وعند وصوله إلى الشارع الرئيسي شعر برجفة، فإلى أبعد مدى يبلغه بصره كانت القرية مفروشة بالزهور. بينما جلست النساء بملابسهن السوداء أمام أبواب البيوت بانتظار الجنازة.

وفي الساحة، بدأ المطر بالهطول من جديد. ومن أمام محله رأى صاحبُ صالة البيلياردو مرور الكولونيل، فناداه صارخاً وهو يفتح ذراعيه:

ـ أيها الكولونيل، انتظر وسأعيرك مظلة.

فأجابه الكولونيل دون أن يلتفت:

ـ شكراً، فالحال حسنة هكذا.

لم تكن الجنازة قد خرجت بعد. وكان الرجال ـ وهم يرتدون ملابس بيضاء وربطات عنق سوداء ـ يتبادلون الحديث أمام بيت الميت تحت مظلاتهم. رأى أحدهم الكولونيل وهو يقفز فوق برك الماء في الساحة فصرخ:

ـ تعال وانضم إليّ يا صاحبي.

وأفسح له مكاناً تحت مظلته.

ـ شكراً يا صاحبي ـ قال الكولونيل.

لكنه لم يقبل الدعوة، بل دخل من فوره إلى البيت ليعزي والدة المتوفى. كان أول ما أحس به هو رائحة زهور كثيرة متنوعة. وبعد ذلك شعر بالحر. وحاول أن يشق طريقه وسط الحشد المجتمع في غرفة النوم. ولكن أحدهم وضع يده على ظهره، ودفعه نحو عمق الغرفة عبر دهليز من الوجوه الحائرة إلى حيث توجد ـ واسعتين وعميقتين ـ فتحتا أنف الميت.

هناك كانت الأم تهش الذباب عن التابوت بمذبة من السعف

المجدول. ووقفت نساء أخريات يرتدين السواد ويتأملن الجثة وعلى وجوههن ملامح من يتأمل تدفق الماء في نهر. وفجأة انبعث صوت من آخر الغرفة. فمال الكولونيل متجنباً امرأة، ووجد نفسه بمحاذاة وجه أم الميت، فوضع إحدى يديه على كتفها وضغط على أسنانه وقال:

- تعازيّ ومشاعري.

لم تلتفت إليه. فتحت فمها وأطلقت نباحاً حاداً. فذعر الكولونيل. وشعر بأنه مدفوع نحو الجثة بحركات الحشد المضطرب الذي اهتز متدافعاً حوله. فبحث بيده عن شيء يستند إليه، ولكنه لم يجد الجدار. فقد كانت أجساد أخرى مكانه. همس أحدهم في اذنه بصوت ناعم جداً: «انتبه، أيها الكولونيل». أدار رأسه فوجد أمامه الميت. ولكنه لم يتعرف عليه فقد كان قاسياً وديناميكياً، وتبدو عليه الحيرة مثله، وهو مغطى بخرق بيضاء والبوق بين يديه. وعندما رفع رأسه فوق الصرخات بحثاً عن الهواء، رأى التابوت المغطى وهو يهتز متقدماً باتجاه الباب وعليه إكليل من زهور تتفتت وهي تصطدم بالجدران. تعرّق. وشعر بألم في مفاصله. وبعد برهة عرف أنه أصبح في الشارع لأن قطرات المطر الخفيف أصابت رموشه. شدّه أحدهم من ذراعه وقال له:

- تعال أيها الصديق، لقد كنت أنتظرك.

كان هذا دون ساباس عراب ابنه الميت، والوحيد بين زعماء حزبه الذي استطاع الإفلات من الاضطهاد السياسي، وظل يعيش في القرية بعد ذلك. «شكراً أيها الصديق»، قال الكولونيل، وسار بجانبه صامتاً تحت المظلة. بدأت الفرقة الموسيقية تعزف اللحن الجنائزي. وأحس الكولونيل بأن ثمة آلة نحاسية ناقصة، وللمرة الأولى تأكد من أن المتوفى قد مات، فدمدم:

- يا للمسكين.

تتحنح دون ساباس. وكان يحمل المظلة بيده اليسرى ، وكانت قبضتها في مستوى رأسه تقريباً ، إذ كان أقصر بكثير من الكولونيل. وعندما خرج الموكب من الساحة أخذ الرجال يتناقشون. حينئذ التفت دون ساباس نحو الكولونيل بوجهه المكتئب، وقال:

- ما هي أخبار الديك يا صاحبي.

- إنه هناك - أجاب الكولونيل.

وفي هذه اللحظة سُمعت صرخة متسائلة:

- إلى أين تذهبون بهذا الميت؟

رفع الكولونيل نظره، فرأى العمدة يقف على شرفة المركز وقفة خطابية. كان يرتدي سروالاً داخلياً وفانلّة، وأحد خديه متورم وغير حليق. أوقف الموسيقيون عزف اللحن الجنائزي. وبعد لحظات تعرف الكولونيل على صوت الأب أنخل وهو يصرخ متحاوراً مع العمدة. وفك رموز الحوار من خلال قطرات المطر على المظلات.

- ماذا الآن؟ - تساءل دون ساباس.

فأجاب الكولونيل:

- لا شيء. ولكن لا يمكن للجنازة أن تمر من أمام مركز الشرطة.

فهتف دون ساباس:

- لقد نسيت هذا. إنني أنسى دائماً أننا في حالة طوارئ.

قال الكولونيل:

- ولكن هذا ليس تمرداً. إنها جنازة موسيقيّ مسكين ميت.

غيّر الموكب اتجاهه. وعند مروره في الأحياء الواطئة تطلعت إليه النسوة وهن يقضمن أظافرهن بصمت. ولكنهن خرجن بعد ذلك

إلى منتصف الشارع وأطلقن صرخات الإطراء والامتنان والوداع، وكأنهن يعتقدن بأن الميت يسمعهن وهو في تابوته. شعر الكولونيل بالتوعك وهو في المقبرة. وعندما دفعه دون ساباس نحو الجدار ليفسح الطريق أمام الرجال الذين يحملون النعش، التفت إليه مبتسماً، ولكنه التقى بوجه قاس.

- ماذا جرى لك أيها الصديق - سأله.

فتنهد الكولونيل:

- إنه تشرين يا صاحبي.

رجعا من الشارع نفسه. كان المطر قد انقطع. وأصبحت السماء أعمق، وأشد زرقة. وفكر الكولونيل: «لن تمطر أكثر»، وشعر بأن حالته تتحسن، ولكنه استمر في ذهوله. وأيقظه دون ساباس:

- أيها الصديق، عليك أن تعرض نفسك على طبيب.

فقال الكولونيل:

- لست مريضاً. كل ما في الأمر أنني أشعر في تشرين كما لو أن حيوانات في أحشائي.

«آه»، قال دون ساباس. ثم ودعه أمام باب منزله، وهو بناء جديد، من طابقين، بنوافذ من حديد مزخرفة. واتجه الكولونيل إلى منزله قانطاً ليخلع بدلة المناسبات. ثم عاد وخرج من جديد بعد لحظات ليشتري من الدكان الذي على الناصية علبة بن ونصف رطل من الذرة للديك.

شغل الكولونيل نفسه بالعناية بالديك، على الرغم من أنه كان يفضل قضاء يوم الخميس في سريره. لم ينقطع المطر طوال أيام. وخلال الأسبوع انفجرت زهرة أحشائه. وأمضى عدة ليال في سهر متواصل، يتعذب بصفير رئتي المريضة بالربو. ولكن تشرين منحه هدنة مساء يوم الجمعة. وقد استغل أصدقاء أغوسطين ـ وهم معلمو خياطة مثلما كان هو، ومتعصبون لمصارعة الديكة ـ استغلوا الفرصة ليتفحصوا الديك. فوجدوا أنه في وضع جيد.

عاد الكولونيل إلى الغرفة عندما ذهبوا، وظل وحيداً مع زوجته التي بدت منفعلة، سألته: ـ ما رأيهم.

فأخبرها الكولونيل:

ـ إنهم متحمسون. وجميعهم يدخرون المال للمراهنة على الديك.

وقالت المرأة:

ـ لست أدري ما الذي رأوه في هذا الديك القبيح. إنه يبدو لي كظاهرة غريبة: راسه صغير جداً بالنسبة لقائمتيه.

ـ يقولون إنه أفضل ديك في المنطقة ـ أجابها الكولونيل ـ. ويساوي حوالي خمسين بيزو.

كان موقناً من أنه سيسوغ بهذه الذريعة قراره الاحتفاظ بالديك، الموروث عن ابنه الذي مات مُخترقاً بالرصاص قبل تسعة شهور في حلبة مصارعة الديوك، لأنه كان يوزع منشورات سرية. قالت المرأة: «إنه وهم يكلف غالياً. فعندما تنتهي الذرة سيكون علينا أن نطعمه من كبدينا». فكر الكولونيل طوال الوقت الذي كان يبحث فيه عن بنطاله القطني في صندوق الملابس، وقال:

ـ سيكون هذا لبضعة شهور وحسب. فقد صار معروفاً بصورة مؤكدة أن مصارعة للديوك ستقام في كانون الثاني وبعد ذلك نستطيع بيعه بسعر أفضل.

كان البنطال دون كي. فمسدته المرأة فوق الموقد بصفيحتين من الحديد المحمى على الفحم. ثم سألته:

ـ ما هي ضرورة خروجك إلى الشارع؟

ـ البريد.

«لقد نسيتُ أن اليوم هو الجمعة»، علقت وهي عائدة إلى الغرفة. كان الكولونيل قد ارتدى ملابسه كاملة ما عدا البنطال. وتأملت هي حذاءه، وقالت:

ـ هذا الحذاء للرمي. داوم على انتعال الجزمة ذات الكعب.

أحس الكولونيل بالكدر. وقال معترضاً:

ـ إنها تبدو كأحذية الأيتام. وكلما لبستها أشعر كأني هارب من مأوى للأيتام.

ـ إننا يتيمان من ابننا ـ قالت المرأة.

لقد أفحمته هذه المرة أيضاً. اتجه الكولونيل إلى الميناء النهري قبل أن تطلق المراكب صفيرها. كان يلبس جزمته اللامعة، وبنطالاً أبيض دون حزام، وقميصاً دون ياقة عنق مغلقاً في أعلاه بزر نحاسي. وراقب من متجر موسى السوري مناورة المراكب وهي تدخل المرسى. نزل المسافرون منهكين بعد ثماني ساعات لم يغيروا خلالها من وضعياتهم. لقد كانوا المسافرين أنفسهم الذين يأتون دائماً: باعة متجولون، وبعض أهل القرية الذين سافروا في الأسبوع الماضي وعادوا كالمعتاد.

المركب الأخير كان مركب البريد. وقد نظر إليه الكولونيل

وهو يرسو بجزع قلق. واكتشف كيس البريد على السطح. معلقاً بأنابيب البخار ومغطى بقطعة قماش مغلقة. فقد شحذت حدسه خمسة عشر عاماً من الانتظار. وشحذ الديك تلهفه. ومنذ اللحظة التي صعد فيها موظف البريد إلى المركب، وفك الكيس وألقى به على ظهره، كان الكولونيل يتابعه ببصره.

وتابعه عبر الشارع الموازي للميناء، حيث تمتد متاهة متاجر وأكشاك تعج ببضائع ذات ألوان استعراضية. في كل مرة كان الكولونيل يفعل هذا، وكان دوماً يحسّ بقلق مختلف ولكنه كالرعب، باعث على الترقب المتوتر.

كان الطبيب ينتظر في مكتب البريد ليستلم الصحف. فقال له الكولونيل:

- زوجتي تسأل إذا ما كان أحد قد سكب عليك ماء ساخناً في بيتنا.

إنه طبيب شاب، يغطي رأسه شعر مجعد ولامع. وكان ثمة شيء لا يصدق في دقة انتظام أسنانه. وقد أبدى اهتماماً بصحة المريضة بالربو. وزوده الكولونيل بمعلومات مفصلة عن حالتها دون أن يتوقف عن مراقبة حركات موظف البريد الذي كان يفرز الرسائل مصنفاً إياها في كوى خاصة. وقد أغاظت الكولونيل طريقته المتثاقلة في العمل.

استلم الطبيب رسائله مع رزمة الصحف. وضع جانباً النشرات الدعائية الطبية. ثم تصفح الرسائل الشخصية. وفي أثناء ذلك، قام الموظف بتوزيع الرسائل على أصحابها الموجودين. تطلع الكولونيل إلى الكوة الخاصة به في اللائحة الأبجدية. بينما كانت في يد الموظف رسالة مرسلة بالطائرة حوافها زرقاء ضاعفت من توتر أعصابه.

نزع الطبيب مغلف الصحف. وقرأ أبرز الأخبار، بينما كان الكولونيل ـ الذي يثبت نظره على كوته ـ ينتظر من موظف البريد أن يتوقف أمامها. ولكنه لم يفعل. قطع الطبيب قراءته الصحف. نظر إلى الكولونيل. ثم نظر إلى الموظف الذي جلس أمام جهاز البرق وعاد ينظر مرة أخرى إلى الكولونيل، وقال:

ـ فلنذهب.

قال الموظف الذي لم يرفع رأسه:

ـ لا شيء للكولونيل.

فأحس الكولونيل بالخجل، وقال كاذباً:

ـ لم أكن أنتظر شيئاً ـ والتفت نحو الطبيب بنظرة طفولية تماماً، وتابع: ـ ليس لديّ من يكاتبني.

رجعا صامتين. الطبيب مركزاً اهتمامه في الصحف. والكولونيل بطريقته المعتادة في المشي التي تبدو كمشية رجل يذرع الشارع بحثاً عن قطعة نقود ضائعة. كان مساء ساطعاً. وأشجار اللوز في الساحة تلقي آخر أوراقها المتعفنة. وعندما وصلا إلى باب العيادة كان الليل قد بدأ يخيم.

ـ ما هي الأخبار ـ سأله الكولونيل.

فقدم إليه الطبيب عدة صحف، وقال:

ـ لست أدري... فمن الصعب قراءة ما بين السطور التي تسمح الرقابة بنشرها.

قرأ الكولونيل العناوين البارزة. كلها أخبار عالمية. وفي أعلى الصفحة، على أربعة أعمدة، تقرير حول تأميم قناة السويس. الصفحة الأولى كانت ممتلئة كلها تقريباً بالنعوات.

ـ لا أمل في إجراء انتخابات ـ قال الكولونيل.

فقال له الطبيب:

ـ لا تكن ساذجاً أيها الكولونيل. فقد أصبحنا كباراً على انتظار المسيح المخلص.

حاول الكولونيل أن يعيد إليه الصحف، لكن الطبيب اعترض قائلاً:

ـ خذها معك إلى البيت.. اقرأها هذه الليلة وأعدها لي غداً.

بعد الساعة السادسة بقليل قُرعت في برج الكنيسة أجراس الرقابة السينمائية. إذ أن الأب أنخل يستخدم هذه الوسيلة ليشير إلى النوعية الأخلاقية للفيلم استناداً إلى قائمة التصنيف التي يتلقاها بالبريد كل شهر. عدت زوجة الكولونيل دقات الناقوس، فكانت دقتين.

قالت:

ـ إنه فيلم سيئ لجميع الأعمار... منذ سنة تقريباً وجميع الأفلام سيئة لجميع الأعمار.

أسدلت ستارة الكلّة ودمدمت: «لقد فسد العالم». أما الكولونيل فلم يعلق بشيء. وقبيل أن ينام ربط الديك إلى قائمة السرير. ثم أغلق البيت ورش مبيد الحشرات في الغرفة. وضع بعدها المصباح على الأرض، وعلق أرجوحة نومه واستلقى ليقرأ الصحف.

قرأها جميعاً، حسب تسلسل تواريخها، ومن الصفحة الأولى حتى الأخيرة، بما في ذلك الإعلانات. وفي الساعة الحادية عشرة تعالى صوت نفير منع التجوال. وختم الكولونيل القراءة بعد نصف ساعة من ذلك. فتح باب البهو باتجاه الليل القاتم، وبال على دعامة السقف الخشبية التي تعج بالبعوض.. وعندما رجع إلى الغرفة كانت زوجته مستيقظة. سألته:

ـ أليس في الصحف شيء عن قدماء المحاربين.

ـ لا شيء. ـ قالها الكولونيل وأطفأ المصباح قبل أن يدس نفسه في أرجوحة، ثم أردف:

ـ لقد كانوا سابقاً ينشرون على الأقل قائمة بأسماء المحالين الجدد على التقاعد. ولكنهم منذ خمس سنوات تقريباً لا يذكرون شيئاً.

أمطرت بعد منتصف الليل. واستجاب الكولونيل للنعاس ولكنه استيقظ بعد لحظة مذعوراً بسبب أمعائه. وانتبه إلى وجود ثقب في السقف يقطر منه ماء المطر إلى مكان ما من البيت. فنهض وقد لف نفسه ببطانية صوفية حتى رأسه وحاول تحديد مكان الثقب في الظلام. انزلق خيط من العرق البارد على عموده الفقري. فأدرك أنه محموم. وأحسّ بأنه يطفو في دوائر ذات مركز واحد ضمن بركة من الهلام. تكلم أحدهم. فرد عليه الكولونيل من سريره المعلق الذي كان يستخدمه وهو ثائر.

سألته زوجته:

ـ مع من تتكلم.

ـ مع الإنكليزي الذي ظهر متنكراً كنمر في معسكر الكولونيل أوريليانو بويندیا ـ أجابها الكولونيل. ثم استدار في أرجوحة النوم متوقداً بالحمى، وتابع: ـ لقد كان دوق مارلبورو.

استيقظ في غاية الإنهاك. وعندما دق ناقوس الصلاة للمرة الثانية قفز من سريره المعلق وانتصب في واقع من الاضطراب والضوضاء التي كان يسببها صراخ الديك. كان رأسه ما يزال يلف في دوائر ذات مركز واحد. أحس بالغثيان. فخرج إلى البهو واتجه نحو المرحاض عبر الحفيف الناعم وروائح الشتاء المكفهرة. حجرة

المرحاض الصغيرة المصنوعة من الأخشاب والمغطاة بسقف من التوتياء كانت تعبق بأبخرة الأمونياك المنطلقة من المبولة. وعندما رفع الكولونيل الغطاء انطلقت من الفتحة سحابة من الذباب.

لقد كان ذعراً زائفاً. فعندما اتخذ وضع القرفصاء على الأرضية المصنوعة من خشب لم تصقله فأرة النجارة، أحس بتفاهة رغبته الخائبة. فقد شعر بدل الغثيان بألم ثقيل في الجهاز الهضمي. وتمتم الكولونيل «لا شك في هذا. فدائماً يحدث لي الشيء نفسه في تشرين». وظهرت عليه سيماء الواثق البريء الآمل إلى أن خمد الفطر الذي في أحشائه. عندئذ عاد إلى الغرفة ليرى الديك.

قالت له زوجته:

ـ لقد كنتَ تهذي من الحمى في الليل.

كانت قد بدأت بترتيب الغرفة التي لم تُرتب طوال أسبوع الأزمة، وحاول الكولونيل جاهداً أن يتذكر. ثم قال كاذباً:

ـ لم تكن حمى، وإنما هو حلم العناكب من جديد.

وكما يحدث دائماً، خرجت المرأة من نوبة الربو متحمسة. ففي فترة الصباح قلبت البيت رأساً على عقب. وأبدلت مكان كل الأشياء ما عدا الساعة ولوحة حورية البحيرات. لقد كانت امرأة ضئيلة ومرنة لدرجة أنها عندما كانت تتنقل بخفها الذي من القطيفة وثوبها الأسود المغلق بكامله، تبدو وكأنها تملك خاصية القدرة على اختراق الجدران. ولكن قبل أن تصل الساعة إلى الثانية عشرة كانت قد استعادت كثافتها، وثقلها الإنساني. لقد كانت خواءً وهي في السرير. أما الآن، وهي تتحرك بين أصص السرخس والبيجونيا، فإن وجودها يملأ البيت. «لو أن سنة مضت على وفاة أغوسطين لكنت غنيت» قالت وهي تحرك القدر التي تغلي على الموقد وتحتوي جميع

أصناف نباتات الأكل التي يمكن للأرض المدارية إنتاجها، مقطعة إلى قطع متشابهة.

قال لها الكولونيل:

ـ إذا كنت تشعرين برغبة في الغناء، غني. فهذا مفيد من أجل الغدة الصفراء.

بعد الغداء حضر الطبيب. كان الكولونيل وزوجته يتناولان القهوة في المطبخ عندما دفع الباب المؤدي إلى الشارع وهتف:

ـ لقد مات المرضى.

نهض الكولونيل لاستقباله، وقال وهو يقوده إلى الصالة:

ـ إن الأمر كذلك أيها الدكتور. وقد كنت أقول دائماً إن ساعتك تمضي مع ساعة طيور الرخمة.

ذهبت المرأة إلى الغرفة لتعد نفسها للفحص. وبقي الطبيب في الصالة مع الكولونيل. وبرغم الحر، كانت بدلته المصنوعة من الكتان الخام تطلق نفحة من البرودة. وعندما أعلنت المرأة أنها مستعدة، قدم الطبيب إلى الكولونيل ثلاث رزم من الورق ضمن مغلف. وقال: «هذا هو ما لم تقله صحف الأمس». ثم دخل إلى الغرفة.

لقد خمن الكولونيل ذلك. فقد كانت الأوراق تحتوي أهم آخر الأحداث على المستوى الوطني مطبوعة على آلة سحب، للتداول السري، وتقريراً عن وضع المقاومة المسلحة داخل البلاد. أحسّ بالانهيار. فعشر سنوات من الإعلام السري لم تعلمه أنه ليس هناك أي خبر أكثر مفاجأة من أخبار الشهر القادم. كان قد انتهى من القراءة عندما رجع الطبيب إلى الصالة وقال:

ـ هذه المريضة في حال أحسن من حالتي. فبإصابة بالربو كهذه سأكون قادراً على العيش مئة سنة.

نظـر إليـه الكولونيـل بـتجهم. وأعـاد إليـه المغلـف دون أن يفـوه بكلمة واحدة، ولكن الطبيب ردّه قائلاً بصوت خافت:

- أطلع عليه آخرين.

وضـع الكولونيـل المغلـف فـي جيـب بنطالـه. وخرجـت المـراة مـن الغرفة قائلة: «في يوم قريب سأموت وسأحملك معي إلى الجحيم أيها الـدكتور». رد الطبيـب صـامتاً بإظهـار بيـاض أسنانه المرتبـة. ثـم أدار كرسياً نحـو الطاولـة الصغيرة وتنـاول مـن حقيبتـه عـدة زجاجـات مـن أدوية العينات المجانية. مضت المرأة مسرعة نحو المطبخ:

- انتظر ريثما أسخن لك القهوة.

- لا، شـكراً جـزيلاً - قـال الطبيـب وهـو يكتـب مقـدار الجرعة علـى ورقـة مـن الأوراق المرفقـة بالزجاجـات والـتي تحتـوي تركيـب الدواء، وتابع: - إني أرفض رفضاً قاطعاً منحك الفرصة لتسميمي.

ضحكت وهي في المطبخ. وعندما انتهى الطبيـب مـن الكتابـة، قـرأ مـا كتبـه بصوت عـالٍ، إذ كـان يعـرف أن أحـداً لا يستطيع حل رمـوز كتابتـه. حـاول الكولونيـل أن يركـز انتباهـه. وعنـدما رجعـت المرأة من المطبخ لاحظت على وجهه آلام الليلة الماضية، فقالت للطبيب وهي تشير إلى زوجها:

- لقد عانى لليلة من الحمى. وأمضى حوالي سـاعتين وهـو يهـذي بهراء عن الحرب الأهلية.

ذعر الكولونيل، وقال بإصرار:

«لم تكـن حمـى»، ثـم تـابع وهـو يستعيد رصـانته: «ثم إنـني، فـي اليوم الذي سأشعر فيه بأني مـريض، لـن أضـع نفسـي بـين يدي أحـد. وإنما سألقي بنفسي إلى صندوق القمامة».

ذهب إلى الغرفة لإحضار الصحف.

- شكراً على الزهرة - قال الطبيب.

سارا معاً نحو الساحة. كان الهواء جافاً. وكان إسفلت الشارع قد بدأ يذوب من الحر. وعندما ودعه الطبيب، سأله الكولونيل بصوت خافت، وقد ضغط على أسنانه:

- بكم نحن مدينون لك أيها الدكتور.

قال الطبيب:

- لا شيء في الوقت الحاضر - ثم ربت على ظهره قائلاً:

- سآتيك بقائمة ديون كبيرة عندما يكسب الديك.

اتجه الكولونيل إلى دكان الخياط ليعطي الرسالة السرية لأصدقاء أغوسطين. لقد كان هذا المحل هو مأواه الوحيد منذ أخذ رفاقه في الحزب يموتون أو يُطردون من القرية، وتحول هو إلى مجرد رجل وحيد لا اهتمامات لديه سوى انتظار البريد كل يوم جمعة.

استحث دفء الأصيل ديناميكية المرأة. وبينما هي جالسة بين أزهار البيجونيا التي في الممر وبجانبها صندوق ملابس قديمة لا نفع منها، حققت مرة أخرى المعجزة الأبدية بإخراج ملابس جديدة من لا شيء. فقد صنعت أطواقاً للمعاصم، وياقة من نسيج ظهر رداء مهترئ، ورقعاً مربعة ومنتظمة من قطع قماش مختلفة الألوان. أطلق صرصور لصفيره العنان في البهو. وأخذت الشمس بالنضج. ولكن المرأة لم ترها وهي تحتضر فوق أزهار البيجونيا. ولم ترفع رأسها إلا عند الغروب، حين رجع الكولونيل إلى البيت. عندئذ ضغطت الياقة بكلتا يديها ودعكت أماكن الوصل في القماش، وقالت: «لقد صار دماغي متصلباً مثل هراوة».

فقال لها الكولونيل:

- لقد كان هكذا دائماً.

ولكنه انتبه بعد ذلك إلى جسد المرأة المغطى بقطع القماش الملونة، فقال:

- إنك تبدين مثل نقار الخشب.

- يجب أن أكون نصف نقارة خشب كي أستطيع تأمين ملابس لك - قالت وهي تقدم إليه قميصاً مصنوعاً من أقمشة ذات ثلاثة ألوان مختلفة، باستثناء الياقة والمعصمين إذ كانت بلون موحد ثم أردفت:

- لن تحتاج في الكرنفال إلا لأن تخلع السترة.

قاطعتها أجراس الساعة السادسة. «إن ملاك الحرب ينادي للصلاة»، صلّت بصوت عال، وهي تتجه إلى غرفة النوم حاملة الملابس. تبادل الكولونيل الحوار مع الصبيان الذين حضروا بعد خروجهم من المدرسة للتفرج على الديك. ثم تذكر أنه لم تعد لديهم ذرة تكفي الديك لليوم التالي فدخل إلى غرفة النوم ليطلب نقوداً من امرأته.

- أعتقد أنه لم يعد لدينا سوى خمسين سنتافو - قالت.

كانت تخفي النقود تحت حصيرة الفراش، وقد ربطت عليها عدة عقد في طرف منديل. وتلك النقود هي ما تبقى من ثمن ماكينة الخياطة التي كان يملكها أغوسطين. لقد أنفقوا خلال تسعة شهور تلك النقود سنتافو بعد آخر، مقسمين إياها بين ضرورياتهم وضروريات الديك. ولم يبق منها الآن سوى قطعتين من فئة العشرين وقطعة من فئة العشرة سنتافو.

قالت المرأة:

- اشتر رطلاً من الذرة. واشتر بالباقي بُنّاً لقهوة الصباح وأربع أونصات من الجبن.

- وفيلاً مذهباً لنعلقه على الباب - تابع الكولونيل مقلداً إياها، ثم قال: - الذرة وحدها تساوي اثنين وأربعين سنتافو.

فكرا برهة. وقالت المرأة مبدئياً: «الديك حيوان، ويمكنه أن ينتظر بلا طعام». ولكن ملامح وجه زوجها أجبرتها على إعادة النظر، جلس الكولونيل على السرير، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه بينما كانت قطع النقود المعدنية ترن بين يديه. ثم قال بعد برهة: «أنا لا أريد الديك لنفسي... لو أن الأمر متعلق بي لقمت هذه الليلة بالذات بإعداد وجبة من الديك. ولا شك أن تخمة من خمسين بيزو ستكون شيئاً جيداً». وتوقف قليلاً ليسحق بعوضة على رقبته. ثم لاحق زوجته بعينيه وهي تمضي في أنحاء الغرفة. وقال:

- إن ما يشغل تفكيري هو أن هؤلاء الشبان المساكين يدخرون النقود للرهان على الديك.

عند ذلك بدأت هي التفكير. قامت بدورة كاملة في الغرفة وهي تحمل مضخة مبيد الحشرات. وشعر الكولونيل بشيء خرافي في موقفها. أحس كما لو أنها تستدعي أرواح البيت لاستشارتها. وأخيراً وضعت المضخة على مذبح من الحجر المنقوش وثبتت عينيها اللتين بلون الرُبّ، وقالت:

- اشتر الذرة. والله يعلم كيف سنتدبر نحن أمرنا.

«هـذه هـي معجـزة تكـثير الخبـز»، هـذا مـا كـان الكـولونيـل يكرره كلما جلس إلى المائدة طوال الأسبوع التالي. وبمهارتها المذهلة في الإصلاح والرفأ والترقيع، كانت المرأة تبدو كأنها اكتشفت لغز تدعيم الاقتصاد البيتي من العدم. وقد أطال تشرين استراحته. وحلت الرطوبة محلّ الغيبوبة. وأنعشتها الشمس النحاسية، فخصصت ثلاث ليال لتتهمك بتسريح شعرها. «الآن بدأت الصلاة المغناة»، هكذا قال الكولونيل في الأمسية التي حلّت بها خصل شعرها الزرقاء بمشطٍ أسنانه متباعدة. في الأمسية التالية، وهي جالسة في الفناء وملاءة أبيض على حضنها، استخدمت مشطاً أكثر نعومة لتنزع القمل الذي تكاثر خلال الأزمة. وأخيراً غسلت شعرها بماء الخزامى، وانتظرت حتى جف، ثم عقصت الشعر على الرقبة لفتين وثبتته بمشبك.

استلقى الكولونيل في الليل مسهداً في أرجوحة نومه. لقد قاسى كثيراً وهو يفكر بمصير الديك. ولكنهم حين وزنوه يوم الأربعاء كان في حالة جيدة.

وفي تلك الليلة بالذات، حين غادر أصدقاء أغوسطين البيت وهم يُجرون حسابات سعيدة حول فوز الديك، أحس الكولونيل أيضاً بأنه على ما يرام. قصت له امرأته شعره. «لقد أزحتِ عشرين سنة عن كاهلي» قال لها وهو يتلمس رأسه بيديه، ففكرت المرأة في أن زوجها محق، وقالت:

ـ عندما أكون في حالة جيدة فإني قادرة على بعث ميت من موته.

ولكن إيمانها هذا استمر لساعات قليلة فقط. إذ لم يبق في البيت شيء يستحق البيع، ما عدا الساعة واللوحة. وفي يوم الخميس ليلاً، أبدت المرأة قلقها لهذا الوضع أمام نضوب آخر الموارد.

ـ لا تقلقي، فغداً يأتي البريد ـ قال لها الكولونيل مواسياً.

في اليوم التالي، وبينما كان ينتظر مركب البريد أمام عيادة الطبيب، قال الكولونيل وعيناه معلقتان على كيس البريد:

ـ إن الطائرة شيء عظيم، فهم يقولون إنها قادرة على الوصول إلى أوروبا في ليلة واحدة.

«أجل، هذا صحيح»، قال الطبيب وهو يهّوي وجهه بمجلة مصورة. ورأى الكولونيل موظف البريد يقف بين مجموعة من الناس وهو ينتظر انتهاء المركب من مناوراته ليقفز إليه. كان أول من قفز. وتسلّم من القبطان مغلفاً مختوماً بالشمع الأحمر، ثم صعد إلى سطح المركب، حيث كان كيس البريد معلقاً فوق برميلي بترول.

ـ ولكن للطائرة مخاطرها مع ذلك ـ قال الكولونيل. وضاع عن نظره موظف البريد، ولكنه عثر عليه من جديد إلى جانب الزجاجات الملونة في عربة المرطبات. فتابع قائلاً:

ـ إن الإنسانية لا تتقدم مجاناً.

وقال الطبيب:

ـ إنها حالياً أكثر أماناً من السفينة. فعلى ارتفاع عشرين ألف قدم يكون الطيران فوق العواصف.

ـ عشرون ألف قدم ـ كرر الكولونيل حائراً، دون أن يستوعب الرقم تماماً.

اهتم الطبيب بالأمر، فشد المجلة بيديه الاثنتين إلى أن تمكن من تثبيتها بشكل كامل، وقال:

ـ ثمة استقرار تام.

ولكن الكولونيل كان يلاحق موظف البريد. رآه وهو يشرب مرطباً له رغوة وردية، حاملاً الكوب بيده اليسرى، بينما كان يمسك كيس البريد بيده اليمنى.

ـ إضافة إلى هذا ـ واصل الطبيب كلامه ـ، توجد بواخر راسية في البحر وهي على اتصال دائم بالطائرات الليلية. وبهذه الاحتياطات الكثيرة، فإن الطائرات أكثر أماناً من السفن.

نظر الكولونيل إليه، وقال:

ـ بالتأكيد. لا بد أنها مثل البساط.

اتجه الموظف نحوهما مباشرة. مال الكولونيل برغبة لا تقاوم محاولاً قراءة الاسم المكتوب على المغلف المختوم بالشمع الأحمر. فتح الموظف الكيس. وسلّم الطبيب رزمة الصحف. ثم مزق طرف المغلف الذي يضم الرسائل الخاصة وتحقق من صحة جهة الإرسال، ثم قرأ على الرسائل أسماء المرسل إليهم. فتح الطبيب الصحف وقال وهو يقرأ العناوين البارزة:

ـ ما تزال قضية السويس مستمرة. إن الغرب يفقد مواقعه.

قال الكولونيل الذي لم يقرأ العناوين، والذي قام بمجهود ليسيطر على آلام معدته: «منذ فُرضت الرقابة والصحف لا تتحدث إلا عن أوروبا.. من الأفضل أن يأتي الأوروبيون إلى هنا ونذهب نحن إلى أوروبا. وهكذا سيعرف كلّ منا ما الذي يجري في بلده».

فقال الطبيب ضاحكاً، ودون أن يرفع نظره عن الصحف:

ـ إن أمريكا الجنوبية بالنسبة للأوروبيين هي رجل له شارب، يحمل جيتاراً ومسدساً... إنهم لا يفهمون مشاكلنا.

ناوله موظف البريد رسائله، ودسّ الباقي في الكيس وعاد

ليغلقه من جديد. استعد الطبيب ليقرأ رسائله الشخصية. ولكن قبل أن يشق مغلفاتها نظر إلى الكولونيل، ثم نظر إلى الموظف:

- الا يوجد شيء للكولونيل.

أحسن الكولونيل بالذعر. ألقى الموظف بالكيس على كتفه، ثم نزل إلى الرصيف، وأجاب دون أن يدير راسه:

- ليس لدى الكولونيل من يكاتبه.

على غير عادته، لم يذهب لتوه إلى بيته. تناول قهوة في محل الخياطة بينما كان أصدقاء أغوسطين يتفحصون الصحف. أحسّ بأنه مغبون. وكان يفضل البقاء هناك حتى يوم الجمعة التالي كي لا يقف هذه الليلة أمام زوجته صفر اليدين. ولكن عندما أغلقوا المحل كان عليه أن يواجه الواقع. سألته المرأة التي كانت تنتظره:

- لا شيء.

- لا شيء - أجابها الكولونيل.

في يوم الجمعة التالي ذهب إلى حيث المراكب. ومثل كل جمعة رجع إلى البيت دون الرسالة المنتظرة. قالت له زوجته تلك الليلة: «لقد انتظرنا ما فيه الكفاية. يجب أن يكون للمرء صبر الجواميس مثلك لينتظر رسالة طوال خمس عشرة سنة». فقال الكولونيل وهو يندس في أرجوحة النوم ليقرأ الصحف.

- يجب أن ننتظر دورنا، إن رقمنا هو ألف وثمانمائة وثلاثة وعشرين.

ردت المرأة:

- لقد كسب هذا الرقم مرتين في اليانصيب منذ بدأت الانتظار.

قرأ الكولونيل الصحف كالعادة، من الصفحة الأولى حتى الأخيرة، بما في ذلك الإعلانات. ولكنه لم يركز انتباهه هذه المرة. إذ

كان يفكر خلال القراءة بمعاشه التقاعدي: قبل تسع عشرة سنة، عندما أصدر مجلس الشيوخ القانون، بدأت عملية مماطلة استمرت ثماني سنوات. وبعد ذلك احتاج لست سنوات أخرى حتى تمكن من ضم اسمه إلى قائمة قدماء المحاربين. وكانت تلك آخر رسالة يتلقاها الكولونيل.

انتهى من القراءة بعد سماعه إشارة منع التجوال. وعندما مضى ليطفئ المصباح تأكد اعتقاده بأن زوجته ما زالت مستيقظة:

ـ أما زلت تحتفظين بتلك القصاصة.

فكرت المرأة، وقالت:

ـ أجل، يجب أن تكون محفوظة مع الأوراق الأخرى.

خرجت من تحت الكلّة وأخرجت من الخزانة صندوقاً خشبياً فيه حزمة رسائل مرتبة حسب تواريخها ومشدودة إلى بعضها بعضاً برباط مطاطي. سحبت من بينها إعلاناً من وكالة للمحاماة يعد بمتابعة فعالة لقضية رواتب المتقاعدين بعد الحرب.

ـ لو أنك فعلت هذا منذ بدأت أحدثك بموضوع استبدال المحامي لكان لدينا متسع من الوقت حتى لإنفاق المال ـ قالت المرأة وهي تسلّم زوجها قصاصة الجريدة، ثم أردفت:

ـ لن نستفيد شيئاً إذا ما وضعوه لنا في صندوق كما يفعلون بالهنود.

قرأ الكولونيل القصاصة التي تحمل تاريخاً مضت عليه سنتان، ووضعها في جيب القميص المعلق وراء الباب.

ـ السيئ في الأمر هو أن استبدال محام بآخر يتطلب نقوداً.

فقالت المرأة بتصميم:

ـ لا شيء من هذا. اكتب لهم طالباً أن يحسموا المبلغ الذي

يريدونه من الراتب التقاعدي نفسه عندما يحصلون عليه. إنها الطريقة الوحيدة لجعلهم يهتمون بالقضية.

وهكذا ذهب الكولونيل مساء يوم السبت لزيارة محاميه فوجده مستلقياً على السرير المعلق دون هموم. كان رجلاً أسود يشبه تمثالاً ضخماً، ليس له سوى نابين في فكه العلوي. دسّ المحامي قدميه في خفّ نعله الخشبي وفتح نافذة المكتب من فوق بيانو أوتوماتيكي يغطيه الغبار وعليه أوراق محشوة في فراغات لفافات أسطوانية وقصاصات من «الجريدة الرسمية» ملصقة بالصمغ على دفاتر قديمة لمسك الحسابات، ومجموعة من نشرات المحاسبة للاطلاع، وكان البيانو الأوتوماتيكي الذي بلا مفاتيح يستخدم كطاولة للكتابة.

بدأ الكولونيل بعرض ما يساوره من قلق قبل أن يعلن عن غرض زيارته.

«لقد حذرتك من قبل بأن القضية لن تحل بين يوم وآخر»، قال المحامي مستغلاً إحدى وقفات الكولونيل عن الحديث. كان الحرُّ يسحقه. فشدَّ إلى الوراء نوابض مسند الكرسي وحرك أمام وجهه قطعة من الورق المقوى عليها كتابة دعائية مستخدماً إياها كمروحة، وقال:

- كثيراً ما يكتب إليّ وكلائي بأنه يجب علينا ألا نيأس.

فرد الكولونيل:

- إني أسمع الكلام ذاته منذ خمسة عشر عاماً. لقد أصبح هذا الكلام مثل حكاية الديك المخصي.

قدّم المحامي شرحاً بيانياً مسهباً للصعوبات الإدارية التي تعترضه. كان الكرسي ضيقاً جداً بالنسبة لمؤخرته الخريفية. قال: «منذ خمس عشرة سنة كان الأمر أكثر سهولة، ففي ذلك الوقت كانت

عناصر الجمعية البلدية لقدماء المحاربين مؤلفة من كلا الحزبين».
ملأ رئتيه بهواء حارق، ثم تلفظ بعبارة حكيمة وكأنه انتهى من ابتكارها لتوّه:
- الاتحاد يصنع القوة.
قال الكولونيل، وقد تنبه لأول مرة في حياته إلى عزلته:
- ولكنه لم يفعل ذلك في قضيتنا. فجميع رفاقي ماتوا وهم ينتظرون البريد.
لم يتأثر المحامي، وقال:
- لقد صدر القانون متأخراً جداً. ولم يحظ الجميع بحظ مثل حظك فقد كنتَ كولونيلاً في العشرين من العمر. وأضيفت بعد هذا مادة خاصة للقانون، ولهذا كان على الحكومة أن تقوم بترقيع في الميزانية.
دائماً القضية نفسها. وفي كل مرة يسمعها الكولونيل يشعر بحقد أصم. «إن ما أطلبه ليس صدقة. ليس قضية تقديم إحسان. لقد تمزقت جلودنا لننقذ الجمهورية».
فتح المحامي ذراعيه، وقال:
- نعم، الأمر كذلك أيها الكولونيل. لكن لا حدود للجحود البشري.
وهذه القصة يعرفها الكولونيل أيضاً، فقد بدأ يسمعها منذ اليوم التالي لاتفاقية «نيرلانديا» عندما وعدت الحكومة بتقديم بدل سفر وتعويض لمئتين من ضباط الثورة. وعسكرت حول شجرة الثيبا العملاقة في نيرلانديا فرقة ثورية مؤلفة في غالبيتها من شبان يافعين هاربين من مدارسهم، وانتظرت الفرقة طوال شهور ثلاثة. رجع أفرادها بعد ذلك إلى بيوتهم على نفقتهم الخاصة، وهناك تابعوا الانتظار. وبعد مرور ستين سنة تقريباً مازال الكولونيل ينتظر.

هاج الكولونيل بتأثير هذه الذكريات، فاتخذ وضعاً خطيراً: أسند يده اليمنى على عظم الفخذ، ودمدم:

- لقد صممت على اتخاذ قرار.

وقف المحامي حائراً:

- ماذا تعني؟

- استبدال المحامي.

دخلت بطة يتبعها عدد من فراخها إلى المكتب. فنهض المحامي ليطردها خارجاً، «كما تشاء أيها الكولونيل». قال وهو يهش تلك الحيوانات. «سيكون لك ما تريد. ولو كنتُ قادراً على تحقيق المعجزات لما عشت في هذا الخم». وضع حاجزاً خشبياً على باب البهو ثم عاد إلى مقعده.

قال الكولونيل:

- لقد اشتغل ابني طوال حياته، وبيتي مرهون.. لقد أصبح قانون التقاعد مصدر تقاعد للمحامين مدى الحياة.

فاعترض المحامي:

- ولكنه ليس كذلك بالنسبة إلي. فقد أنفقت النقود حتى آخرها في تقديم الالتماسات.

تألم الكولونيل لتفكيره في أنه وقع ضحية ظلم. فقال مصححاً:

- هذا ما أردت قوله - ثم جفف جبهته بكم قميصه، وتابع:

- لقد صدئت براغي الرأس بسبب هذا الحر.

بعد لحظة، قلب المحامي المكتب بحثاً عن التوكيل. وتقدمت الشمس نحو منتصف الغرفة الضيقة المشادة من أخشاب دون سحج. وبعد أن بحث في كل مكان دون فائدة، انحنى على يديه ورجليه، وهو يزفر، وتناول لفافة أوراق من تحت البيانو الأوتوماتيكي:

ـ ها هو.

ثم قدم للكولونيل ورقة عليها عدة أختام، وأضاف: «يجب أن أكتب إلى وكلائي لإتلاف النسخ التي لديهم». نفض الكولونيل الغبار ووضع الورقة في جيب قميصه.

ـ مزقها أنت بنفسك.

«لا»، أجاب الكولونيل. «إنها عشرون سنة من الذكريات». وانتظر أن يتابع المحامي بحثه. ولكنه لم يفعل ذلك. ومضى نحو أرجوحة النوم ليجفف العرق. ومن هناك نظر إلى الكولونيل من خلال الفراغ المتلألئ.

ـ إنني بحاجة إلى الوثائق أيضاً ـ قال الكولونيل.

ـ أية وثائق.

ـ الإثباتات.

فتح المحامي ذراعيه قائلاً:

ـ سيكون هذا مستحيلاً أيها الكولونيل.

ذعر الكولونيل. لأنه عندما كان ضابطاً مالياً للثورة في إقليم ماكوندو، قام برحلة شاقة استمرت ستة أيام وهو يحمل أرصدة وأموال الحرب الأهلية في صندوقين مربوطين على متن بغلة. ليصل إلى معسكر نيرلانديا، وهو يجر البغلة التي قتلها الجوع قبل نصف ساعة من توقيع الاتفاقية. وقد أعطاه الكولونيل أوريليانو بوينديا ـ رئيس إدارة التموين العامة للقوات الثورية على شاطئ الأطلنطي ـ إيصالاً بالأموال وأدخل الصندوقين في قائمة الجرد الخاصة بالاستلام.

قال الكولونيل:

ـ إنها وثائق ذات قيمة لا تقدر. ويوجد بينها إيصال مكتوب بخط يد الكولونيل أوريليانو بوينديا.

ـ أعرف ذلك ـ قال المحامي ـ. ولكن هذه الوثائق مرت على آلاف وآلاف الأيدي، وعلى آلاف وآلاف المكاتب حتى وصلت، من يدري، إلى أية دائرة في وزارة الحربية.

ـ إن وثائق من هذا النوع لا يمكن أن تمر على أي موظف دون أن يوليها الأهمية ـ قال الكولونيل.

فرد المحامي مدققاً:

ـ ولكن الموظفين تبدلوا عدة مرات خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة. تذكر بأن ستة رؤساء قد تبادلوا السلطة، وكل رئيس غَير أعضاء حكومته عشر مرات على الأقل، وكل وزير استبدل موظفيه مئة مرة على الأقل.

قال الكولونيل:

ـ ولكن لا يمكن لأي منهم أن يأخذ تلك الوثائق إلى بيته. ولا بد أن كل موظف كان يجد الأوراق في مكانها.

يئس المحامي، فقال له:

ـ وإضافة إلى ذلك، فإن هذه الأوراق إذا ما خرجت الآن من وزارة الحربية فستخضع للسير في الدور من جديد في جدول أقدمية المتقاعدين.

ـ هذا لا يهمني – قال الكولونيل.

ـ ولكنها ستكون مسألة قرون من الزمن.

ـ ليس مهماً، فمن انتظر الكثير ينتظر القليل.

حمل إلى الطاولة الصغيرة التي في الصالة دفتر رسائل أوراقه مسطرة، وريشة ومحبرة وورق نشاف، وترك الباب المؤدي إلى الغرفة مفتوحاً حتى يستطيع استشارة زوجته إذا ما لزم الأمر. بينما كانت هي تصلي صلاة المساء.

- في أي يوم نحن؟ - سألها.

- 27 تشرين الأول.

بدأ يكتب متخذاً وضعية مدروسة، فاليد التي تحمل الريشة موضوعة فوق ورق النشاف، والعمود الفقري عمودي لتسهيل التنفس، مثلما علموه في المدرسة. أصبح الحر لا يطاق في الصالة المغلقة. وانزلقت منه قطرة عرق على الرسالة. فالتقطها الكولونيل بورقة النشاف. حاول بعد ذلك أن يحكّ الكلمات التي تحلحل حبرها، ولكنه أحدث لطخة. لم ييأس كتب نداء ودوّن في الهامش: «الحقوق محفوظة». ثم قرأ الفقرة بكاملها.

- في أي يوم أدخلوا اسمي في قائمة قدماء المحاربين.

لم تقطع المرأة صلاتها لتفكر، بل قالت:

- في 21 آب 1949.

بعد لحظات بدأ المطر يهطل. ملأ الكولونيل صفحة كاملة بخط كبير مشوش وطفولي بعض الشيء، كما علموه في المدرسة العامة في «ماناوري». ملأ صفحة أخرى حتى منتصفها، ووضع توقيعه.

قرأ الرسالة على زوجته. ووافقت هي على كل جملة بحركة من رأسها. وعندما انتهى من القراءة أغلق المغلف وأطفأ المصباح.

ـ يمكنك أن تطلب من أحدهم أن ينسخها لك على آلة كاتبة.

ــ لا ، لقد تعبت وأنا أطلب المعروف من الآخرين ــ أجابها الكولونيل.

ولمدة نصف ساعة ، أحس بالمطر الذي يتساقط على سعف السطح. وغرقت القرية كلها بالوابل. وبعد نفير منع التجوال بدأت قطرات المطر تنزلق من مكان ما من البيت.

ـ كان يجب إصلاح هذا منذ زمن طويل ـ قالت المرأة ، ثم أردفت: ـ من الأفضل دائماً أن نفهم الأمور في حينها.

قال الكولونيل ، مشيراً إلى الماء المتسرب:

ـ لا شيء متأخر أبداً. يمكن أن تحلّ جميع هذه الأمور عندما ينتهي رهن البيت.

ـ بقيت سنتان.

أشعل المصباح ليحدد مكان الثقب الذي في سقف الصالة. ثم وضع تحته علبة الصفيح التي يشرب منها الديك وعاد إلى غرفة النوم تلحقه الفرقعة المعدنية التي يحدثها الماء عند اصطدامه بالعلبة الفارغة.

ـ ربما فكوا الرهن قبل كانون الثاني ساعين لكسب النقود — قال ، وأقنع نفسه بذلك ، ثم تابع:

ـ عندها تكون قد انقضت سنة على وفاة أغوسطين ونستطيع الذهاب إلى السينما.

ضحكت هي بصوت خافت وقالت: «حتى إني ما عدت أذكر صوراً مشوشة منها». حاول الكولونيل رؤيتها من خلال الكلّة:

ـ متى ذهبتِ إلى السينما آخر مرة؟

فقالت:

ـ سنة 1931. وكانوا يعرضون يومها فيلم «إرادة الميت».

ـ وهل كان فيه رعب.

ـ لم يعرف ذلك قطُّ. فقد انفلت وابل المطر عندما كان الشبح يحاول سرقة العقد من الفتاة.

جعلهما وقع المطر يغفوان. شعر الكولونيل بألم خفيف في أمعائه، ولكنه لم يفزع. كان على وشك أن يجتاز تشريناً آخر وهو حي. لف نفسه ببطانية صوفية وأحس للحظة بتنفس المرأة المتقطع ـ أحسه نائياً ـ وهي تبحر في حلم آخر. عندئذ تكلم، وهو واع تماماً.

استيقظت المرأة:

ـ مع من تتكلم؟

فرد الكولونيل:

ـ ليس مع أحد. كنت افكر في أننا كنا محقين عندما قلنا للكولونيل أوريليانو بوينديا، في اجتماع ماكوندو الا يستسلم، فهذا هو السبب في ضياع الجميع.

أمطرت طوال الأسبوع. وفي اليوم الثاني من تشرين الثاني ـ وضد مشيئة الكولونيل ـ أخذت المرأة زهوراً إلى قبر أغوسطين. وعند عودتها من المقبرة، كانت مصابة بنوبة ربو جديدة. كان أسبوعاً قاسياً.. أكثر قسوة من أسابيع تشرين الأول الأربعة التي اعتقد الكولونيل أنه لن يجتازها حياً.

حضر الطبيب لعيادة المريضة وخرج من الغرفة صارخاً: «بربو كهذا، ساكون مستعداً لدفن القرية بكاملها». ولكنه تحدث مع الكولونيل على انفراد، ووصف للمريضة علاجاً يعتمد نظاماً خاصاً.

عانى الكولونيل أيضاً من نكسة صحية. واحتضر لساعات طويلة في المرحاض، وتعرق ثلجاً، وهو يحسّ بنباتات أحشائه تتعفن

وتسقط متفتتة إلى قطع صغيرة. «إنه الشتاء»، كرر دون يأس. «كل شيء سيكون مختلفاً عندما تنتهي الأمطار». واقتنع بذلك فعلاً، متأكداً من أنه سيكون على قيد الحياة عندما ستصله الرسالة.

لقد صار من واجبه هذه المرة أن يعنى بترقيع الاقتصاد المنزلي. وكان عليه أن يضغط أسنانه مرات ومرات وهو يطلب الاستدانة من الدكاكين المجاورة. «حتى الأسبوع القادم فقط»، كان يقول لهم، دون أن يكون متأكداً هو نفسه من أن هذا صحيح. «ثمة نقود كان يجب أن تصلني منذ يوم الجمعة». وعندما خرجت المرأة من أزمتها تعرفت عليه مذهولة:

ـ لقد صرت عظماً أجرد.

فقال لها الكولونيل:

ـ إنني أعتني بنفسي لأكون صالحاً للبيع. وقد بعت نفسي لمصنع المزامير.

ولكنه كان في الواقع لا يكاد يتمكن من الوقوف إلا بالاستناد إلى أمل الرسالة. وبسبب إرهاقه، وبسبب عظامه التي سحقها الإجهاد، لم يستطع أن يعتني بأموره الضرورية وأمور الديك في الوقت ذاته. وفي النصف الثاني من تشرين الثاني رأى أن الديك سيموت بعد أن أمضى يومين بلا ذرة. عندئذ تذكر حفنة من اللوبياء كان قد علقها في شهر تموز فوق الموقد. فتح الكيس الذي يحتوي على اللوبياء. ووضع أمام الديك علبة ممتلئة بالحبوب الجافة.

ـ تعال هنا ـ قالت له.

أجابها الكولونيل:

ـ سآتيك حالاً ـ ثم قال لنفسه وهو يراقب ردة فعل الديك:

ـ عند الجوع لا يوجد خبز سيئ.

وجد زوجته تحاول الاعتدال في السرير. ومن الجسد التالف كانت تصدر روائح أعشاب طيبة. تلفظت بالكلمات، كلمة كلمة، بتدقيق محسوب:

ـ أخرج بهذا الديك حالاً من هنا.

كان الكولونيل قد أعدّ نفسه لهذه اللحظة. كان ينتظرها منذ الأمسية التي قُتل فيها ابنه وقرر هو الاحتفاظ بالديك. لذلك كان لديه وقت طويل ليفكر. فقال:

ـ لم يعد الأمر يستحق ذلك، فخلال ثلاثة شهور ستجرى مباراة مصارعة الديكة وعندها نستطيع أن نبيعه بأعلى الأسعار.

ـ القضية ليست قضية نقود ـ قالت المرأة ـ عندما يأتي الشباب قل لهم أن يأخذوه وليفعلوا به ما يرغبون.

قال لها الكولونيل مستخدماً حجة محضرة مسبقاً:

ـ إنني أحتفظ به من أجل أغوسطين... تصوري وجهه لو أنه أتى يومها ليخبرنا بفوز الديك.

صرخت المرأة وقد فكرت فعلاً بابنها:

«لقد كانت هذه الديوك اللعينة هي سبب ضياعه. فلو أنه بقي في البيت يوم الثالث من يناير ذاك، لما كانت فاجأته ساعة الشر». ثم وجهت سبابتها الضامرة نحو الباب وهتفت:

ـ يبدو لي وكأني كنت أرى ما سيحدث عندما خرج حاملاً الديك تحت إبطه. لقد حذرته بألا يذهب بحثاً عن موته في ميدان مصارعة الديوك، ولكنه كشر عن أسنانه وقال لي: «اصمتي، فهذا المساء سنتعفن من كثرة النقود».

سقطت منهوكة. دفعها الكولونيل برفق نحو الوسادة. واصطدمت عيناه بعينين مشابهتين تماماً لعينيه. «حاولي ألا

تتحركي»، قال لها وهو يحسُّ بالصفير كأنه في رئتيه. راحت المرأة في غيبوبة قصيرة. أطبقت عينيها. وعندما فتحتهما من جديد كان تنفسها يبدو أكثر انتظاماً.

قالت:

ـ كل هذا بسبب الحالة التي صرنا إليها. فمن الكفر اقتطاع الخبز عن أفواهنا وتقديمه للديك.

جفف لها الكولونيل جبهتها بملاءة السرير.

ـ لا أحد يموت في ثلاثة شهور.

ـ وماذا سنأكل خلال هذا الوقت ـ تساءلت المرأة.

فقال الكولونيل:

ـ لست أدري ولكن لو أننا سنموت من الجوع لكنا قد متنا منذ زمن.

كان الديك يقف الآن بكامل حيويته أمام العلبة الفارغة. وعندما رأى الكولونيل أطلق صوتاً حلقياً، شبه إنساني، وقذف رأسه إلى الوراء. فبادله الكولونيل ابتسامة تواطؤ. وقال:

ـ إن الحياة قاسية أيها الرفيق.

خرج إلى الشارع. وتسكع في القرية التي تنام القيلولة دون أن يفكر في شيء، وحتى دون أن يحاول إقناع نفسه بأن مشكلته ليس لها من حل. سار في شوارع مقفرة إلى أن وجد نفسه منهوكاً. وعندئذ رجع إلى البيت. أحست المرأة بدخوله ونادته إلى الغرفة.

ـ ماذا تريدين؟

فأجابت دون أن تنظر إليه:

ـ يمكننا أن نبيع الساعة.

كان الكولونيل قد فكر في ذلك. وقالت المرأة: «إني متأكدة

من أن ألفارو سيعطيك أربعين بيزو في الحال.. تصوَّر بأية سهولة اشترى منا قبلاً ماكينة الخياطة».

إنها تتكلم عن الخياط الذي كان أغوسطين يعمل عنده.

ـ يمكنني أن أحدثه في الصباح بهذا الخصوص ـ قال الكولونيل بضيق.

فقالت هي بصراحة:

ـ لا شيء للكلام في الصباح. خذ الساعة إليه الآن، وضعها أمامه على الطاولة وقل له: «يا ألفارو، لقد أحضرت لك هذه الساعة لتشتريها مني». وسيفهم هو في الحال.

شعر الكولونيل بالتعاسة، وقال معترضاً:

ـ إن حملها سيكون كمن يحمل لحداً. ولو رآني الناس في الشارع حاملاً هذه الواجهة فإنهم سيؤلفون عني أغنية من أغاني رافائيل اسكالونا.

ولكن زوجته أقنعته هذه المرة أيضاً. ونزعت بنفسها الساعة عن الجدار، لفتها بورق الصحف ووضعتها بين يديه قائلة:

«لن ترجع إلى هنا دون الأربعين بيزو».

اتجه الكولونيل إلى دكان الخياط حاملاً اللفافة تحت ذراعه. ووجد أصدقاء أغوسطين يجلسون أمام الباب.

قدم إليه أحدهم مقعداً. «شكراً»، قال الكولونيل وقد تبلبلت أفكاره، ثم أردف: «لقد كنت ماراً من هنا بالصدفة».

خرج ألفارو من الدكان حاملاً قطعة قماش قطني مبللة بالماء وعلقها في الممر على سلك ممتد بين دعامتين. كان شاباً ذا تقاطيع قاسية كثيرة النتوءات وعينين ذاهلتين. وقد دعاه هو أيضاً للجلوس. أحسَّ الكولونيل بالانتعاش. أسند الكرسي الذي بلا مسند إلى إطار

الباب وجلس ينتظر ريثما يبقى ألفارو وحيداً ليعرض عليه الصفقة. وفجأة أحسَّ بأنه محاط بوجوه مقطبة.

قال:

- الا ازعجكم.

اعترضوا جميعهم على كلامه. وانحنى أحدهم نحوه وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- لقد كتب أغوسطين.

راقب الكولونيل الشارع المقفر، وسأل:

- ماذا يقول؟

- ما يقوله دائماً.

أعطوه المنشور السري، فأخفاه الكولونيل في جيب البنطال. وظل صامتاً ينقر بأصابعه على الساعة المغطاة حتى انتبه إلى أن هناك من يكلمه. فتوقف عن النقر حائراً.

- ماذا تحمل معك أيها الكولونيل؟

تفادى الكولونيل عيني خيرمان الخضراوين النافذتين. وقال كاذباً:

- لا شيء. إني أحمل الساعة إلى الألماني ليصلحها لي.

«لا تكن أحمق أيها الكولونيل. انتظر، وسأفحصها لك»، قال خيرمان وهو يحاول انتزاع الساعة منه.

قاوم. لم يقل شيئاً ولكن رموشه صارت شهباء. فأصر الآخرون:

- أعطه الساعة أيها الكولونيل، فهو يفهم في الآلات.

- إنني لا أريد إزعاجه.

فرد عليه خيرمان، وهو يأخذ الساعة منه:

- أي إزعاج هذا. إن الألماني سينتزع منك عشرة بيزوات ويترك الساعة على حالها.

دخل خيرمان إلى الدكان حاملاً الساعة. كان ألفارو يعمل وراء ماكينة الخياطة. وفي آخر الدكان، تحت جيتار معلق بمسمار، كانت تجلس فتاة تقوم بتثبيت الأزرار. وفوق الجيتار لوحة كتب عليها: «ممنوع التكلم بالسياسة».

أحسّ الكولونيل بأن جسده أصبح أثقل. فأسند قدميه إلى عارضة الكرسي.

ـ خراء، أيها الكولونيل.

فوجئ الكولونيل بهذه العبارة، وقال: «بلا كلمات نابية».

ثبت ألفونسو النظارة على أنفه ليتفحص بصورة أفضل حذاء الكولونيل ذا الكعب العالي، ثم قال:

ـ إني أتكلم عن الحذاء. فأنت تلبس حذاء مريعاً.

ـ ولكنك تستطيع قول ذلك دون كلمات نابية ـ قال الكولونيل، وعرض عليه نعل الحذاء قائلاً:

لقد أصبح عمر هذا الحذاء الفظيع أربعين عاماً، وها هو يسمع الآن أول مرة كلمة نابية.

«قضي الأمر»، صرخ خيرمان من الداخل في الوقت نفسه الذي انطلقت به دقات الساعة. وفي البيت المجاور، ضربت امرأة على الجدار الفاصل، وصرخت:

دعوا هذا الجيتار جانباً، فلم تمض سنة بعد على موت أغوسطين.

انفجرت قهقهة عالية.

ـ إنها الساعة.

خرج خيرمان حاملاً الساعة الملفوفة، وقال:

ـ لم يكن بها شيء. إذا أردت فسأصطحبك إلى البيت لأعلقها مكانها.

رفض الكولونيل العرض.

- بكم أنا مدين لك؟

- لا تهتم بهذا أيها الكولونيل، فالديك سيدفع في كانون الثاني. رد عليه خيرمان وهو يحتل مكانه بين الجماعة. عندئذ وجد الكولونيل أن الفرصة مواتية، فقال له:

- إني أعرض عليك شيئاً.

- ما هو؟

- أهديك الديك. ثم تفحص الوجوه المحيطة به وقال:

- إني أهدي الديك إليكم جميعاً.

تطلع إليه خيرمان حائراً.

«لقد أصبحت عجوزاً على هذه الأمور»، تابع الكولونيل كلامه وقد هيمنت على صوته صرامة مُقْنِعة. «إنه مسؤولية كبيرة بالنسبة إلي. ومنذ أيام وأنا أشعر بأن الحيوان يموت شيئاً فشيئاً».

قال ألفونسو:

- لا تهتم لهذا أيها الكولونيل، كل ما في الأمر أن الديك يبدل ريشه في هذه الفترة، ولذا فإن منابت الريش تكون ملتهبة.

وقال خيرمان مؤكداً:

- في الشهر القادم سيكون في حالة جيدة.

- على كل حال أنا لا أريده - قال الكولونيل.

اخترقه خيرمان بنظرات حدقتيه، وقال بإصرار:

- تذكر أيها الكولونيل أن الأمر المهم هو أن تكون أنت من يضع ديك أغوسطين في حلبة الصراع يوم المباراة.

فكر الكولونيل في ذلك، وقال: «إنني مدرك للأمر. ولهذا السبب احتفظت بالديك حتى الآن». ضغط على أسنانه وأحسَّ بقوة تجعله يتقدم:

ـ ولكن السيئ في الأمر هو أنه مازال أمامنا ثلاثة شهور.

كان خيرمان أول من فهمه، فقال:

ـ إذا لم يكن هناك شيء آخر سوى هذا الأمر فليس من مشكلة.

ثم اقترح حلّه للمسألة.. ووافق الآخرون. وفي أوائل الليل، عندما دخل إلى البيت واللفافة تحت ذراعه، شعرت امرأته بالإحباط وسألته:

ـ لا شيء؟

ـ لا شيء ـ أجابها الكولونيل، ثم أردف:

ـ ولكن الأمر ليس مهماً الآن، فالشباب سيؤمنون الغذاء للديك.

ـ انتظر وسأعيرك مظلة يا صاحبي.

فتح دون ساباس خزانة مركبّة في جدار المكتب. وكشف عن محتوياتها المكركبة، منها جزم متلبدة لركوب الخيل، وحلقات ركائب، وأحزمة وسيور جلدية وإناء من الألمنيوم مليء بالمهاميز التي يستخدمها الخيالة. وفي القسم العلوي من الخزانة توجد نصف دزينة من المظلات المعلقة إلى جانب قبعة نسائية.

«شكراً يا صديقي». قالها الكولونيل وهو يستند بمرفقيه إلى النافذة، «أفضل الانتظار حتى يتوقف المطر». لم يغلق دون ساباس الخزانة. وجلس وراء المكتب ضمن مجال المروحة الكهربائية. ثم أخرج من الدُرج حقنة ملفوفة بالقطن، وأخذ الكولونيل يتأمل أشجار اللوز الرصاصية من خلال المطر. لقد كان مساء مقفراً.

قال:

ـ إن المطر مختلف من خلال هذه النافذة، فهو يبدو وكأنه يهطل في قرية أخرى.

ـ المطر هو المطر من أية زاوية نظرت إليه ـ رد دون ساباس، وهو يضع الحقنة ليغليها على اللوح الزجاجي الذي يغطي المكتب، ثم أردف:

ـ ما هذه القرية سوى براز.

هز الكولونيل كتفيه. وسار إلى وسط المكتب: صالة واسعة بلاطها أخضر وفيها قطع أثاث مغطاة بقماش ألوانه زاهية. وفي أقصاها أكياس ملح، وجرار عسل، وسروج خيل مكومة بفوضى. تابعه دون ساباس بنظرة فارغة تماماً.

ـ لو كنت مكانك لما فكرت هكذا ـ قال الكولونيل.

جلس مقاطعاً ساقيه، وثبت نظرته الهادئة على الرجل المنحني فوق المكتب. كان رجلاً قصيراً، ضخماً ولكن لحمه مترهل، وفي عينيه حزن ضفدع حديث الولادة.

قال دون ساباس:

ـ اعرض نفسك على طبيب أيها الصديق. فأنت تبدو جنائزياً بعض الشيء منذ يوم الدفن.

رفع الكولونيل راسه، وقال:

ـ إنني في حالة جيدة.

انتظر دون ساباس حتى تغلي الحقنة. وقال متأسفاً: «لو انني استطيع ان أقول هذا! كم كنت محظوظاً! فأنت قادر على أكل ركاب نحاسي». تأمل ظاهر كفه ذات الشعر الغزير والمليئة بالنمش البني. كان يضع خاتماً فيه فص أسود فوق خاتم الزواج.

ـ هذا صحيح ـ قال الكولونيل موافقاً.

نادى دون ساباس زوجته من خلال الباب الذي يصل بين المكتب وبقية البيت. ثم بدأ بشرح مؤلم للنظام الغذائي الذي يتبعه. تناول زجاجة دواء صغيرة من جيب قميصه ووضع فوق المكتب قرص دواء أبيض بحجم حبة لوبياء، وقال:

ـ إنه تعذيب ان أحمل هذا معي في كل مكان أذهب إليه. إنه كمن يحمل الموت في جيبه.

اقترب الكولونيل من المكتب. وتفحص قرص الدواء في كف يده إلى أن دعاه دون ساباس لتذوقه. ثم قال له شارحاً:

ـ إنه لتحلية القهوة. أي، سكر ولكن بدون سكر.

فقال الكولونيل، ولعابه مضمخ بطعم الحلاوة الحزين:

- فعلاً، إنه شيء يشبه قرع الأجراس ولكن دون أجراس.

اتكأ دون ساباس على المكتب بمرفقيه ووجهه بين يديه بعد أن زرقته زوجته بالحقنة. لم يعد الكولونيل يعرف ما يفعله بجسده. أطفأت المرأة المروحة الكهربائية، ووضعتها فوق الصندوق المصفح ثم اتجهت نحو الخزانة قائلة:

- إن للمظلات علاقة ما بالموت.

لم يعرها الكولونيل اهتماماً. كان قد خرج من بيته في الساعة الرابعة وهدفه انتظار البريد، لكن المطر اضطره إلى أن يلوذ بمكتب دون ساباس. وعندما أطلقت المراكب صفيرها كان المطر لا يزال يهطل.

«الجميع يقولون إن الموت امرأة»، قالت. ثم أغلقت الخزانة والتفتت كأنها تستشير عيني الكولونيل:

- إنني أعتقد أن الموت هو حيوان بأظلاف.

فقال لها الكولونيل موافقاً:

- ربما. فأحياناً تحدث أمور غريبة جداً.

فكر في موظف البريد وتخيله وهو يقفز إلى المركب مرتدياً رداء مطرياً من المشمع. لقد انقضى شهر على استبداله المحامي. وله الحق الآن بانتظار الرد. وتابعت زوجة دون ساباس الحديث عن الموت إلى أن انتبهت إلى ملامح الذهول التي تلف الكولونيل. فقالت:

- لا بد أن هناك ما يشغل تفكيرك أيها الصديق.

استعاد الكولونيل وعيه، وقال كاذباً:

- أجل أيتها الصديقة. إنني أفكر في أن الساعة قد تجاوزت الخامسة ولم أعط الحقنة للديك بعد.

وقفت مشدوهة، ثم هتفت:

- حقنة للديك وكأنه كائن بشري. إن هذا دنس.

لم يعد بإمكان دون ساباس تحملها. فرفع وجهه المحتقن، وأمر زوجته:

- أغلقي فمك للحظة.

وفعلاً رفعت يديها إلى فمها. فتابع هو:

- منذ نصف ساعة وأنت تزعجين صديقي بحماقاتك.

- لا، أبداً - قال الكولونيل معترضاً.

صفقت المرأة الباب. وجفف دون ساباس رقبته بمنديل مضمخ بالخزامى.

اقترب الكولونيل من النافذة. كان المطر يهطل دون توقف. ودجاجة لها قوائم صفراء طويلة تعبر الساحة المقفرة.

- صحيح أنكم تحقنون الديك؟

ـ أجل صحيح. فالتمرينات ستبدأ في الأسبوع القادم ـ قال الكولونيل.

فقال دون ساباس:

- إن هذا تهور. فأنت لست مهيأً لهذه الأعمال.

قال الكولونيل:

- أجل، ولكن هذا ليس سبباً لليّ عنق الديك.

«إنها مجازفة حمقاء» قال دون ساباس وهو يتجه إلى النافذة. أخذ الكولونيل نفساً ككير حداد. وجعلته عينا صديقه يشعر بالشفقة على نفسه.

قال دون ساباس:

- خذ بنصيحتي أيها الصديق. خير لك أن تبيع هذا الديك قبل أن يصبح الوقت متأخراً.

ـ ليس ثمة ما يؤسف عليه أبداً.

فقال دون ساباس بإصرار:

ـ لا تكن واهماً. إن هذا الديك صفقة بحدين. فمن ناحية سترفع عن كاهلك وجع الراس، ومن ناحية أخرى ستضع في جيبك مبلغ تسعمئة بيزو.

ـ تسعمئة بيزو ـ هتف الكولونيل.

ـ أجل، تسعمئة بيزو.

ـ أتعتقد بأنهم يدفعون هذا الثمن مقابل الديك؟

أجابه دون ساباس:

ـ ليس الأمر اعتقاداً. إني متأكد من هذا.

كان الرقم هو أعلى رقم دخل رأس الكولونيل منذ سلّم ميزانية الثورة. وعندما خرج من مكتب دون ساباس أحسَّ بأحشائه تتلوى، ولكنه كان على يقين هذه المرة من أن الألم لم يكن بسبب الطقس. وفي مكتب البريد اتجه مباشرة إلى الموظف، وقال:

ـ إني أنتظر رسالة مستعجلة. ستصل بالطائرة.

بحث الموظف في الكوة المصنفة. وعندما انتهى من القراءة وضع الرسائل حسب الحروف المطابقة لها ولكنه لم يقل شيئاً. نفض راحتيه ووجه إلى الكولونيل نظرة ذات مغزى.

ـ كان يجب أن تصلني اليوم بكل تأكيد ـ قال الكولونيل.

هزّ الموظف كتفيه، وقال:

ـ الشيء الوحيد الذي يصل بكل تأكيد هو الموت أيها الكولونيل.

استقبلته زوجته بطبق من عصيدة الذرة. أكله صامتاً، وكان يتوقف طويلاً ليفكر بين ملعقة وأخرى. خمنت امرأته التي كانت تجلس قبالته بأن ثمة أمراً قد تغيَّر في البيت، فسألته:

ـ ماذا جرى لك؟

قال الكولونيل كاذباً:

ـ إني أفكر في الموظف المسؤول عن التقاعد. فخلال خمسين عاماً سنكون تحت التراب مطمئنين. بينما هذا الرجل المسكين سيحتضر كل جمعة وهو ينتظر راتبه التقاعدي.

«إنها بادرة سيئة.. فهذا يعني أنك بدأت تخضع للقدر». قالت المرأة، وتابعت تناول العصيدة، ولكنها انتبهت بعد برهة إلى أن زوجها مازال شارد الفكر.

ـ إن ما عليك عمله الآن هو أن تلتهم هذه العصيدة.

فقال الكولونيل:

ـ إنها لذيذة جداً. من أين طلعت بها؟

أجابت المرأة:

ـ من الديك: فقد أحضر له الشبان كثيراً من الذرة، وقرر هو أن يقاسمنا إياها.. هكذا هي الحياة.

تنهد الكولونيل:

ـ نعم هكذا. إن الحياة هي أفضل شيء تم اختراعه.

نظر إلى الديك المربوط بدعامة الموقد وبدا له هذه المرة حيواناً مختلفاً. ونظرت المرأة إليه أيضاً، وقالت:

ـ هذا المساء اضطررت إلى إخراج الصبيان بالعصا. فقد أحضروا دجاجة هرمة ليجامعوها مع الديك.

قال الكولونيل:

ـ ليست المرة الأولى التي يحدث فيها هذا. فهكذا كانوا يفعلون في القرى مع الكولونيل أوريليانو بوينديا. كانوا يُحضرون له الصبايا ليضاجعهن.

أعجبت هي بالمقارنة الطريفة. وأصدر الديك صوتاً من حلقه وصل إلى الممر كصوت إنساني مكتوم. «أحس أحياناً وكأن هذا الحيوان سينطق متكلماً» قالت المرأة. وعاد الكولونيل لينظر إليه، وقال:

- إنه ديك حالكٍ وصائح.

ثم أجرى بذهنه عمليات حسابية بينما كان يتناول ملعقة من العصيدة، وقال:

- إنه يكفي لإطعامنا ثلاث سنوات.

- الأحلام لا تؤكل - قالت المرأة.

- لا تؤكل، ولكنها تغذي - رد الكولونيل، ثم تابع: - إنها شبيهة بعض الشيء بالحبوب العجيبة التي يتناولها صديقي دون ساباس.

نام نوماً سيئا هذه الليلة وهو يحاول أن يمحو أرقاماً من رأسه. في اليوم التالي، عند الغداء، قدمت المرأة طبقين من عصيدة الذرة، والتهمت طبقها وهي تحني رأسها، دون أن تتلفظ بكلمة واحدة. أحس الكولونيل وكأنه مصاب بعدوى تعكر المزاج.

- بماذا تفكرين؟

- لا شيء - قالت المرأة.

سيطر عليه انطباع بأن دور زوجته في الكذب قد جاء هذه المرة. حاول أن يجرجرها في الكلام. ولكن المرأة أصرت:

- لست أفكر في شيء غريب. إني أفكر في أن قرابة شهرين قد انقضيا على رحيل الميت ولم أذهب لأعزي حتى الآن.

وهكذا ذهبت لتقديم العزاء هذه الليلة. اصطحبها الكولونيل حتى بيت الميت ثم توجه إلى صالة السينما تجذبه الموسيقى المنبعثة من مكبرات الصوت. كان الأب أنخل يجلس على باب مكتبه مراقباً مدخل السينما ليعرف الذين يحضرون العرض بالرغم من تحذيراته

الاثني عشر. تموجات الضوء، والموسيقى الصاخبة وصرخات الأطفال فرضت مقاومة طبيعية في الحي. هدد أحد الأطفال الكولونيل ببندقية خشبية وقال له بصوت متسلط فوقي:

ـ ما هي أخبار الديك أيها الكولونيل؟

رفع الكولونيل يديه.

ـ هاهو الديك.

كان ثمة ملصق بأربعة ألوان يحتل واجهة الصالة بكاملها كتب عليه «عذراء منتصف الليل». وعليه رسم امرأة ترتدي ملابس الرقص وإحدى ساقيها عارية حتى الفخذ. تابع الكولونيل التسكع في المكان إلى أن انفجرت رعود وبروق بعيدة. وعندما عاد إلى حيث ذهبت زوجته، لم يجدها في بيت الميت. ولا في بيتها وقدر الكولونيل أنه لم يبق سوى وقت قصير على بدء منع التجوال، ولكن الساعة كانت متوقفة. انتظر، وهو يشعر بالعاصفة تقترب من القرية. وعندما تأهب ليخرج من جديد دخلت زوجته إلى البيت.

حمل الديك إلى غرفة النوم. وأبدلت هي ثيابها ثم مضت لتشرب ماء من الصالة في الوقت الذي كان فيه الكولونيل قد انتهى من ملء الساعة وجلس ينتظر إشارة منع التجوال ليضبط الساعة.

سألها الكولونيل:

ـ أين كنت؟

«هنا»، أجابت المرأة. ووضعت الكأس على الخابية دون أن تنظر إلى زوجها وعادت إلى غرفة النوم، وقالت: «لم يكن أحد يصدق بأنها ستمطر بهذه السرعة». لم يعلق الكولونيل بشيء. وعندما دقت إشارة منع التجوال ضبط الساعة على الحادية عشرة، ثم أغلق الزجاج وأعاد الكرسي إلى وضعه. وجد زوجته تصلي صلاة المساء.

ـ لم تجيبي على سؤالي ـ قال لها الكولونيل.

ـ أي سؤال.

ـ أين كنت؟

فقالت:

ـ كنت أتحدث مع الناس. فمنذ زمن طويل لم أخرج إلى الشارع.

علق الكولونيل أرجوحة نومه. وأغلق باب البيت ورش الغرفة بالمبيدات. بعد ذلك وضع المصباح على الأرض واستلقى في السرير. ثم قال بأسى:

ـ إني افهمك. فأسوأ ما في حالات الشدّة هو أنها تجبر المرء على الكذب.

نفثت هي زفرة طويلة، وقالت:

ـ لقد ذهبت إلى الأب أنخل. ذهبت لأطلب منه قرضاً مقابل خاتمي الزواج.

ـ وماذا قال لك؟

ـ قال: إن المتاجرة بالأغراض المقدسة، خطيئة.

وتابعت من وراء الكلة: «منذ يومين حاولت أن أبيع الساعة. ولكن أحداً لم يقبل شراءها، لأنهم يبيعون الآن بالتقسيط ساعات حديثة لها أرقام مضيئة، يمكن رؤية الوقت بها في الظلام». تحقق الكولونيل من أن أربعين سنة من الحياة المشتركة، ومن الجوع المشترك، والمقاساة المشتركة، لم تكن كافية ليتعرف على زوجته. وأحس بأن شيئاً قد شاخ في الحب أيضاً.

قالت:

ـ ولم يقبل أحد شراء اللوحة. فالجميع تقريباً لديهم اللوحة نفسها.. حتى إنني ذهبت إلى منطقة الأتراك.

شعر الكولونيل بالمرارة:

ـ وبهذا أصبح الجميع الآن يعرفون أننا نموت جوعاً.

فقالت المرأة:

ـ لقد تعبت. فأنتم معشر الرجال لا تنتبهون إلى المشاكل في البيت. لقد وضعت عدة مرات حجارة في القدر وغليتها كي لا يعرف الجيران أنه ليس لدينا ما نملأ به القدر.

شعر الكولونيل بالاستفزاز، فقال:

ـ إن هذا الذي فعلته هو المسكنة الحقيقية.

غادرت المرأة الكلّة واتجهت نحو السرير المعلق قائلة: «إني مستعدة لأقضي على التصنع والأوهام في هذا البيت». بدأ صوتها يكفهر غضباً: «لقد طفح كيلي من الصبر والوقار».

لم يحرك الكولونيل عضلة واحدة في جسده.

وتابعت هي:

ـ عشرون سنة وأنا أنتظر العصافير الملونة التي يعدونك بها بعد كل انتخابات، ومن كل هذا الانتظار بقي لنا ابن ميت.. لا شيء سوى ابن ميت.

قال الكولونيل الذي كان معتاداً على هذا النوع من المهاترات:

ـ لقد قمنا بواجبنا.

فردت المرأة:

ـ وهم قاموا بكسب ألف بيزو شهرياً في مجلس النواب طوال عشرين سنة. فهذا صديقنا دون ساباس وبيته ذو الطابقين الذي لا يتسع لأمواله. لقد أتى إلى القرية كبائع عقاقير يعلق أفعى حول عنقه.

ـ ولكنه يموت شيئاً فشيئاً بالسكّري ـ قال الكولونيل.

فردت المرأة:

ـ وأنت تموت جوعاً. كل هذا لتتأكد من أن الوقار لا يؤكل.

قطع البرق عليها حديثها، ثم انفجر الرعد في الخارج، ودخل إلى غرفة النوم ومرق إلى ما تحت السرير مثل سيل من الحجارة. قفزت المرأة بحثاً عن مسبحتها.

ابتسم الكولونيل وقال:

ـ إن هذا يصيبك لأنك لا تكبحين لسانك. لقد قلت لك دائماً إن الرب عضو في حزبنا.

ولكنه في الواقع كان يشعر بالمرارة. بعد لحظات أطفأ المصباح وغرق في التفكير وسط ظلام يشقه البرق. تذكر ماكوندو. لقد انتظر الكولونيل عشر سنوات حتى تتحقق مواثيق نيرلانديا. وفي غيبوبة قيظ الظهيرة رأى قطاراً أصفر يصل معفراً بالغبار ومحملاً بالرجال والنساء والحيوانات الذين سحق الحر أنفاسهم، وهم مكدسون في كل مكان، وحتى على سطح العربات. تلك الفترة كانت فترة حمى الموز. وخلال أربع وعشرين ساعة عمروا القرية. عندئذ قال الكولونيل: «إني ذاهب، فرائحة الموز تعفن أمعائي» وغادر ماكوندو في قطار العودة، يوم الأربعاء السابع والعشرين من تموز سنة ألف وتسعمائة وست، في الساعة الثانية وثماني عشرة دقيقة بعد الظهر.

لقد احتاج لنصف قرن بعدها ليكتشف أنه لم ينعم بدقيقة راحة بعد الاستسلام في نيرلانديا.

فتح عينيه، وقال:

ـ يجب علينا إذاً ألا نفكر في الأمر بعد الآن.

ـ ماذا؟

ـ أعني مسألة الديك ـ قال الكولونيل ـ. غداً بالذات سأبيعه إلى صديقي ساباس بتسعمئة بيزو.

نفذ إلى المكتب، من خلال النافذة، أنين الحيوانات المخصية مختلطاً بصرخات دون ساباس. «إذا لم يأت خلال عشر دقائق فسوف اذهب»، هكذا عاهد الكولونيل نفسه بعد أن أمضى ساعتين في الانتظار، ولكنه انتظر عشرين دقيقة أخرى. وكان يتهيأ للخروج عندما دخل دون ساباس إلى المكتب تتبعه مجموعة من العمال المساعدين. مرَّ دون ساباس عدة مرات أمام الكولونيل دون أن يلتفت إليه. ولم ينتبه لوجوده إلا عندما خرج العمال.

- هل تنتظرني أيها الصديق؟

فقال الكولونيل:

- أجل يا صديقي. ولكن إذا كنت مشغولاً فسأعود فيما بعد.

لم يسمعه دون ساباس لأنه أصبح في الناحية الأخرى من الباب ولكنه قال له وهو يخرج:

- سأعود حالاً.

كانت ظهيرة متقدة. والمكتب يتأجج بالحر المنعكس إليه من الشارع. أغمض الكولونيل، وقد خدره الحر، عينيه رغم إرادته. وفي الحال بدأ يحلم بزوجته.

دخلت زوجة دون ساباس على رؤوس أصابعها وقالت له:

ـ لا تستيقظ أيها الصديق. سأغلق أباجور النافذة فقط، لأن المكتب صار جحيماً.

لاحقها الكولونيل بنظرة غائبة عن الوعي تماماً. وقالت وهي في الظل بعد أن أغلقت الأباجور:

ـ هل تحلم كثيراً في نومك؟

شعر الكولونيل بالخجل لأنه نام، وأجابها:

ـ أحيانا. وأرى نفسي في جميع أحلامي تقريباً وانا اتخبط في شبكة عنكبوت.

فقالت المرأة:

ـ أنا أعاني من الكوابيس كل ليلة. ولكني بدأت أعرف الآن من هم هؤلاء الناس المجهولين الذين يظهرون لنا في الأحلام.

أدارت المروحة الكهربائية، وقالت: في الأسبوع الماضي ظهرت لي في الحلم امرأة وقفت على رأس سريري. وقد وجدتُ الشجاعة لأسألها من تكون، فأجابتني قائلة: «أنا المرأة التي ماتت في هذه الغرفة منذ اثنتي عشرة سنة».

فقال الكولونيل:

ـ ولكن هذا البيت لم تكد تمضي سنتان على بنائه بعد.

ـ نعم. وهذا يعني أن الأموات يخطئون أيضاً.

جعل أزيز المروحة الكهربائية البرودة أكثر رسوخاً. وشعر الكولونيل بفقدان الصبر والاضطراب بسبب النعاس الذي غلبه وبسبب هذه المرأة البدينة التي انتقلت فوراً من الحديث عن الأحلام إلى تجسُّد الموتى وعودتهم ثانية إلى الحياة. وكان ينتظر فرصة تتوقف فيها عن الحديث لينصرف عندما دخل دون ساباس إلى المكتب مع رئيس عماله. فقالت له المرأة:

ـ لقد سخنت لك الحساء أربع مرات حتى الآن.

فقال دون ساباس:

ـ سخنيه عشر مرات إذا شئت. ولكن لا تثيري أعصابي وتجعليني أفقد صبري الآن.

فتح صندوق السيولة النقدية وسلّم رئيس عماله رزمة أوراق مالية ومعها قائمة تعليمات. فتح رئيس العمال أباجورات النوافذ ليعدّ النقود. لمح دون ساباس الكولونيل في أقصى المكتب، ولكنه لم يبد أي تأثر، بل تابع حديثه مع رئيس عماله. نهض الكولونيل في اللحظة التي كان الرجلان يستعدان فيها لمغادرة المكتب من جديد. فتوقف دون ساباس قبل أن يفتح الباب، وقال:

- ماذا أستطيع أن أقدم لك أيها الصديق؟

انتبه الكولونيل إلى رئيس العمال ينظر إليه، فقال:

- لا شيء يا صديقي. كنت أود التحدث إليك.

فقال دون ساباس:

- مهما كان الأمر، يمكنك قوله الآن حالاً. لأني لا أستطيع إضاعة دقيقة واحدة.

وظل واقفاً ويده ممسكة بقبضة الباب الكروية. شعر الكولونيل بانقضاء أطول خمس ثوان في حياته، فضغط على أسنانه ودمدم:

- إن الأمر متعلق بمسألة الديك.

كان دون ساباس قد انتهى حينئذ من فتح الباب. «مسألة الديك»، كرر مبتسماً، وقاد رئيس عماله نحو الممر. «إن العالم ينهار بينما صديقي مشغول بهذا الديك». ثم قال موجهاً كلامه إلى الكولونيل:

- حسناً جداً أيها الصديق. سأعود حالاً.

وقف الكولونيل وسط المكتب بلا حراك إلى أن تلاشى وقع خطوات الرجلين في آخر الممر. وخرج بعد ذلك ليسير في شوارع القرية المشلولة في قيلولة الأحد. لم يجد أحداً في دكان الخياط. وعيادة

الطبيب كانت مغلقة. ولم يكن هناك من يحرس البضائع المعروضة في متاجر السوريين. كان النهر كصفحة من الرصاص. وثمة رجل نائم على أربعة براميل بترول في الميناء، يقي وجهه من الشمس بقبعة. اتجه الكولونيل إلى بيته موقناً أنه المكان الوحيد الحيوي في القرية. كانت زوجته تنتظره وقد أعدت وجبة غداء كاملة.

قالت مفسرة:

- لقد استدنت ووعدت أن أدفع غداً صباحاً.

خلال تناول الغداء روى لها الكولونيل أحداث الساعات الثلاث الأخيرة، واستمعت إليه جزعة، ثم قالت عندما انتهى:

- كل ما في الأمر أنك تفتقر إلى قوة الشخصية. فأنت تذهب كأنك ذاهب لطلب صدقة، بينما عليك أن تدخل مرفوع الرأس وتنادي صاحبنا جانباً وتقول له: «أيها الصديق، لقد قررت أن أبيعك الديك».

فقال الكولونيل:

- هكذا هي الحياة، إنها نفحة.

كانت تسيطر عليها حالة من الحماس. فقد رتبت البيت صباح هذا اليوم وارتدت ملابسها بطريقة غير مألوفة، إذ لبست حذاء زوجها القديم، ومريلة من المشمع، وربطت على رأسها خرقة قماش معقودة بعقدتين عند الأذنين. قالت له: «ليس لديك أدنى حسٌ تجاري. فمن يذهب ليبيع شيئاً يجب أن يتخذ مثل هيئة من يذهب ليشتري».

لاحظ الكولونيل بعض الطرافة في شكلها. فقاطعها ضاحكاً:

- ابقي هكذا كما أنت الآن، لأنك تشبهين الرجل القصير بائع الجلبان.

نزعت خرقة القماش عن رأسها، وقالت:

- إني أكلمك بجدية. سآخذ الديك حالاً إلى صديقنا وأراهنك على ما تشاء بأني سأعود خلال نصف ساعة ومعي تسعمئة بيزو.

فقال لها الكولونيل:

- الأرقام أدارت رأسك. وقد بدأت تلعبين بثمن الديك.

لقد كلفه كثيراً إقناعها بالعدول عن رأيها. إذ إنها بدأت منذ الصباح بتنظيم برنامج، في ذهنها، للسنوات الثلاث القادمة التي سيمضيانها دون احتضار أيام الجمعة في انتظار البريد. وأعدت البيت لاستقبال التسعمئة بيزو، فنظمت لائحة بالأشياء الأساسية التي لا يملكانها، دون أن تنسى تسجيل حذاء جديد للكولونيل. وأفسحت مكاناً في حجرة النوم للمرآة. ولكن هذه الضربة المفاجئة لجميع مشاريعها جعلتها تضطرم بإحساس من الخجل والحقد.

نامت قيلولة قصيرة. وعندما استيقظت كان الكولونيل جالساً في الفناء.

- ماذا سنفعل الآن؟ – سألته هي.

فقال الكولونيل:

- إني أفكر.

– إذن، فقد حُلّت المشكلة. سنحصل على تلك النقود خلال خمسين سنة.

ولكن الكولونيل كان قد قرر، في الواقع، أن يبيع الديك مساء هذا اليوم بالذات. فكر بدون ساباس، وتخيله وحيداً في مكتبه، يتهيأ أمام المروحة الكهربائية لأخذ حقنة الأنسولين اليومية. كان قد أعدّ ما سيقوله.

- خذ الديك معك. فرؤية وجه القديس تصنع المعجزة ـ قالت له زوجته وهو خارج.

رفض الكولونيل ذلك. ولكنها تبعته حتى الباب الخارجي بقلق يائس، وقالت:

ـ ليس مهماً أن يكون هناك فيلق من الناس، خذه من ذراعه وتنح به جانباً ولا تدعه يتحرك قبل أن يعطيك التسعمئة بيزو..

ـ سيظنون أننا نعد لانقلاب.

لم تهتم هي بهذا. وقالت بإصرار:

ـ تذكر أنك أنت صاحب الديك. وتذكر أنك أنت الذي ستقدم له معروفاً ببيعه الديك.

ـ حسن.

كان دون ساباس في غرفة نومه مع الطبيب. فقالت زوجته للكولونيل: «انتهز الفرصة الآن أيها الصديق. إن الطبيب يفحصه الآن لأنه سيذهب إلى المزرعة ولن يعود حتى يوم الخميس».

درس الكولونيل الأمر وهو بين قوتين متعارضتين تتجاذبانه فرغم قراره الحاسم ببيع الديك، رغب لو أنه وصل بعد ساعة حتى لا يجد دون ساباس.

ـ أستطيع أن أنتظر ـ قال لها.

ولكن زوجة دون ساباس أصرت عليه. وقادته إلى غرفة النوم حيث كان زوجها جالساً بسرواله الداخلي على سرير كالعرش، ويصوب إلى الطبيب عينيه اللتين بلا بريق. انتظر الكولونيل حتى انتهى الطبيب من تسخين أنبوب زجاجي فيه عيِّنة من بول المريض، ثم شمَّ البخار المتصاعد منه، وأشار إلى دون ساباس إشارة النجاح.

ـ يجب رميه بالرصاص ـ قال الطبيب متوجهاً إلى الكولونيل ـ. فالسكري يتباطأ كثيراً في الإجهاز على الأغنياء.

«لقد فعلت أنت كل ما تستطيع لذلك بوساطة حقن الأنسولين

اللعينة التي أعطيتني إياها». قال دون ساباس وهو يربت على إليتيه المترهلتين، وتابع: «ولكنني مسمار قاس وعصي على الأكل». ثم اتجه بعد ذلك نحو الكولونيل قائلاً:

- اقترب أيها الصديق.. عندما خرجت في الظهيرة بحثاً عنك لم أجد حتى قبعتك.

- لا أستخدم قبعة كي لا أضطر إلى رفعها أمام أحد.

بدأ دون ساباس بارتداء ملابسه. ودسَّ الطبيب في جيب سترته أنبوباً زجاجياً فيه عينة من الدم. ثم رتَّب محتويات حقيبته. وظن الكولونيل أن الطبيب يستعد للذهاب، فقال له:

- لو كنت مكانك يا دكتور لقدمت لصديقنا قائمة حساب بمئة ألف بيزو. فهكذا ستصبح همومه أقل.

قال الطبيب:

- لقد عرضت عليه هذه الصفقة، ولكني طلبت مليوناً. فالفقر هو أفضل علاج للسكري.

«شكراً لهذه الوصفة»، قال دون ساباس وهو يحاول أن يحشر كرشه الضخم في البنطال الخاص بركوب الخيل، ثم أردف: «ولكني لن أقبل بها لأحول دون أن تصبح أنت غنياً وتصاب بالمرض».

رأى الطبيب أسنانه التي انعكست على غطاء حقيبته المعدني. ثم نظر إلى ساعته دون أن يبدو عليه الاستعجال. وعندما بدأ دون ساباس بلبس جزمته اتجه نحو الكولونيل الذي أتى في وقت غير مناسب.

- حسناً أيها الصديق، ما الذي حصل للديك.

وانتبه الكولونيل إلى أن الطبيب أيضاً سيسمع جوابه. فضغط على أسنانه ودمدم:

- لا شيء أيها الصديق. إني آت لأبيعك إياه.

انتهى دون ساباس من لبس الجزمة، وقال دون تأثر:

- حسن أيها الصديق.. إنها أعقل فكرة خطرت لك.

وحيال ملامح عدم الفهم التي ظهرت على وجه الطبيب، قدم الكولونيل تبريره قائلاً:

- لقد أصبحت كبيراً على هذه الأمور. ولو أن عمري أقل بعشرين سنة مما أنا عليه لكان الأمر مختلفاً.

- أنت دائماً أصغر من عمرك بعشرين سنة - ردّ الطبيب.

استرد الكولونيل أنفاسه. وانتظر دون ساباس أن يقول له شيئاً، ولكنه لم يفعل، وإنما ارتدى سترة جلدية لها سحاب وتأهب للخروج من غرفة النوم. فقال الكولونيل:

- يمكننا أن نتحدث بهذا الأمر في الأسبوع القادم إذا شئت.

- هذا ما كنت سأقوله لك - قال دون ساباس، ثم أضاف:

- لديَّ زبون قد يدفع لك أربعمئة بيزو ثمناً للديك. ولكن يجب الانتظار حتى يوم الخميس.

- كم؟ — تساءل الطبيب.

- أربعمئة بيزو.

فقال الطبيب:

- لقد سمعت بأنه يساوي أكثر من هذا المبلغ بكثير.

استغل الكولونيل استغراب الطبيب ليقول لصديقه:

- كنت قد حدثتني عن تسعمئة بيزو.. إنه أفضل ديك في الناحية كلها.

رد دون ساباس على الطبيب شارحاً:

«في وقت سابق كان يمكن لأي كان أن يدفع ألف بيزو ثمناً له. أما الآن فليس هناك من يتجرأ على إطلاق ديك جيد. فثمنه خطر

دائماً في أن يخرج صاحبه من حلبة المصارعة صريعاً بالرصاص». ثم التفت نحو الكولونيل بحزن مفتعل بإتقان، وقال:

ـ هذا ما كنت أنوي قوله لك أيها الصديق.

أشار الكولونيل برأسه موافقاً، وقال:

ـ حسن.

تبعهما في الممر وهما خارجان. ولكن الطبيب ظلّ في الصالة بدعوة من زوجة دون ساباس التي طلبت منه علاجاً «لتلك الأشياء التي تصيب المرأة ولا أحد يعرف ما هي». انتظر الكولونيل في المكتب. بينما فتح دون ساباس صندوق الخزنة، ودسّ نقوداً في جميع جيوبه ثم مدّ إلى الكولونيل أربع أوراق نقدية، وقال:

ـ هذه ستون بيزو يا صاحبي. وعندما يباع الديك نصفي الحساب.

سار الكولونيل برفقة الطبيب عبر متاجر شارع الميناء وقد أنعشتهما برودة المساء، بينما كان مركب شحن محمل بقصب السكر ينزلق مع تيار الماء البارد. لاحظ الكولونيل احتقاناً في وجه الطبيب:

ـ وأنت كيف حالك أيها الدكتور؟

هز الطبيب كتفيه وقال:

ـ لا بأس. لكني أعتقد بأني محتاج لاستشارة طبيب.

ـ إنه الشتاء ـ قال الكولونيل ـ. فهو يجعل أمعائي تتعفن.

تأمله الطبيب بنظرة خالية تماماً من اي اهتمام مهني. وحيا السوريين الجالسين أمام أبواب متاجرهم واحداً واحدا. وأمام العيادة عرض الكولونيل موقفه من صفقة بيع الديك، إذ قال مفسراً:

ـ لم أعد قادراً على عمل شيء آخر. لقد أصبح هذا الحيوان يتغذى على اللحم البشري.

فقال الطبيب:

ـ الحيوان الوحيد الذي يتغذى على اللحم البشري هو دون ساباس... إني متأكد من انه سيبيع الديك بتسعمئة بيزو.

ـ أتظن ذلك؟

ـ إني متأكد. فهذه صفقة تجارية مكشوفة مثلها مثل صفقة التحالف الوطني مع العمدة.

رفض الكولونيل تصديق ذلك. وقال: «لقد قام صديقي بذلك التحالف مع العمدة لكي ينقذ جلده. وهكذا استطاع البقاء في القرية».

فرد الطبيب:

«وهكذا أيضاً استطاع شراء أملاك أعضاء حزبه الذين طردهم العمدة من القرية بنصف ثمنها». ثم طرق باب العيادة لأنه لم يجد المفتاح في جيوبه. والتفت بعد ذلك ليلتقي بوجه الكولونيل الذي لم يصدق كلامه، وقال:

ـ لا تكن ساذجاً. فصديقك دون ساباس يهتم بالمال أكثر بكثير مما يهتم بجلده.

خرجت زوجة الكولونيل في هذه الليلة للتسوق. وقد رافقها زوجها حتى متاجر السوريين وهو يجتر في تأملاته ما قاله الطبيب.

قالت له زوجته:

ـ ابحث حالاً عن الشباب واخبرهم بأنك قد بعت الديك.. يجب الا تبقيهم على الأمل.

أجابها الكولونيل:

ـ لا يمكن اعتبار الديك مباعاً إلى أن يعود صديقي ساباس.

وعندما ترك زوجته، ذهب إلى صالة البليـاردو، وهناك وجد

ألفارو يلعب الروليت. كان المحل يعج بالناس ليلة الأحد. والحر يبدو أكثر كثافة بسبب جهاز الراديو الذي يبث بأعلى صوته. سرح الكولونيل في الأرقام ذات الألوان الزاهية المكتوبة على بساط مائدة الروليت الذي من شمع أسود، والمضاءة بمصباح بترولي موضوع على صندوق وسط الطاولة. كان ألفارو، وكأنه يصر على الخسارة، يكرر المراهنة على الرقم ثلاثة وعشرين. وبينما كان الكولونيل يتابع اللعب من فوق كتف ألفارو لاحظ أن الرقم أحد عشر قد كسب أربع مرات من أصل تسع. فهمس في أذن ألفارو:

ـ راهن على الأحد عشر، فهو الذي يكسب أكثر من غيره.

تفحص ألفارو البساط. ولم يراهن في الدورة التالية. وإنما أخرج نقوداً من جيب بنطاله، وبين النقود كانت توجد ورقة مطوية، قدمها إلى الكولونيل من تحت الطاولة، وقال:

ـ إنها من أغوسطين.

أخفى الكولونيل الورقة السرية في جيبه. وراهن ألفارو على الرقم أحد عشر بنقود كثيرة. فقال له الكولونيل:

ـ ابدأ بالقليل.

«ربما تكون إصابة جيدة»، رد عليه ألفارو. سحبت مجموعة من اللاعبين على الرقم أحد عشر عندما بدأت العجلة الكبيرة الملونة بالدوران. شعر الكولونيل بالتململ، فهو يجرب للمرة الأولى فتنة، وذعر، وقلق الحظ.

كسب الرقم خمسة. فقال الكولونيل خجلاً:

ـ إني آسف أشد الأسف.

ثم تابع بعينيه الذراع الخشبية وهي تسحب نقود ألفارو، وقد سيطر عليه إحساس لا يقاوم بالشعور بالذنب، وقال:

ـ إن هذا يصيبني لأني أحشر نفسي في ما لا يخصني.

ابتسم ألفارو دون أن ينظر إليه، وقال:

ـ لا تهتم أيها الكولونيل. جرِّب حظك في الحب.

وفجأة قاطع الجميع نفير أبواق. فتفرق اللاعبون وقد رفعوا أيديهم إلى أعلى. شعر الكولونيل بالصرير الجاف والبارد لأقسام بندقية تتهيأ وراءه، فأدرك أنه قد وقع وقعة مشؤومة في مصيدة للشرطة وهو يحمل المنشور السري في جيبه. دار نصف دورة دون أن يرفع يديه. وعندها رأى بالقرب منه، ولأول مرة في حياته، الرجل الذي أطلق النار على ابنه. كان يقف مقابله وفوهة بندقيته مصوبة نحو بطنه. كان صغيراً، قصير الشعر، ويعبق برائحة طفولية. ضغط الكولونيل على أسنانه وأبعد عنه برفق وبأطراف أصابعه ماسورة البندقية، وقال:

ـ بعد إذنك.

فواجهته عينان صغيرتان ودائريتان كعيني خفاش. وأحسَّ لبرهة بأن هاتين العينين قد ابتلعتاه ومضغتاه وهضمتاه، ثم لفظتاه مباشرة:

ـ تفضل بالذهاب أيها الكولونيل.

لم يكن بحاجة إلى فتح النافذة ليتأكد من أن كانون الأول قد حل. فقد اكتشفت ذلك عظامه ذاتها عندما كان يقطع الفواكه من أجل فطور الديك في المطبخ. بعد ذلك فتح الباب ورأى الفناء، فتأكد إحساسه. كان الفناء بديعاً، تغطيه الأعشاب والأشجار، أما المرحاض فكان يطفو في الضوء، على ارتفاع ميليمتر عن الأرض.

ظلت زوجته في الفراش حتى الساعة التاسعة. وعندما ظهرت في المطبخ كان زوجها قد انتهى من ترتيب البيت، ووقف يتحدث مع الصبيان عن الديك. فاضطرت هي إلى الالتفاف حولهم كي تصل إلى الموقد. وصاحت بهم:

- ابتعدوا عن طريقي - ثم وجهت نظرة عابسة إلى الديك وقالت: - لا أصدق اللحظة التي سيخرج بها طير الشؤم هذا من البيت.

تفحص الكولونيل، من خلال الديك، مزاج زوجته. فلم يجد في الحيوان شيئاً يدعو إلى التجهم. بل رآه مستعداً لبدء التدريب. كان الحيوان بعنقه وقوائمه الجرداء وعرفه المخطط قد اتخذ هيئة سافرة، ومزاجاً أعزل.

قال لها الكولونيل بعد ذهاب الصبيان:

- أطلي من النافذة وانسي الديك. فالمرء يشعر في صباح كهذا برغبة لأخذ صورة.

أطلت هي من النافذة، ولكن وجهها لم يعكس أي تعبير.

«أرغب في زرع الأزهار» قالت وهي تعود إلى جانب الموقد. علق الكولونيل المرآة على الدعامة ليحلق ذقنه، وقال:

ـ إذا كنت ترغبين في زراعة الأزهار، فازرعيها.

حاول أن يتذكر حركاته من خلال حركات صورته المنطبعة في المرآة.

وقالت المرأة:

ـ ولكن الخنازير ستأكلها.

فقال الكولونيل:

ـ هذا أفضل. إذ لا بد أن الخنازير الملوفة بالأزهار ستكون لذيذة جداً.

تطلع من خلال المرآة ولاحظ أنها مازالت تحمل التعابير نفسها. وعلى بريق النار كان وجهها يبدو كأنه مصاغ من مادة الموقد. ودون أن ينتبه إلى نفسه، وبينما عيناه معلقتان بزوجته، تابع الكولونيل حلاقة ذقنه باللمس كما فعل طوال سنوات كثيرة. فكرت المرأة خلال صمتها الطويل. ثم قالت:

ـ ولكني لا أريد أن أزرع أزهاراً.

فقال الكولونيل:

ـ حسن إذن لا تزرعيها.

شعر بأنه قد تحسّن. فقد أذبل كانون الأول مملكة النباتات التي في أحشائه. لقد لاقى صعوبة وهو يحاول لبس الحذاء الجديد هذا الصباح، وبعد أن حاول ذلك عدة مرات تأكد بأن جهده يذهب سدى، فعاد يلبس الجزمة ذات الكعب العالي. ولاحظت زوجته التغيير، فقالت:

ـ إذا أنت لم تلبس الحذاء الجديد فإنه لن يتروض على قدميك أبداً.

فقال الكولونيل معترضاً:

ـ إنه كأحذية المشلولين. وأعتقد أنه على بائعي الأحذية أن يبيعوها بعد شهر من استخدامها.

خرج إلى الشارع يدفعه هاجس أن الرسالة ستصله هذا المساء. وبما أن موعد المراكب لم يكن قد حان، فقد ذهب لينتظر دون ساباس في مكتبه. ولكنهم أكدوا له أنه لن يأتي حتى يوم الاثنين. لم ييأس على الرغم من أنه لم يكن يتوقع هذا التغيير في موعد عودته. «يجب أن يأتي عاجلاً أو آجلاً» قال لنفسه، ثم اتجه إلى الميناء.

دمدم الكولونيل وهو يجلس في متجر موسى السوري:

ـ السنة بكاملها يجب أن تكون كانون الأول. فالمرء يشعر في هذا الشهر كأنه مصاغ من بلّور.

ولابد أن موسى السوري قد قام بمجهود ذهني كبير ليترجم الفكرة إلى عربيته التي نسيها تقريباً. كان رجلاً شرقياً هادئاً، مغطى حتى جمجمته ببشرة ناعمة وكأنه ناج من الماء فعلاً. قال:

ـ لقد كانت الأمور هكذا فيما مضى. ولو أن الأمر لا يزال كذلك الآن فإن عمري سيكون ثمانمائة وسبعة وتسعين عاماً. وأنت؟

«سبعة وخمسون» قال الكولونيل، وهو يلاحق موظف البريد بنظره. وعندها فقط اكتشف وجود السيرك. إذ رأى الخيمة المرقطة على سطح مركب البريد بين أكوام من الأغراض الملونة. وضاع موظف البريد من مجال رؤيته للحظة وهو يبحث بعينيه عن الوحوش بين الصناديق المتراكمة في مركب آخر. ولكنه لم يعثر عليها.

ـ هناك سيرك ـ قال ـ. إنه أول سيرك يأتي منذ عشر سنوات.

تحقق موسى السوري من الخبر. ثم تحدث إلى زوجته بخليط من العربية والإسبانية. وأجابته هي من الغرفة المجاورة للمتجر.

وقال بعد ذلك شيئاً لنفسه، ثم ترجم للكولونيل ما يدور بذهنه:

ـ لابد من إخفاء القط أيها الكولونيل. فقد يسرقه الصبيان ويبيعونه للسيرك.

فقال الكولونيل وهو يتهيأ ليلحق بالموظف:

ـ ولكنه ليس سيرك حيوانات مفترسة.

فرد السوري:

ـ ليس مهماً. فالبهلوانات يأكلون القطط كيلا تتهشم عظامهم.

لحق بالموظف بين متاجر الميناء حتى الساحة. وهناك فاجأته الضجة القادمة من ملعب مصارعة الديوك. وقال له أحدهم، وهو يمر، شيئاً ما عن الديك. وعندئذ فقط تذكر أن اليوم هو اليوم المحدد لبدء التدريب.

مر أمام مكتب البريد دون اكتراث. وبعد هنيهة كان ينتصب وسط ملعب المصارعة المضطرب. رأى ديكه في حلبة الصراع وحيداً، أعزل، مخالب أطرافه مربوطة بخرق من القماش، ويبدو عليه شيء من الخوف الواضح وسط صخب الساحة. وكان الخصم الذي يواجهه ديكاً حزيناً رمادي اللون.

لم يظهر على الكولونيل أي تأثر. فقد كان السجال بين الديكين بهجمات متكافئة. مرت لحظة سريعة متواصلة اشتبكت فيها القوائم والريش والأعناق وسط الهتاف الصاخب. ثم طار الديك الخصم مصطدماً بالحاجز الخشبي، وقام بالدوران حول نفسه وعاد للهجوم. أما ديكه فلم يهاجم، وإنما كان يدفع كل هجوم ويعود ليسقط في المكان نفسه بالضبط. ولكن قوائمه لم تعد ترتجف الآن.

قفز خيرمان عن الحاجز الخشبي، ورفع الديك بكلتا يديه وعرضه للجمهور الذي على المدرجات. فحدث انفجار تصفيق وصراخ جنوني. ولاحظ الكولونيل عدم التناسب ما بين حماسة الهتاف وزخم المشهد.

وبدا له كل ذلك مجرد مهزلة تشارك فيها الديكة بمشيئتها ووعيها.

تفحص الرواق الدائري الذي ينبض، بفضول يخالطه بعض الاحتقار. ثم نزلت مجموعة من الحشد الهائج عن المدرجات نحو الحلبة. ولاحظ الكولونيل فوضى الوجوه الحارة، والجشعة، والحيوية بصورة رهيبة. كانوا أناساً جديدين، جميع أهل القرية الجدد. وعادت لتحيا في مخيلته فجأة ـ كما في نبوءة ـ لحظة ضائعة في أفق ذكرياته. قفز عندئذ عن الحاجز الخشبي، وشق طريقه بين الحشد المتركز في ميدان المصارعة واصطدم بعيني خيرمان الهادئتين، اللتين تطلعتا إليه دون أن ترمشا.

ـ مساء الخير أيها الكولونيل.

أخذ الكولونيل الديك منه. ودمدم: «مساء الخير»، ولم يقل شيئاً آخر، فقد هزه نبض الحيوان العميق والدافئ. وفكر في أنه لم يلمس في حياته قط شيئاً بهذه الحيوية بين يديه.

قال خيرمان متلعثماً:

ـ لم تكن موجوداً في البيت.

وقاطعته موجة جديدة من الهتاف. فشعر الكولونيل بالفزع. وعاد يشق طريقه، دون أن ينظر إلى أحد، ذاهلاً بتأثير التصفيق والصراخ، وخرج إلى الشارع والديك تحت ذراعه.

القرية كلها ـ الناس الذين تحت ـ خرجوا ليروه، وتبعه أطفال المدرسة. كان ثمة زنجي عملاق يقف فوق منضدة وقد أحاط عنقه بأفعى، يبيع أدوية بلا ترخيص في أحد أركان الساحة. وكانت تلتف حوله ثلة كبيرة ممن كانوا عائدين من الميناء. يستمعون إلى مناداته الرتيبة، ولكن عند مرور الكولونيل حاملاً الديك اتجه إليه. لم يشعر أبداً بأن طريق البيت كان أطول مما هو عليه اليوم.

كانت القرية ترقد منذ زمن طويل في نوع من السبات الذي عاشت به عشر سنوات من التاريخ. وفي هذا المساء ـ مساء يوم جمعة آخر دون وصول الرسالة المنتظرة ــ استيقظ الناس. وتذكر الكولونيل حقبة أخرى؛ فقد رأى نفسه مع زوجته وابنه وهم يجلسون تحت المظلة يشاهدون عرضاً لم يتوقف برغم المطر الفزير. وتذكر زعماء حزبه ذوي الشعور المسرحة بدقة، وهم يجلسون في فناء بيته يهوّون وجوههم على أنغام الموسيقى.

عبر من خلال الشارع الموازي للنهر، وهناك التقى أيضاً بجلبة الحشود كما في أيام الأحد الانتخابية الصاخبة. رأى عملية إنزال السيرك ومعدّاته إلى البر. ومن داخل أحد المتاجر صرخت امرأة بشيء له علاقة بالديك. استمر في ذهوله حتى البيت، وهو لا يزال يسمع أصواتاً متفرقة، وكأن بقايا هتافات ملعب الصراع تلاحقه.

عندما وصل أمام باب البيت، التفت إلى الأطفال قائلاً:

ـ ليذهب كل إلى بيته. وإذا ما دخل أحدكم فسأخرجه بالحزام.

أغلق الباب بالرتاج ومضى مباشرة إلى المطبخ. خرجت امرأته من غرفة النوم وهي تشهق، صرخت:

«لقد أخذوه بالقوة، قلت لهم إن الديك لن يخرج من هذا البيت ما دمت على قيد الحياة». ربط الكولونيل الديك إلى دعامة الموقد. وأبدل الماء الذي في العلبة، بينما كان صوت زوجته المحتدم يلاحقه:

ـ قالوا إنهم سيأخذونه على جثتينا، وقالوا إن الديك ليس لنا وحدنا وإنما هو للقرية كلها.

وعندما انتهى من الديك، التفت الكولونيل ليلتقي بوجه زوجته القلق. واكتشف، دون دهشة، أنها لم تثر فيه أي تأنيب أو شفقة.

«حسناً فعلوا»، قال بهدوء، ثم أضاف، وهو يفتش جيوبه، بلهجة عميقة عذبة:

ـ لن يباع الديك.

تبعته حتى غرفة النوم. وأحست أنه إنساني تماماً، ولكنه لا يُمسّ، وكأنها تراه على شاشة سينما. أخرج الكولونيل من الخزانة رزمة أوراق نقدية وجمعها مع تلك التي كانت في جيوبه، ثم عدّها جميعاً وأعادها إلى الخزانة قائلاً:

ـ هاهنا تسعة وعشرون بيزو سنعيدها إلى صديقي ساباس. والباقي سأدفعه له عندما يصل الراتب التقاعدي.

ـ وإذا لم يصل الراتب التقاعدي ـ سألته المرأة.

ـ سيصل.

ـ ولكن، إذا لم يصل.

ـ عندها لن أدفع له.

عثر على الحذاء الجديد تحت السرير. فرجع إلى الخزانة بحثاً عن علبة الحذاء، ثم نظف نعليه بخرقة قماش ووضعه في العلبة. كما كان عندما أحضرته زوجته يوم الأحد ليلاً. ولم تتحرك هي من مكانها.

قال الكولونيل:

ـ وسنعيد الحذاء. وهكذا يصبح لدينا ثلاثة عشر بيزو أخرى.

ـ لن يقبلوا إعادته.

فرد الكولونيل:

ـ يجب أن يقبلوا. لقد لبسته مرتين فقط.

ـ ولكن الأتراك لا يفهمون هذه الأمور.

ـ يجب أن يفهموها.

ـ وإذا لم يفهموها؟

ـ عندئذ دعيهم لا يفهمون.

استلقيا للنوم دون طعام. وانتظر الكولونيل ريثما تنتهي زوجته

من صلاتها ليطفئ المصباح. سمع أجراس الرقابة السينمائية وبعدها على الفور ـ بعد ثلاث ساعات ـ سمع إشارة منع التجوال.

أصبح تنفس المرأة المتحشرج محزناً مع هواء الفجر البارد. كانت عينا الكولونيل لا تزالان مفتوحتين عندما تكلمت هي بصوت استرضائي رصين:

ـ هل أنت مستيقظ؟

ـ أجل.

فقالت المرأة:

ـ حاول أن تفكر بالعقل. وتحدث غداً مع الصديق ساباس.

ـ لن يأتي حتى يوم الاثنين.

ـ هذا أفضل. سيكون أمامك ثلاثة أيام للتفكير.

ـ ليس ثمة ما يستدعي التفكير.

كان هواء أكتوبر قد مضى وحلت محله برودة معتدلة. وعاد الكولونيل يشعر بكانون الأول من خلال دقات الساعة التي تطلقها طيور الكروان. وعندما دقت الساعة الثانية، لم يكن قد نام بعد، ولكنه كان يعرف أن زوجته ما زالت مستيقظة أيضاً. حاول تغيير وضعيته في السرير.

ـ هل أنت مستيقظ؟ قالت المرأة.

ـ نعم.

فكرت للحظة، وقالت:

ـ لسنا في وضع يمكننا من فعل هذا. فكر جيداً في ما تعنيه أربعمئة بيزو مجتمعة.

ـ بعد وقت قصير سيصلنا الراتب التقاعدي ـ قال الكولونيل.

ـ إنك تقول هذا الكلام منذ خمس عشرة سنة.

فقال الكولونيل:

- لهذا لا يمكن أن يتأخر الراتب كثيراً.

صمتت. ولكن عندما عادت للحديث، بدا للكولونيل وكأن الزمن لم يمر.

- إني أشعر وكأن هذه النقود لن تصل أبداً - قالت المرأة.

- ستصل.

- وإذا لم تصل.

لم يجد صوتاً ليرد عليها. وعند صياح أول ديك في الفجر اصطدم بالواقع، ولكنه عاد ليغطّ في نوم عميق، دون أي شعور بالندم. وعندما استيقظ، كانت الشمس قد ارتفعت. وكانت زوجته لا تزال نائمة. وكرر الكولونيل، على نحو آلي ومنهجي، حركاته التي يقوم بها كل صباح، ولكنه في هذا اليوم كان متأخراً ساعتين عن الأيام الأخرى، وانتظر زوجته لتناول طعام الفطور.

استيقظت مكتئبة. تبادلا تحية الصباح وجلسا لتناول الفطور صامتين. رشف الكولونيل فنجاناً من القهوة مع قطعة من الجبن وشريحة من الخبز المحلى. ثم أمضى فترة الصباح بكاملها في دكان الخياط. وفي الساعة الواحدة رجع إلى البيت ووجد زوجته ترقع بعض الملابس وهي جالسة إلى جانب أزهار البيجونيا. قال لها:

- لقد حان موعد الغداء.

- لا يوجد شيء للغداء - ردت المرأة.

هز كتفيه. ثم مضى يعمل على إغلاق الفتحات التي في سور الفناء ليمنع الأطفال من الدخول إلى المطبخ. وعندما رجع إلى الممر كانت المائدة قد أعدت.

خلال تناول الغداء شعر الكولونيل بأن زوجته تجهد نفسها كي لا تبكي. وقد أفزعه هذا الشعور. فهو يعرف شخصية امرأته القاسية

بطبيعتها ، والتي زادت من قسوتها أربعون سنة من المرارة. حتى أن موت ابنها لم يجعلها تذرف دمعة واحدة.

ثبت عينيه اللتين تحملان نظرة لوم بعينيها مباشرة. فعضت هي على شفتيها ، وجففت رموشها بكمها وتابعت تناول الطعام.

ـ إنك بلا ضمير.

ولكن الكولونيل لم يقل شيئاً.

«إنك متعجرف، وعنيد ، وبلا ضمير» كررت هي. ثم وضعت أدوات طعامها متقاطعة في الطبق، ولكنها عادت لتعدل وضع الأدوات وتبعدها عن بعضها بعضاً بسبب اعتقاداتها الخرافية. وقالت: «لقد أمضيتُ حياةً بكاملها وأنا آكل التراب لأجد نفسي الآن أقل اعتباراً من مجرد ديك».

ـ ليس الأمر هكذا ـ قال الكولونيل.

فردت المرأة:

ـ بل هو كذلك. وعليك أن تعرف بأني أموت، وإن هذا الذي يصيبني ليس مرضاً وإنما هو الاحتضار.

لم يقل الكولونيل شيئاً حتى انتهى من طعامه:

ـ إذاً ما ضمن لي الدكتور أن الريو سيفارقك إذا بعت الديك، فإني سأبيعه في الحال، أما بغير هذا فلن أبيعه.

أخذ الديك إلى ملعب المصارعة في المساء. وعندما رجع وجد زوجته على حافة نوبة جديدة. كانت تتمشى على طول الممر، وشعرها مسدل على ظهرها ، وذراعاها مفتوحتان وهي تبحث عن الهواء من خلال صفير رئتيها. وبقيت في الممر حتى أول الليل. وبعدها استلقت في فراشها دون أن تقول شيئاً لزوجها.

اجترت صلواتها حتى ما بعد منع التجوال بقليل. حينئذ أراد الكولونيل إطفاء المصباح. ولكنها منعته قائلة:

ـ لا أريد أن أموت في الظلام.

ترك الكولونيل المصباح على الأرض. وبدأ يشعر بالاستنزاف. كان يرغب لو أنه ينسى كل شيء، لو أنه ينام أربعة وأربعين يوماً دفعة واحدة ليستيقظ يوم العشرين من كانون الثاني في الساعة الثالثة مساء، في ملعب صراع الديكة وفي اللحظة التي سيفلت بها الديك تماماً. ولكنه أحسَّ بأنه مراقب من زوجته.

قالت بعد هنيهة:

«إنها القصة نفسها دائماً. نحصل على الجوع ليأكل الآخرون. إنها نفس القصة تتكرر منذ أربعين سنة».

احتفظ الكولونيل بصمته إلى أن توقفت زوجته عن الحديث لتسأله إذا كان لا يزال مستيقظاً. وأجابها بنعم. فتابعت المرأة حديثها بوتيرة متدفقة، لا تهدأ.

ـ الجميع سيكسبون من الديك، إلا نحن. فنحن الوحيدون الذين لا نملك سنتافو واحداً لنراهن به.

ـ لصاحب الديك حق يناله هو عشرون بالمئة.

فردت المرأة:

ـ وكان لك حق أيضاً بالحصول على منصب لائق عندما كانوا يمزقون جلدك في الانتخابات. ولك الحق أيضاً بالحصول على راتبك التقاعدي كمحارب قديم بعد أن حشرت أنفك في الحرب الأهلية. ولكن هاهم الآن يعيشون جميعاً حياتهم المأمونة بينما أنت وحيد تماماً، تموت جوعاً.

ـ لست وحيداً ـ قال الكولونيل.

وحاول أن يشرح أمراً، ولكن النعاس غلبه. واستمرت هي تتكلم إلى أن تنبهت لنوم زوجها. عندئذ خرجت من تحت الكلّة

وتمشت فـي الـصالة المظلمـة. وهنـاك تابعـت الكـلام، حتـى ناداهـا الكولونيل فـي الصباح الباكـر.

ظهرت فـي الباب كطيف. كان ضـوء المصباح الـذاوي ينعكس عليهـا مـن أسـفل، فأطفأتـه قبـل أن تـدخل تحـت الكلّـة. ولكنهـا استمرت فـي الكلام.

فقاطعها الكولونيل:

ـ أقترح أن نعمل شيئاً.

ـ الشيء الوحيد الذي نستطيع عمله هو أن نبيع الديك.

ـ يمكننا أيضاً أن نبيع الساعة.

ـ لن يشتريها أحد.

ـ سأحاول غداً أن أجعل ألفارو يدفع لي أربعين بيزو ثمناً لها.

ـ لن يدفع لك شيئاً.

عندما عادت المرأة تتكلم هذه المرة كانت قد خرجت من جديد مـن تحـت الكلّـة. وأحـسَّ الكولونيـل بأنفاسـها المـضمخة بـروائح الأعشاب الطيبة.

ـ لن يشتريها أحد.

فرد الكولونيل برقة، ودون أي أثر للخداع فـي صوته:

ـ سنرىٰ ذلك. نـامي الآن، وإذا لم نـستطع أن نبيـع شـيئاً فـيْ الغـد سنفكر بوسيلة أخرى.

حاول الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين، ولكن النعاس غلبه وسقط في أعماق هلام بلا زمان ولا مكان، حيث صار لكلام زوجته معنى مختلف. ولكنه أحس، بعد برهة، بأن هناك من يهز كتفه.

ـ أجبني.

لم يعرف الكولونيل إذا ما سمع هـذه الكلمـة وهـو نـائم أم بعـد استيقاظه. كان الفجر قد بدأ بالبزوغ. ومن النافذة كان يبدو النور

الأخضر ليوم الأحد. وفكر في أنه مصاب بحمّى، فقد كانت عيناه ملتهبتين، وكلفته استعادة الرؤية عناء كبيراً.

ـ ماذا نستطيع أن نفعل إذا لم أتمكن من بيع شيء ـ كررت المرأة.

فأجابها الكولونيل وقد صحا تماماً:

ـ عندئذ يكون يوم العشرين من كانون الثاني قد أتى. ويومها سيدفعون لنا عشرين بالمئة من قيمة المراهنات.

فقالت المرأة:

ـ هذا إذا كسب الديك. ولكن إذا ما خسر.. ألم يخطر ببالك أن الديك قد يخسر.

ـ إنه ديك لا يمكن أن يخسر.

ـ ولكن افترض أنه خسر.

ـ مازال أمامنا خمسة وأربعون يوماً لنبدأ التفكير في هذه الأمور.

سيطر اليأس على المرأة، فسألته:

«وحتى ذلك الحين، ماذا سنأكل»، ثم جذبت الكولونيل من عنق قميصه الداخلي، وهزته بقوة.

ـ قل لي، ماذا سنأكل؟

لقد احتاج الكولونيل لخمس وسبعين سنة ـ الخمس والسبعين سنة التي عاشها، دقيقة دقيقة، ليصل إلى هذه اللحظة. فأحسّ بالنقاء، والوضوح، وبأنه لا يقهر في اللحظة التي ردّ فيها:

ـ خراء!

باريس، كانون الثاني 1957

ساعة الشؤم

نهض الأب أنخل بجهد مهيب، ودعك رموشه بعظام يديه، ثم أزاح الكلّة جانباً وظل جالساً على الحصيرة الجرداء مفكراً للحظة، هو الوقت اللازم ليرى أنه مازال على قيد الحياة، وليتذكر تاريخ اليوم وموقعه في سجل القديسين. «**الثلاثاء، الرابع من تشرين الأول**» فكر. ثم قال بصوت عال: «**إنه يوم القديس فرانثيسكو دي آسيس**».

ارتدى ملابسه دون أن يغتسل ودون أن يصلي. كان ضخماً، متورداً، له وجه يبدو ظاهرياً كوجه جاموس وديع، وكان يتحرك مثل جاموس، بحركات متثاقلة وحزينة. وبعد أن ضبط أزرار ثوبه الكهنوتي باهتمام فاتر من أصابعه التي يثبت بها أوتار الأرغن، أزاح الرتاج وفتح باب الفناء. لقد ذكرته أزهار الناردين وهي تحت المطر بكلمات أغنية، فتنهد:

- «*البحر يكبر بدموعي*».

كانت غرفة نومه متصلة بالكنيسة عن طريق ممر داخلي مزين بأصص زهور، ومرصوف بآجر متفرق بعضه عن بعض، بدأت تنمو بين شقوقه أعشاب تشرين. قبل توجهه إلى الكنيسة، دخل الأب أنخل إلى المرحاض. وتبول بغزارة وهو يحبس أنفاسه كي لا يشم رائحة الأمونياك النفاذة التي تجعله يذرف الدموع. خرج بعدها إلى الممر، وتذكر: «*سيحملني هذا المركب إلى أحلامك*». وأمام بوابة الكنيسة الضيقة شم لآخر مرة رائحة الناردين.

الرائحة في الداخل كانت كريهة. فالكنيسة عبارة عن رواق طويل، مرصوف بآجر متفرق أيضاً، ولها بوابة واحدة تؤدي إلى

الساحة. اتجه الأب مباشرة نحو قاعدة البرج. رأى ثقالات الساعة على ارتفاع متر واحد من رأسه وفكر في أن الساعة معبأة بما يكفيها لأسبوع. هاجمه الذباب، فهرس واحدة منه على رقبته بضربة قوية من كفه، ثم مسح يده بحبل الناقوس. وبعدها سمع، في الأعلى، جلبة الأحشاء الصادرة عن التروس الميكانيكية المعقدة، ثم سمع في الحال دقات الساعة الخمس ـ الصماء والعميقة ـ معلنة الخامسة في بطنه.

انتظر إلى أن تلاشى آخر صدى. وعندئذ أمسك الحبل بكلتا يديه، ولفه على معصميه، وجعل البرونز المتآكل يدوي بإيمان حاسم. لقد أتم واحدة وستين سنة من عمره، وكانت عملية قرع الأجراس عنيفة جداً في هذه السن، لكنه كان يدعو دوماً بنفسه إلى القداس، فكان هذا الجهد الذي يبذله ينعش معنوياته.

دفعت ترينيداد الباب المؤدي إلى الشارع فيما الناقوس يدوي، واتجهت إلى الركن الذي وضعت فيه مصائد الفئران في الليلة الماضية. لقد وجدت ما أثار فيها الاشمئزاز والبهجة في الوقت ذاته: وجدت مجزرة صغيرة.

فتحت المصْيَدة الأولى، وأمسكت بالجرذ من ذيله بين سبابتها والإبهام، وألقت به في علبة كرتونية. كان الأب أنخل قد انتهى من فتح الباب المؤدي إلى الساحة.

ـ عمت صباحاً أيها الأب ـ قالت له ترينيداد.

لم يدقق بصوتها الجهوري الجميل، لأن مرأى الساحة المقفرة وأشجار اللوز الهاجعة تحت المطر، والقرية الساكنة في الصباح التشريني الباهت، بعثت فيه رعشة خذلان. لكنه ما إن اعتاد على إيقاع صوت المطر حتى سمع، في طرف الساحة، صوت بوق باستور

ينطلق صافياً ولا واقعياً بعض الشيء. عندئذ فقط رد على تحية الصباح. وقال:

ـ لم يكن باستور مع عازفي الليل.

ـ لا. ـ أكدت ترينيداد.

ثم اقتربت حاملة علبة الجرذان الميتة، وقالت:

ـ كانوا يعزفون على جيتارات.

فقال الأب أنخل:

ـ لقد استمروا نحو ساعتين وهم يعزفون أغنية تافهة. *«البحر يكبر بدموعي»*. أليست كذلك؟

ـ إنها أغنية باستور الجديدة ـ قالت.

وبينما هو واقف بلا حراك، كابد الأب أنخل لحظة من الافتتان. لقد استمع خلال عدة سنوات إلى بوق باستور الذي كان يجلس عادة على بعد كوادرتين، في الساعة الخامسة من صباح كل يوم ليعزف وهو جالس على كرسي مستند إلى دعامة عش حمائمه. لقد كانت آلية الحياة تسير بدقة في البلدة: أولاً، دقات الناقوس الخمس التي تعلن الخامسة. وبعدها، الدعوة للقداس. ثم يليها بوق باستور في باحة بيته، منقياً بألحانه الشجية الهواء المثقل بفضلات الحمائم.

قال الأب:

ـ الموسيقى جيدة، أما الكلمات فليست سوى حماقة. يمكن قلب هذه الكلمات رأساً على عقب، دون الإحساس بأي أثر. *«سيحملني هذا الحلم إلى مركبك»*.

دار نصف دورة وهو يبتسم لاكتشافه هذا، ومضى ليشعل شموع المذبح. لحقته ترينيداد. كانت ترتدي فستاناً أبيض طويلاً تصل

أكمامه حتى معصميها، وتضع حزاماً حريرياً أزرق خاصاً بجمعية علمانية. أما عيناها فكانتا سوداوين شديدتي السواد تحت حاجبين متصلين.

ـ لقد كانوا قريباً من هنا طوال الليل ـ قال الأب أنخل.

ـ قريباً من مارغوت راmبريث ـ قالت ترينيداد ساهمة، وهي تهز الجرذان الميتة في العلبة، ثم تابعت:

ـ ولكن شيئاً آخر حدث في الليل، وكان أفضل من جوقة السيرناد الليلية.

توقف الأب أنخل، وركز عليها عينيه ذاتي اللون الأزرق الصامت.

ـ ما هو؟

ـ منشورات. ـ قالت ترينيداد، وأفلتت ضحكة عصبية.

على بعد ثلاثة بيوت، كان ثيسر مونتيرو يحلم بالأفيال. لقد رأى الفيلة في السينما يوم الأحد. وكان المطر قد هطل قبل نصف ساعة من انتهاء الفيلم، وها هو ذا الفلم يستمر الآن في الحلم.

انقلب ثيسر مونتيرو بكل ثقل جسده الضخم نحو الجدار، في حين كان الوطنيون الخائفون يهربون من قطيع الفيلة. دفعته زوجته برفق، ولكن أياً منهما لم يسقط. «هيا» دمدم، ثم عاد إلى وضعه السابق، وعندئذ أفاق. في هذه اللحظة كانت الأجراس تدق دقتها الثانية داعية إلى القداس.

إنها حجرة ذات مساحات كبيرة مغطاة بشبك معدني. وعلى النافذة المطلة على الساحة، المغطاة بشبكة معدنية أيضاً، ستارة من الكريتون مزينة بأزهار صفراء اللون. بينما يوجد على الكوميدينو جهاز راديو نقال، ومصباح، وساعة مضيئة. وفي الجهة المقابلة خزانة

ملتصقة بالجدار، أبوابها مغطاة بمرايا. وبينما هو يلبس جزمة ركوب الخيل، بدأ ثيسر مونتيرو بسماع بوق باستور. كان رباط الجزمة المصنوع من الجلد الخام متصلباً بسبب الوحل، فشده بقوة وهو يمرره من خلال راحته المطبقة والأكثر خشونة من جلد الرباط. ثم بحث عن مهمازيه، لكنه لم يجدهما تحت السرير. وتابع ارتداء ملابسه في العتمة، محاولاً عدم إثارة الضجة كي لا يوقظ زوجته. وبينما هو يزرر قميصه، نظر إلى الساعة الموضوعة على الكوميدينو ثم عاد للبحث عن مهمازيه تحت السرير. بحث عنهما أولاً بيديه. وبعد ذلك انحنى على أربع وحشر نفسه زاحفاً تحت السرير. استيقظت زوجته:

- عم تبحث؟

- المهمازان.

- إنهما معلقان وراء الخزانة. أنت نفسك وضعتهما هناك يوم السبت.

أزاحت الكلّة جانباً وأضاءت النور، فنهض خجلاً، كان كالتمثال، له ظهر مربوع ومتين، لكن حركاته كانت لا تزال رشيقة وهو بجزمة ركوب الخيل، وكان نعلا الجزمة يبدوان وكأنهما عارضتان من الخشب. كانت صحته صلبة قليلاً، ويبدو كأنه في سن مبهمة، ولكن بشرة عنقه تدل على أنه قد تجاوز الخمسين. جلس على حافة السرير ليثبت المهمازين.

- ما زالت تمطر - قالت وهي تشعر أن عظامها الفتية قد امتصت رطوبة الليل، ثم تابعت: - أشعر وكأنني إسفنجة.

كانت صغيرة السن، نحيلة، ذات أنف طويل وحاد، ولم يكن يبدو عليها أنها استيقظت لتوها. حاولت رؤية المطر من خلال النافذة. وانتهى ثيسر مونتيرو من تثبيت المهمازين، فنهض واقفاً وضرب الأرض بنعليه عدة مرات، فارتج البيت من المهمازين النحاسيين.

ـ النمر يسمن في تشرين ـ قال.

لكن زوجته لم تسمعه، إذ أنها كانت ساهية مع لحن باستور. وعندما نظرت إليه من جديد، كان واقفاً يسرح شعره أمام الخزانة وقد باعد ما بين ساقيه واحنى رأسه، لأن المرآة لم يكن لتتسع له.

تابعت الإصغاء إلى لحن باستور الخافق.

ـ لقد ضجوا بهذه الأغنية طوال الليل ـ قال لها.

ـ إنها أغنية جميلة ـ قالت.

حلت شريطاً قماشياً من عارضة السرير، وامسكت بشعرها عند الرقبة ثم تنهدت وقد صحت تماماً: *«سابقى في احلامك حتى الموت»*. لم يعرها اي اهتمام. ومن أحد أدراج الخزانة، حيث كانت توجد بعض المجوهرات، وساعة نسائية صغيرة وريشة كتابة، أخرج محفظة نقود، وسحب منها أربع ورقات نقدية ثم أعاد المحفظة إلى مكانها، بعد ذلك دس في جيب قميصه ستة خراطيش لبندقية الصيد، وقال:

ـ إذا استمر هطول المطر، فلن أعود حتى يوم السبت.

ما إن فتح باب الفناء، حتى تباطأ للحظة عند العتبة مستنشقاً رائحة تشرين الكئيبة بينما عيناه تعتادان العتمة. وعندما هم بإغلاق الباب رن جرس المنبه في حجرة النوم.

قفزت زوجته من السرير. وظل هو واقفاً ويده على المزلاج لا يدري ما يفعل. إلى أن أوقفت هي جرس الساعة. عندئذ نظر إليها للمرة الأولى ساهماً، ثم قال:

ـ لقد حلمت الليلة بالفيلة.

أغلق بعد ذلك الباب ومضى ليسرج البغلة.

اشتد هطول المطر قبيل الدعوة الثالثة إلى القداس. وهبت ريح

منخفضة انتزعت عن أشجار اللوز التي في الساحة آخر أوراقها المتعفنة.

أطفئت الأنوار العامة، ولكن البيوت ظلت مغلقة. أدخل ثيسر مونتيرو البغلة إلى المطبخ، ودون أن يترجل طلب من امرأته صارخاً أن تأتيه بالرداء المطري. نزع بندقية الصيد ذات السبطانتين التي كان يتنكبها على ظهره، ثم ثبتها أفقياً بأحزمة السرج. جاءت زوجته إلى المطبخ وهي تحمل الرداء المطري وقالت له دون قناعة:

- انتظر حتى يتوقف المطر.

ارتدى الرداء بصمت، ثم نظر صوب الفناء.

- لن يتوقف المطر حتى شهر كانون الأول.

تابعته بنظرها حتى الطرف الآخر من الممر. كان المطر يتكسر فوق ألواح السقف الصدئة، لكنه مضى. وبينما هو يهمز البغلة، اضطر للانحناء فوق السرج كي لا يصطدم راسه بإفريز البوابة وهو يخرج إلى الفناء. صفعت قطرات الماء المتساقطة من الإفريز ظهره كأنها حصى، وعند البوابة، صرخ دون أن يلتفت برأسه:

- إلى اللقاء يوم السبت.

- إلى اللقاء - قالت الزوجة.

كان الباب الوحيد المفتوح في الساحة هو باب الكنيسة. تطلع ثيسر مونتيرو إلى أعلى فرأى السماء المتلبدة الواطئة، على ارتفاع كوادرتين من رأسه فقط. رسم إشارة الصليب، ثم همز البغلة وجعلها تدور عدة دورات على قائمتيها الخلفيتين، إلى أن تماسكت الدابة فوق الأرض الصابونية، وفي هذه اللحظة فقط رأى الورقة الملصقة على باب بيته.

قرأها دون أن يترجل. كان الماء قد حلل لونها، لكن النص

المكتوب بقلم حبر، وبحروف غليظة كحروف الطباعة، كان لا يزال مفهوماً. قرَّب ثيسر مونتيرو البغلة من الجدار، وانتزع الورقة ثم مزقها نتفاً.

وبضربة من اللجام، دفع البغلة في خبب قصير متوافق، من أجل مسير يستغرق عدة ساعات. غادر الساحة عبر شارع كئيب ومنحن تحف به بيوت طينية الجدران، تنطلق منها لدى فتح أبوابها جذوات النعاس. شم رائحة القهوة. وبعد أن خلّف وراءه آخر بيوت القرية جعل البغلة تدور على أعقابها، وتعود نحو الساحة بالخطوات القصيرة المتوافقة نفسها، وتوقف أمام بيت باستور. وهناك ترجل ونزع بندقية الصيد ثم ربط البغلة بدعامة عش الحمائم. لقد قام بكل حركة من هذه الحركات في وقتها المحدد.

لم تكن البوابة مقفلة، وإنما كانت مدعمة في أسفلها بقوقعة ضخمة. دخل ثيسر مونتيرو إلى الصالة الغارقة في الظلام. سمع نغماً حاداً تبعه صمت مترقب. مرَّ إلى جانب أربعة كراسٍ مصفوفة حول طاولة صغيرة عليها بساط صوفي وقارورة فيها زهور اصطناعية. وتوقف أخيراً أمام باب البهو، دفع قبعة الرداء المطري إلى الوراء، وحرك بالتحسس مسمار الأمان في البندقية، ونادى بصوت هادئ ولطيف إلى حد ما:

ـ باستور.

ظهر باستور في فراغ الباب وهو يحلّ فوهة البوق. كان فتى ضامراً، طويلاً، له شارب زغبي حديث الظهور مشذب بمقص. عندما رأى ثيسر مونتيرو يقف مثبتاً كعبيه على الأرض الترابية ويسند البندقية إلى خاصرته ويصوبها نحوه، فتح باستور فمه. لكنه لم يقل شيئاً. سيطر عليه الشحوب وابتسم. ضغط ثيسر مونتيرو كعبيه على

الأرض أولاً، ثم ضغط أخمص البندقية بمرفقه إلى عظم حوضه، وبعدها ضغط على أسنانه، وضغط في الوقت نفسه على الزناد، ارتجَّ البيت بالدوي، لكن ثيسر مونتيرو لم يدر إن كان، قبل الدوي أم بعده، قد رأى باستور في الجانب الآخر من الباب، يتجرجر مثل دودة تتلوى فوق نثارة من زغب الحمام الملطخ بالدم.

❖ ❖ ❖

كان العمدة قد بدأ يغفو عندما انطلقت الرصاصة. لقد أمضى ثلاث ليال مسهداً ومضطرباً بسبب آلام أحد أضراسه. وفي هذا الصباح، عندما قرع أول نداء للقداس، تناول القرص المسكن الثامن. هدأت الآلام، وساعده قرع المطر فوق صفيح السقف على النوم. لكن الضرس بقي ينبض دون ألم فيما هو يغفو. وعندما سمع صوت العيار الناري، قفز ناهضاً وتناول حزام الخرطوش والمسدس الذي يتركه عادة على كرسي قريب من أرجوحة نومه، في متناول يده اليسرى. وبما أنه لم يسمع بعد ذلك سوى صوت المطر، فقد ظن الأمر كابوساً، وعاد يشعر بالألم.

كان به شيء من الحمى. وانتبه أمام المرآة إلى أن وجنته متورمة. فتح علبة صغيرة فيها مرهم منعنع ودهن به موضع الألم، حيث كان الجلد مشدوداً وبلا حلاقة. وفجأة سمع من خلال صوت المطر، جلبة أصوات بعيدة، فخرج إلى الشرفة. كان ساكنو الشارع يركضون باتجاه الساحة، وبعضهم ما يزال بملابس النوم. التفت إليه أحد الشبان، ورفع ذراعيه وصرخ دون أن يتوقف:

ـ ثيسر مونتيرو قتل باستور.

كان ثيسر مونتيرو يدور في الساحة حول نفسه وقد صوب بندقيته نحو الحشد. تعرف عليه العمدة بصعوبة. سحب مسدسه بيده

اليسرى وراح يتقدم نحو وسط الساحة، وأفسح له المتجمهرون الطريق. خرج أحد رجال الشرطة من صالة البلياردو وقد هيأ بندقيته وصوبها باتجاه ثيسر مونتيرو. فقال له العمدة بصوت خافت: «لا تطلق النار أيها الحيوان». أغمد مسدسه في قرابه، وانتزع البندقية من الشرطي وتابع تقدمه نحو وسط الساحة ممسكاً بالسلاح الجاهز للإطلاق. وازدحمت حشود المتفرجين ملتصقة بالجدران.

- ثيسر مونتيرو... أعطني البندقية - صاح العمدة.

لم يكن ثيسر مونتيرو قد رآه حتى تلك اللحظة. وبقفزة واحدة استدار إليه. ثبت العمدة إصبعه على الزناد، لكنه لم يطلق النار.

- تعال وخذها - صرخ ثيسر مونتيرو.

كان العمدة يمسك البندقية بيده اليسرى، ويمسح جفونه بيده اليمنى. كان يحسب حساباً لكل خطوة يخطوها، بينما إصبعه مشدود على الزناد وعيناه مثبتتان على ثيسر مونتيرو. وفجأة، توقف وتكلم بلهجة متوددة:

- ألق بالبندقية إلى الأرض يا ثيسر. لا تقم بحماقات أخرى.

تراجع ثيسر مونتيرو. وتابع العمدة التقدم ويده على الزناد. لم تتحرك عضلة واحدة في جسده إلى أن أنزل ثيسر مونتيرو البندقية وتركها تسقط. عندئذ انتبه العمدة إلى أنه يكاد لا يلبس شيئاً سوى سروال البيجاما، وإلى أنه تحت المطر، وأن ضرسه لم تعد تؤلمه.

فُتحت أبواب البيوت. وركض شرطيان مسلحان بالبنادق نحو وسط الساحة. وهرعت الجموع وراءهما، فاستدار الشرطيان إلى الخلف قافزين، وصرخا موجهين بندقيتيهما المهيأتين إلى الحشد:

- إلى الوراء.

وصاح العمدة بصوته الهادئ، دون أن يتطلع إلى أحد:

ـ أخلوا الساحة.

تفرقت الجموع. وفتش العمدة ثيسر مونتيرو دون أن يجعله يخلع رداءه المطري. وجد أربع طلقات في جيب قميصه، وعثر في جيب سرواله الخلفي على مطواة ذات مقبض مصنوع من قرن حيوان. وفي جيب آخر وجد دفتر ملاحظات صغيراً، وحلقة فيها ثلاثة مفاتيح، وأربع أوراق نقدية من فئة المئة بيزو. استسلم ثيسر مونتيرو لعملية التفتيش دون تأثر، وقد فتح ذراعيه، وكان يحرك جسده أحياناً لتسهيل العملية. وعندما انتهى العمدة نادى الشرطيين وسلمهما الأشياء وعهد إليهما بثيسر مونتيرو. ثم قال لهما آمراً:

ـ خذاه فوراً إلى مبنى البلدية، ستكونان مسؤولين أمامي عنه.

خلع ثيسر مونتيرو الرداء المطري وأعطاه لأحد الشرطيين، ثم سار بينهما غير مبال بالمطر ولا بحيْرة الناس المجتمعين في الساحة. نظر العمدة إليه ساهماً بينما كان يبتعد، ثم التفت إلى الحشد، وقام بحركة كمن يخيف مجموعة من الدجاج وصاح:

ـ تفرقوا.

مسح وجهه بذراعه العارية وهو يجتاز الساحة، ودخل إلى بيت باستور.

كانت والدة الميت منهارة على كرسي، وسط مجموعة من النساء اللواتي كن يهوّين لها بهمة عالية. أبعد العمدة إحدى النسوة قائلاً: «أعطوها هواء».

فالتفتت المرأة إليه وقالت:

ـ كانت قد خرجت لتوها من القداس.

ـ حسن، لكن دعوها تتنفس الآن ـ قال العمدة.

كان باستور في الممر، مطروحاً على بطنه بجانب عش الحمام،

فوق فرشة من الريش الملوث بالدم. وكانت تنبعث من فضلات الحمام رائحة نفاذة. وكانت هناك جماعة من الرجال تحاول رفع الجثة عندما ظهر العمدة في الباب.

ـ ابتعدوا.. ـ قال لهم.

أعاد الرجال وضع الجثة فوق الريش، بالوضع نفسه الذي وجدوها عليه، وتنحوا جانباً بصمت. قلب العمدة جسد الميت بعد أن تفحصه. كانت هناك نتف من الريش عالقة به، وعلى مستوى الحزام كان ريش كثير ملتصق بالدم الذي مازال فاتراً وحياً. أزاح الريش بيده. كان القميص ممزقاً وإبزيم الحزام تالفاً. ورأى الأحشاء مكشوفة تحت القميص. كان الجرح قد توقف عن النزف.

قال أحد الرجال:

ـ لقد قتله ببندقية لصيد النمور.

نهض العمدة ومسح يده الملوثة بالريش الملطخ بالدم بأحد أعمدة بيت الحمائم، دون أن يتوقف عن تأمل الجثة، ثم نظف يديه أخيراً بسروال البيجاما وقال للجماعة:

ـ لا تحركوه.

ـ سنتركه ملقى هنا؟ ـ قال أحد الرجال.

ـ لا بد من تقديم طلب لنقل الجثة ـ رد العمدة.

بدأ بكاء النسوة يعلو داخل البيت. وشق العمدة طريقه عبر الولاويل والروائح الخانقة التي بدأت تنتشر في هواء الغرفة. وأمام الباب المؤدي إلى الشارع، التقى بالأب أنخل.

ـ هل مات ـ صاح الأب مرتبكاً.

ـ مثل خنزير ـ أجابه العمدة.

كانت البيوت حول الساحة مشرعة الأبواب. وكان المطر قد

توقف، لكن السماء الملبدة تطفو فوق السطوح، دون أن تترك أية فجوة للشمس. أوقف الأب أنخل العمدة ممسكاً به من ذراعه وقال:

ـ ثيسر مونتيرو رجل طيب، ولابد أن هذا حدث في لحظة طيش.

فقال العمدة فاقداً صبره:

ـ أعرف هذا. لا تقلق يا أبتاه، فلن يصيبه شيء. أدخل هنا حيث يحتاجون إليك.

ابتعد مظهراً بعض العنف، وأمر الحراس برفع الحراسة، فأسرع الحشد الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين ممنوعاً من الاقتراب، نحو بيت باستور. دخل العمدة إلى صالة البلياردو، حيث كان بانتظاره أحد رجال الشرطة ومعه ملابس جديدة ونظيفة: بدلته التي تحمل رتبة ملازم أول.

لا يفتح المحل أبوابه عادة في مثل هذا الوقت. لكنه في ذلك اليوم، وقبل أن تصل الساعة إلى السابعة، كان يغص بالرواد، كان بعض الرجال يتناولون القهوة حول الموائد التي يتسع كل منها لأربعة أشخاص، أو يستندون إلى الكونتوار. وأغلب الحاضرين كانوا لا يزالون بالبيجامات وينتعلون الأخفاف.

تعرى العمدة أمام الجميع، وجفف نفسه قليلاً بسروال البيجاما، ثم راح يرتدي ملابسه صامتاً، مصغياً إلى المناقشات الدائرة. وعندما غادر الصالة كان قد عرف تماماً تفاصيل الحادث كلها.

صرخ وهو عند الباب:

ـ احذروا جميعكم، فمن سيخلق لي الفوضى في هذه البلدة سأحشره في نعش.

نزل عبر الشارع المرصوف بالأحجار دون أن يحيي أحداً، لكنه كان منتبهاً إلى حالة الهياج التي تسود البلدة. لقد كان شاباً، بسيط

الحركات، كل خطوة من خطواته تكشف عن نية في التدليل على انه موجود.

في الساعة السابعة كان المركب الذي يقوم بنقل البضائع والمسافرين ثلاث مرات في الأسبوع يطلق صفارته وهو يغادر الميناء، دون أن يوليه أحد الاهتمام اليومي المعتاد. انحدر العمدة في السرادق حيث بدأ التجار السوريون بعرض بضائعهم المزركشة. كان الدكتور أوكتافيو خيرالدو، وهو طبيب لا يمكن تقدير سنه، له راس ممتلئ بالتجاعيد البراقة، يرى نزول الركاب من باب عيادته. وكان يرتدي البيجاما وينتعل الخف أيضاً.

ـ ارتد ملابسك يا دكتور كي نذهب لتشريح الجثة ـ قال العمدة.

نظر الطبيب إليه نظرة متآمرة، وكشف عن صف من الأسنان البيضاء المتينة وقال: «لقد أصبحنا نقوم الآن بالتشريح إذاً». ثم أضاف:

ـ إنه تقدم عظيم دون شك.

حاول العمدة الابتسام، لكن حساسية وجنته حالت دون ذلك، فأغلق فمه بيده.

سأله الطبيب:

ـ ماذا أصابك؟

ـ إنه ضرس ابن عاهرة.

بدا على الدكتور خيرالدو أنه مستعد للحديث، لكن العمدة كان مستعجلاً.

وعند نهاية رصيف الميناء قرع باب بيت جدرانه من قصب غير مقشور، وسقفه الذي من سعف ينحدر حتى مستوى الماء تقريباً.

فتحت له امرأة ذات بشرة ضاربة إلى الخضرة، حبلى في شهرها السابع. كانت حافية. أبعدها العمدة جانباً ودخل إلى الصالة الصغيرة المظلمة.

نادى:

- أيها القاضي.

أطلق القاضي أركاديو صفير استهجان.

- ومن أين أتيت بهذه البدع الجديدة؟

تابع العمدة قدماً حتى غرفة النوم. «هذا مختلف»، قال وهو يفتح النافذة لتنقية الهواء المحمل بالنعاس. «من الأفضل إنجاز الأمور على أحسن الوجوه». مسح الغبار الذي علق على يديه بسرواله المكوي، وسأله دون أدنى أثر للسخرية:

- هل تعرف كيف يكون طلب رفع الجثة؟

- هكذا يُفترض - قال القاضي.

نظر العمدة إلى يديه قبالة النافذة، وقال مرة أخرى دون أية نوايا: «ابعث إلى سكرتيرك كي يكتب ما يجب كتابته». بعد ذلك التفت إلى الصبية وقد بسط كفيه. كانت لا تزال عالقة بهما بقايا من الدم.

- أين يمكنني غسل يديّ؟

- في الحوض - قالت.

خرج العمدة إلى الفناء. وبحثت الصبية في الصندوق عن منشفة نظيفة، ولفت فيها قطعة صابون معطر.

خرجت إلى الفناء في اللحظة التي كان فيها العمدة عائداً إلى غرفة النوم وهو ينفض الماء عن يديه، فقالت له:

- لقد أحضرت لك الصابون.

ـ هذا يكفي ـ قال العمدة.

وعاد ينظر من جديد إلى كفيه. تناول المنشفة وجففهما وهو ساهم ينظر إلى القاضي أركاديو. ثم قال:

ـ كنت مغطى بريش الحمام.

بقي جالساً على السرير يرتشف رشفات متباعدة من فنجان قهوة، وينتظر انتهاء القاضي أركاديو من ارتداء ملابسه. كانت الصبية تلاحقهما بعينيها وهي في الصالة. قالت للعمدة:

ـ ما دمت لم تقلع هذا الضرس فلن يفارقك الورم.

دفع العمدةُ القاضي أركاديو نحو الشارع، ثم التفت إليها ولامس بطنها المنتفخ بسبابته وقال:

ـ وهذا الورم، متى سيفارقك؟

ـ قريباً ـ قالت.

❖ ❖ ❖

لم يقم الأب أنخل بجولته المسائية المعتادة، إذ توقف بعد مراسم الدفن لتبادل الحديث في بيت من بيوت الحي السفلي، وظل هناك حتى الغروب. أحس بأن حالته جيدة، رغم أن الأمطار الطويلة تسبب له الآلام الفقرية المعهودة. وعندما رجع إلى بيته كانت الأنوار العامة مضاءة.

كانت ترينيداد تسقي زهور الممر. سألها الأب أنخل عن خبز القربان الذي مازال دون تقديس وأجابته بأنها وضعته على المذبح الكبير. أحاطت به سحابة من البعوض عندما أشعل ضوء الغرفة. وقبل أن يغلق الباب رش رشة من مبيد الحشرات في الحجرة، وأخذ يعطس دون توقف بتأثير الرائحة. عندما انتهى كان يتعرق. استبدل ثوبه الكهنوتي الأسود بثوب آخر أبيض ومرقع يستخدمه في خلوته، ومضى لصلاة الليل.

عند عودته إلى الحجرة وضع مقلاة على النار ثم ألقى فيها قطعة لحم ليقليها، وفي الوقت نفسه أخذ يقطع بصلة إلى شرائح. ثم وضع كل ذلك في صحن فيه قطعة يُكة مطبوخة طبخاً خفيفاً، وقليل من الأرز البارد، هو ما تبقى من الغداء. حمل الصحن إلى المنضدة وجلس ليأكل.

أكل من كل شيء في وقت واحد، فقد كان يقطع قليلاً من كل صنف ويغرسه بالشوكة مستعيناً بالسكين، ويمضغ الطعام حتى آخر حبيبة منه بإتقان، طاحناً إياه بأضراسه وهو مطبق شفتيه. وبينما هو يفعل ذلك كان يضع الشوكة والسكين على حافة الصحن، ويتفحص الغرفة بنظرة متواصلة وواعية تماماً. مقابله كانت تنتصب الخزانة التي تضم مجلدات أرشيف الأبرشية الثخينة. وكان في الركن كرسي هزاز من الخيزران له مسند عال، وفي أعلى المسند وسادة مثبتة على مستوى الراس. ووراء الكرسي خزانة صغيرة فوقها صليب معلق إلى جانب تقويم دعائي لنوع من الشراب الخاص بالسعال. وفي الجانب الآخر من الباب كانت حجرة النوم.

بعد انتهائه من تناول الطعام، أحس الأب أنخل بأنه يختنق. دهن شطيرة بمربى الجوافة، وسكب ماء في الكأس حتى حافتها ثم أكل المربى المحلى وهو ينظر إلى التقويم. وبين كل لقمة وأخرى كان يتناول رشفة من الماء، دون أن يرفع نظره عن التقويم. بعد ذلك تجشأ ومسح شفتيه بكمه. إنه يأكل هكذا منذ تسعة عشر عاماً، وحيداً في مكتبه، مكرراً كل حركة من حركاته بدقة متواترة، ولم يعتره أي شعور بالخجل لعزلته.

بعد الصلاة، طلبت منه ترينيداد نقوداً لشراء الزرنيخ. ورفض الأب، للمرة الثالثة، أن يعطيها متعللاً بأن المصائد كافية. ولكن ترينيداد قالت بإصرار:

- الفئران الصغيرة تلتقط قطع الجبن دون أن تقع في المصيدة. لذا فإنه من الأفضل تسميم الجبن.

أقر الأب بأن ترينيداد على حق. وقبل أن يتمكن من التعبير عن ذلك، انطلق في سكينة الكنيسة دويٌّ مكبر الصوت من دار السينما التي على الرصيف المقابل. كان في البداية عبارة عن ضجيج أصم. تلاه احتكاك الإبرة بالاسطوانة، ثم بدأت موسيقى «مامبو» بصوت بوق صارّ.

- هل يوجد عرض سينمائي اليوم؟ - سألها الأب.

أجابت ترينيداد بنعم.

- أتعرفين الفلم الذي سيعرضونه؟

فقالت ترينيداد:

- *طرزان والربة الخضراء*. الفيلم نفسه الذي لم يتمكنوا من عرضه كاملاً يوم الأحد بسبب المطر. وهو مناسب لجميع الأعمار.

مضى الأب أنخل نحو قاعدة برج الأجراس وقرعها اثنتي عشرة دقة متفرقة. وقفت ترينيداد مشدوهة وقالت وهي تحرك ذراعيها وقد لمعت عيناها ببريق قلق:

- لقد أخطأت يا أبتاه. إنه فيلم مناسب لجميع الأعمار. تذكر أنك لم تقرع الأجراس ولا مرة واحدة يوم الأحد الماضي.

فقال الأب وهو يجفف العرق عن رقبته:

- لكن هذه إهانة للقرية، ثم كرر لاهثاً: - إهانة.

فهمت ترينيداد ما يعنيه.

وقال الأب:

- كان يجب رؤية تلك الجنازة. جميع الرجال كانوا يتنازعون حمل التابوت.

ثم ودع الصبية، وأغلق الباب المؤدي إلى الساحة الخاوية وأطفأ أنوار المعبد. وبينما هو يجتاز الممر عائداً إلى غرفة النوم، ضرب بكفه على جبهته عندما تذكر أنه نسي أن يعطي ترينيداد النقود اللازمة لشراء الزرنيخ. ولكنه نسي ذلك ثانية قبل أن يصل إلى الغرفة.

بعد وقت قصير، كان يجلس إلى طاولة العمل، ويتأهب لإنهاء رسالة بدأ بكتابتها في الليلة السابقة. كان قد فك أزرار ثوبه حتى مستوى المعدة، ورتب فوق الطاولة مجموعة الأوراق ودواة الحبر وورق النشاف، في حين كان يفتش في جيوبه بحثاً عن نظارته، تذكر فيما بعد أنه نسيها في الرداء الذي كان يلبسه أثناء الجنازة، فنهض بحثاً عنها، كان قد قرأ ما كتبه في الليلة السابقة وبدأ بكتابة فقرة جديدة عندما قرع أحدهم الباب ثلاث مرات.

ـ ادخل.

كان القادم هو صاحب صالة السينما. رجل قصير، شاحب، ذقنه جيدة الحلاقة، ويحمل سيماء من حلت به فاجعة. كان يرتدي ملابس كتانية بيضاء لا تشوبها شائبة، وينتعل حذاء ذا لونين. أشار إليه الأب أنخل أن يجلس على الكرسي الهزاز، ولكنه أخرج منديلاً من جيب بنطاله، وفرده بدقة، ثم نفض به الغبار عن المقعد، وجلس مباعداً بين ساقيه. ولاحظ الأب أنخل عندئذ أن ما يحمله في حزامه ليس مسدساً وإنما هو مصباح يدوي.

ـ إنني رهن إشارتك ـ قال الأب.

فقال صاحب السينما بلا حماس تقريباً:

ـ اعذرني يا أبتاه لتدخلي في شؤونك، ولكن لابد أن ثمة خطأ الليلة.

أومأ الأب برأسه وواصل الإصغاء. فتابع صاحب السينما:

ـ إنه فيلم صالح لجميع الأعمار. وأنت نفسك أقررت بذلك يوم الأحد.

حاول الأب أن يقاطعه، ولكن صاحب السينما رفع يده مشيراً إل أنه لم ينته، وقال:

ـ لقد وافقتك على مسألة قرع الأجراس لأن هناك أفلاماً لا أخلاقية بالفعل. أما هذا الفيلم فليس فيه شيء خاص. وقد فكّرت في عرضه في الفترة المخصصة للأطفال يوم السبت.

عندئذ شرح له الأب أنخل بأن الفلم ليس مذكوراً بالفعل في قائمة التقويم الأخلاقي التي يتلقاها بالبريد كل شهر، وتابع:

ـ لكن مجرد فتح السينما اليوم هو إهانة، لأن هناك ميتاً في البلدة. وهذا جزء من الأخلاق أيضاً.

نظر إليه صاحب السينما وهتف:

ـ لقد قتلت الشرطة نفسها في العام الماضي رجلاً في السينما، وما إن أخرجوا الميت حتى تابعنا عرض الفيلم.

ـ الأمر مختلف الآن، فالعمدة رجل متقلب ـ قال الأب.

رد صاحب السينما ساخطاً:

ـ عندما يأتي موعد الانتخابات تعود المذابح. فدائماً، مذ أصبحت البلدة بلدة، يحدث الشيء نفسه.

ـ سنرى ـ قال الأب.

تفحصه صاحب السينما بنظرة حزينة. وعندما تكلم من جديد، وهو ينفض قميصه ليهوّي صدره، صارت لصوته رنّة تضرع:

ـ إنه ثالث فيلم صالح لجميع الأعمار يصلنا هذه السنة. ويوم الأحد بقي منه ثلاثة أجزاء لم نتمكن من عرضها بسبب المطر، ومعظم الناس يريدون رؤية نهايته اليوم.

ـ لقد قرعت النواقيس وانتهى الأمر ـ قال الأب.

أطلق صاحب الصالة زفرة يأس. وانتظر متأملاً الكاهن، ولكن دون أن يفكر في الحقيقة بشيء آخر سوى الحر الشديد في المكتب.

ـ لا سبيل لعمل أي شيء إذاً؟

هز الأب أنخل رأسه.

ضرب صاحب الصالة كفيه على ركبتيه ونهض قائلاً:

ـ لا بأس. لا يمكننا عمل شيء.

أعاد طي المنديل، وجفف العرق عن عنقه وتفحص المكتب بمرارة.

ـ إن الجو جحيم هنا ـ قال.

رافقه الأب حتى الباب. ثم عاد وجلس لينهي الرسالة. وبعد أن قرأها مرة أخرى من بدايتها، أنهى الفقرة التي لم يتمها ثم توقف مفكراً. وفي هذه اللحظة توقفت الموسيقى المنبعثة من مكبر الصوت في صالة السينما، وانطلق صوت غامض يقول: «نعلن للجمهور الكريم أن العرض قد ألغي اليوم، لأن هذه المؤسسة أيضاً تريد المشاركة في الحداد». تعرف الأب أنخل، وهو يبتسم، على صوت صاحب المؤسسة.

صار الحر أشد وطأة. وتابع الكاهن الكتابة، متوقفاً وقفات قصيرة لمسح العرق وقراءة ما كتبه، إلى أن ملأ ورقتين. وانتهى من التوقيع عندما هطل المطر مدراراً بصورة مفاجئة. ودخلت إلى الحجرة رائحة تراب رطب. فكتب الأب أنخل على المغلف، وأغلق دواة الحبر واستعد لطي الرسالة. لكنه أعاد قبل ذلك قراءة الفقرة الأخيرة. وعندها نزع غطاء دواة الحبر من جديد وكتب حاشية إضافية: *إنها تمطر من جديد. إن هذا الشتاء، إضافة إلى الأمور التي ذكرتها أعلاه، يجعلني أوقن أن أياماً مريرة تنتظرنا.*

هـلّ يـوم الجمعـة دافئـاً وجافـاً. والقاضـي أركـاديو الـذي كـان يفاخر بأنه يمارس الحب ثلاث مرات كل ليلة منذ مارسه أول مـرة، قطع فـي ذلك الصباح حبال الكلّة وسقط على الأرض مع امرأته فـي لحظة النشوة، وهما متشابكان بخيوط الكلّة.

همست:

ـ دعها هكذا، وسأصلحها أنا فيما بعد.

خرجا عاريين تماماً من متاهة الكلّة المتشابكة. ومضى القاضي أركاديو نحو الصندوق بحثاً عن سروال داخلي نظيف، وعندما رجع كانت امرأته تصلح الكلّة بعد أن ارتدت ملابسها. مـرّ بجانبها دون أن ينظر إليها، وجلس على الجانب الآخـر من السرير ليلبس حذاءه، بينما تنفسه لا يزال مضطرباً من أثر ممارسة الحب. لحقت به، وأسندت بطنها المكور المشدود إلى ذراعه وبحثت عن أذنه بأسنانها، فأبعدها عنه برفق، وقال:

ـ دعيني هادئاً.

أطلقت ضحكة مشحونة بالصحة الوافرة، ولحقت برجلها إلى الجانب الآخر من الحجرة وهي تداعبه بإبهامها عند كليتيه، وتقول: «هرّ أيها الحمار الصغير». قام بقفزة مفاجئة وأبعد يدها عن جسده. فتركته لحاله وعادت تضحك، ولكنها اكتست فجأة بالجدية.

ـ يا يسوع؟ ـ صرخت.

ـ ماذا جرى؟ سألها.

ـ لقد كان الباب مشرعاً تماماً ـ صاحت ـ هذه قلة حياء ما بعدها.

ودخلت إلى الحمام منفجرة بالضحك.

لم ينتظر القاضي أركاديو لتناول القهوة. خرج إلى الشارع منتعشاً بطعم النعناع الذي في معجون الأسنان. الشمس كانت نحاسية، وكان السوريون يجلسون أمام أبواب متاجرهم يتأملون النهر الهادئ. ولدى مروره أمام عيادة الدكتور خيرالدو حك بأظفاره الشبكة المعدنية التي تغطي الباب، وصرخ دون أن يتوقف:

ـ ما هو أفضل علاج لآلام الرأس يا دكتور؟

فأجاب الطبيب من الداخل:

ـ أن لا تكون قد شربت ليلاً.

في الميناء، كانت جماعة من النساء يتحدثن بصوت مرتفع عن مضمون منشور جديد عُلق في الليلة السابقة. وبما إن صباح ذلك اليوم أشرق صافياً وبلا مطر، فقد قرأته النساء اللواتي خرجن إلى قداس الساعة الخامسة، وأصبحت البلدة كلها الآن عارفة بأمره. لم يتوقف القاضي أركاديو. أحس كما لو انه ثور مربوط بحلقة من انفه ومشدود نحو صالة البلياردو. وهناك طلب بيرة مثلجة ومسكناً للآلام. دقت الساعة معلنة التاسعة، لكن المحل كان لا يزال غاصاً بالرواد.

قال القاضي أركاديو:

ـ البلدة كلها مصابة بوجع الرأس.

حمل الزجاجة إلى طاولة عليها ثلاثة رجال تبدو عليهم الحيرة قبالة كؤوس البيرة، وجلس في المكان الفارغ. وسألهم:

ـ أما زالت هذه المشاكل مستمرة؟

ـ أربعة هذا الصباح.

وقال أحد الرجال:

ـ الذي قرأه الجميع هو الخاص براكيل كونتريراس.

مضغ القاضي أركاديو قرص المسكّن ثم جرع البيرة من الزجاجة مباشرة. أثارت الجرعة الأولى اشمئزازه، لكن معدته تماسكت بعد ذلك وأحس بأنه إنسان جديد بلا ماض.

- وماذا فيه؟

فقال الرجل:

- نذالات. وأن الرحلات التي قامت بها هذه السنة لم تكن لتلبيس أسنانها كما ادعت هي، وإنما للإجهاض.

فقال القاضي أركاديو:

- ما كان عليهم أن يجهدوا أنفسهم بوضع منشور، فالجميع يقولون هذا في كل مكان.

على الرغم من أن الشمس الساطعة سببت له آلاماً في أعماق عينيه عند مغادرته المحل، إلا أنه لم يكن يشعر حينئذ بالتوعك المضطرب الذي شعر به عند الفجر. مضى من فوره إلى دار القضاء، واستقبله هناك سكرتيره الهرم الضامر، وكان ينتف ريش دجاجة، بنظرة مرتابة من فوق إطار نظارته.

- ما هذه المعجزة؟

- لابد من تسيير الأمور - قال القاضي.

خرج السكرتير إلى الفناء وهو يجرجر خفيه، وأعطى الدجاجة نصف المنتوفة، من فوق السور، لطاهية الفندق. جلس القاضي أركاديو إلى منضدة مكتبه لأول مرة بعد أحد عشر شهراً من تسلمه مهام منصبه.

كان المكتب غير المرتب مقسوماً إلى قسمين بحاجز من الخشب. في القسم الخارجي يوجد مقعد، من الخشب أيضاً، تحت لوحة تمثل العدالة معصوبة العينين وتحمل في يدها ميزاناً. أما في

القسم الداخلي، فكانت هناك منضدتان متقابلتان، ورف عليه كتب يغطيها الغبار، والآلة الكاتبة. وعلى الجدار، فوق منضدة القاضي، ثمة صليب نحاسي. وعلى الجدار المقابل صورة في إطار لرجل باسم، سمين وأصلع، صدره موشح بوشاح الرئاسة، وتحت الصورة كُتبت بحروف مذهبة عبارة: «سلام وعدالة»، وكانت هذه الصورة هي الشيء الجديد الوحيد في المكتب.

تلثم السكرتير بمنديل وأخذ ينفض الغبار عن المنضدتين بمنفضة من الريش. قال للقاضي: «إذا لم تغط أنفك ستصاب بالزكام». لم تجد النصيحة أذناً صاغية. فقد أسند القاضي أركاديو جسده إلى الكرسي الدوار، وراح يشد قدميه ليجرب متانة النوابض.

تساءل قائلاً:

- ألا ينهار؟

أشار السكرتير برأسه نافياً. ثم قال: «عندما قتلوا القاضي بيتيلا، طارت النوابض. لكن الكرسي أعيد إصلاحه الآن». ثم أضاف دون أن ينزع اللثام عن وجهه:

ـ لقد بعث العمدة نفسه الكرسي للتصليح عندما تغيرت الحكومة وبدأ محققون مختصون بالخروج إلى كل مكان.

- العمدة يريد لهذا المكتب أن يمارس مهامه - قال القاضي.

فتح درج المنضدة الأوسط، وأخرج حفنة من المفاتيح، وأخذ يسحب الأدراج واحداً بعد الآخر. كانت كلها ممتلئة بالأوراق. تفحصها تفحصاً سطحياً وهو يرفعها بسبابته ليتأكد من أنه ليس ثمة ما يستدعي اهتمامه، ثم أغلق الأدراج ورتب الأدوات الموجودة على المنضدة: دواة حبر زجاجية تضم محبرة حمراء وأخرى زرقاء، وريشة لكل محبرة، مع لونها المناسب. لكن الحبر كان جافاً تماماً.

ـ العمدة معجب بك ـ قال السكرتير.

تابعه القاضي بنظرة ساهية وهو يهتز في كرسيه ويمسح مسند اليدين. وتأمله السكرتير بإمعان، كأنه ينوي عدم نسيانه أبداً تحت ذلك الضوء وفي تلك اللحظة وذاك الوضع، ثم قال وهو يشير إليه بسبابته:

ـ هكذا، مثلما أنت الآن، بلا زيادة ولا نقصان، كان يجلس القاضي بيتيلا عندما مزقوه بالرصاص.

تحسس القاضي الأوردة البارزة في صدغيه. لقد عاودته آلام الرأس من جديد.

ـ أنا كنت هناك ـ تابع السكرتير، مشيراً باتجاه الآلة الكاتبة، بينما هو يمشي إلى خارج الحاجز، ودون أن يقطع روايته، أستند إلى مسند الحاجز مسدداً منفضة الغبار باتجاه القاضي أركاديو كما لو أنها بندقية، فبدا كقطاع الطرق الذين يهاجمون عربات البريد في أفلام رعاة البقر، وقال:

ـ هكذا وقف رجال الشرطة الثلاثة. ولم يكد القاضي بيتيلا يراهم ويرفع يديه ليقول لهم ببطء شديد: «لا تقتلوني»، حتى طار الكرسي على الفور إلى ناحية والقاضي إلى الناحية الأخرى، وهو مدروز بالرصاص.

ضغط القاضي أركاديو جمجمته بيديه. كان يشعر بدماغه ينبض. نزع السكرتير اللثام وعلّق المنفضة وراء الباب، وقال: «وكل ذلك لأنه قال في إحدى سكراته إنه موجود هنا ليضمن نزاهة الانتخابات». ثم وقف حائراً ينظر إلى القاضي أركاديو الذي انحنى على المنضدة وهو يضع يديه على معدته.

ـ أانت مريض؟

أجاب القاضي بنعم. وحدثه عن الليلة السابقة وطلب منه أن يأتيه بقرص مسكن وزجاجتي بيرة مثلجتين من صالة البلياردو. عندما انتهى من تناول زجاجة البيرة الأولى لم يعد القاضي يشعر بأدنى اثر من المعاناة في قلبه. كان صاحياً.

جلس السكرتير أمام الآلة الكاتبة، وسأل:

- والآن، ماذا نفعل؟

- لا شيء - قال القاضي.

- إن كنت تسمح لي إذن، فإنني سأذهب إلى ماريا لأساعدها في نتف الدجاجات.

اعترض القاضي قائلاً: «هذا مكتب لتصريف شؤون العدالة، وليس لنتف الدجاج». وتفحص مرؤوسه من أعلى إلى أسفل بنظرة حانية، ثم أضاف:

- وعليك أن ترمي هذا الخف أيضاً، وتأتي إلى المكتب بحذاء.

أصبح الحر اشد حدّة مع اقتراب الظهيرة. وعندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة، كان القاضي أركاديو قد استهلك دزينة من زجاجات البيرة. وكان يبحر في الذكريات. ويتحدث، بينما هو يغالب النعاس، عن ماض بلا حرمان، وعن أيام آحاد طويلة حيث البحر والخلاسيات الشهوانيات اللواتي يمارسن الحب وهنّ واقفات وراء بوابات البيوت. ويقول: «الحياة كانت هكذا في ذلك الحين»، ويفرك إصبعه السبابة بالإبهام، أمام الوجوم الوديع للسكرتير الذي يستمع إليه دون تعليق، مبدياً الموافقة بحركات من رأسه. كان القاضي يحس بأنه مخدر، لكن حيويته في استحضار الذكريات تزداد شيئاً فشيئاً.

عندما دقت ساعة البرج معلنة الثانية، أبدى السكرتير أمارات فقدان الصبر، وقال:

ـ سيبرد الحساء.

لم يسمح له القاضي بالنهوض، وقال له: «لا يمكن الالتقاء دائماً برجل موهوب في هذه الأرياف». شكره السكرتير المنهوك بفعل الحر، وغيّر من وضعية جلوسه على الكرسي. كان يوم جمعة بلا نهاية. وتحت صفائح السقف، تبادل الرجلان الحديث لنصف ساعة أخرى بينما البلدة تُطهى في حساء القيلولة. وفي ذروة الإنهاك، لَمّح السكرتير إلى قضية المنشورات، فهز القاضي أركاديو كتفيه، وقال رافعاً الكلفة أول مرة:

ـ وأنت مهتم أيضاً بهذه الحماقة؟

لم تكن لدى السكرتير رغبة في متابعة الحديث، فالجوع والحر الخانق قد أضنياه، لكنه لم يقتنع بأن المنشورات ليست إلا حماقة. فقال: «ها قد سقط الميت الأول. وإذا ما استمرت الأمور على هذه الحال، فستواجهنا فترة عصيبة». ثم روى قصة قرية أبيدت عن بكرة أبيها في سبعة أيام بسبب المنشورات. إذ انتهى الأمر بأهلها إلى قتل بعضهم بعضاً. ومن بقي منهم على قيد الحياة، نبش عن عظام موتاه، وحملها معه ليضمن أنه لن يعود أبداً.

استمع القاضي إليه وقد اكتسى وجهه بملامح السخرية، وكان يفك أزرار قميصه على مهل، بينما الآخر يتكلم. وفكر في أن السكرتير يهوى قصص الرعب. فقال له:

ـ إن هذا الذي ترويه هو مسألة بسيطة جداً، تصلح موضوعاً لرواية بوليسية.

هز المرؤوس رأسه. وروى له القاضي أركاديو أنه انتسب وهو في الجامعة إلى جمعية تهتم بحل الألغاز البوليسية. كان كل عضو من أعضائها يقرأ رواية تتضمن لغزاً إلى أن يصل إلى عقدة ما، ثم

يجتمعون أيام السبت لحل اللغز، «لم أخطئ مرة واحدة في حلّ اللغز» قال، ثم تابع: «كانت تساعدني في ذلك بالطبع معرفتي بالكلاسيكيين الذين اكتشفوا منطقاً للحياة قادراً على النفاذ إلى أي سرّ». ثم طرح لغزاً: رجل يسجل نفسه في فندق في الساعة العاشرة ليلاً، ويصعد إلى غرفته. وفي صباح اليوم التالي تجده الجرسونة التي تحمل إليه القهوة ميتاً ومتعفناً في السرير. ويثبت تشريح الجثة أن النزيل الذي وصل إلى الفندق في الليلة السابقة كان ميتاً منذ ثمانية أيام.

اعتدل السكرتير محدثاً طقطقة طويلة من مفاصله، وقال:

- هذا يعني أنه كان ميتاً منذ سبعة أيام عند وصوله إلى الفندق.

وقال القاضي أركاديو متجاهلاً المقاطعة:

- لقد كُتبت هذه القصة منذ اثنتي عشرة سنة، لكن الحبكة قدمها هيراقليط، قبل خمسة قرون من ميلاد المسيح.

تهيأ لكشف السر، لكن السكرتير كان حانقاً، «لم يُعرف أبداً، مذ كانت الدنيا هي الدنيا، من الذي يلصق المنشورات». أصدر حكمه بشيء من العدوانية. فتأمله القاضي أركاديو بعينين زائغتين، وقال:

- أراهنك بأني أستطيع اكتشافه.

- موافق على الرهان.

❖ ❖ ❖

كانت ريبيكا دي آسيس تختنق في غرفة النوم الحارة في البيت المقابل، وهي تدفن رأسها في الوسادة محاولة نوم قيلولة مستحيلة. وكانت تضع أوراقاً خضراء مبخرة على صدغيها.

توجهت إلى زوجها قائلة:

ـ روبرتو، سنموت من الحر إذا لم تفتح النافذة.

فتح روبرتو آسيس النافذة في اللحظة التي كان فيها القاضي أركاديو يغادر مكتبه.

ـ حاولي النوم ـ رجا المرأة الممتلئة الراقدة وذراعاها مفتوحان تحت الكلّة ذات الخيوط الوردية، وهي عارية تماماً تحت قميص نوم شفاف من النايلون، وتابع قائلاً:

ـ أعدك بألا أعود لتذكر أي شيء.

وأطلقت المرأة زفرة عميقة.

إن روبرتو آسيس الذي أمضى الليل وهو يذرع غرفة النوم، ويشعل سيجارة من عقب أخرى دون أن يستطيع النوم، كان على وشك أن يفاجئ مُلصق المنشورات في فجر ذلك اليوم. فقد سمع أمام بيته صرير الورق وصوت احتكاك اليدين وهما تحاولان تثبيت المنشور على الجدار. لكنه أدرك الأمر متأخراً، وكان المنشور قد أُلصق عندما فتح النافذة، وكانت الساحة مقفرة.

منذ تلك اللحظة وحتى الساعة الثانية بعد الظهر، عندما وعد زوجته بألا يعود إلى تذكر المنشور، كانت هي قد استنفدت جميع أشكال الإقناع في محاولة تهدئته. ثم اقترحت عليه في نهاية المطاف حلاً بائساً، إذ أبدت استعدادها، كدليل أخير على براءتها، للاعتراف أمام الأب أنخل بصوت عالٍ في حضور زوجها. لقد كان مجرد تقديم هذا الاقتراح المهين كافياً. وعلى الرغم من انبهاره، إلا أنه لم يجرؤ على الخطوة التالية، وكان لابد له من الاستسلام.

قالت له دون أن تفتح عينيها:

ـ من الأفضل المصارحة في الأمور دائماً. فلو أنك أخفيت السر لوقعت كارثة دون شك.

أغلق الباب عند خروجه. وسمع في البيت الرحب، والمغلق تماماً، أزيز مروحة أمه التي كانت تنام في البيت المجاور. سكب كأساً من الليمونادة الموجودة في الثلاجة وهو يقف تحت نظرات الطاهية الزنجية الناعسة. سألته المرأة ببرودها المعهود إن كان يريد تناول الغداء. فرفع غطاء القدر: سلحفاة بحرية كاملة كانت تطفو على ظهرها في الماء الذي يغلي. ولأول مرة لم يرتعش لفكرة أن الحيوان قد أُلقي به في القدر حياً، وأن قلبه سيستمر بالخفقان عندما سيحملونه مقطعاً إلى المائدة.

قال وهو يغطي القدر:

ـ لست جائعاً.

ثم أضاف وهو عند الباب:

ـ والسيدة لن تتناول الغداء كذلك، لقد أمضت النهار بطوله وهي تعاني صداعاً في رأسها.

كان البيتان متصلين بممر مرصوف ببلاط أخضر، ومنه يمكن رؤية خمّ الدجاج المصنوع من شبكة معدنية في أقصى الباحة المشتركة. وفي الجهة التابعة لبيت الأم من الممر، كانت هناك عدة أقفاص للطيور معلقة بالإفريز، وعدد كبير من الأصص فيها زهور نفاذة الروائح.

استقبلته ابنته ذات السبعة أعوام بتحية متثاقلة وهي لا تزال على أريكة الاستلقاء، حيث استيقظت للتو من قيلولتها. كانت آثار مواضع خياطة القماش لا تزال مطبوعة على وجنتها.

ـ الساعة تقارب الثالثة ـ قال لها بصوت خافت. ثم أضاف بصوت كئيب ـ: حاولي الانتباه إلى الأمور.

فقالت الطفلة:

ـ لقد حلمت بقطٍ بلوري.

لم يستطع السيطرة على رعشة انتابته.

ـ وكيف كان؟

فقالت الطفلة وهي تحاول أن تعطي بيديها شكل الحيوان الذي رأته في منامها.

ـ كله من البلور، مثل عصفور بلوري، ولكنه قط.

رأى نفسه تائهاً، تحت شمس الظهيرة، في مدينة غريبة. فهمس لها: «انسي هذا»، ثم أضاف: «أمر كهذا لا يستحق الذكر». وفي هذه اللحظة رأى أمه أمام باب غرفة نومها، وأحس بأنه قد نجا.

قال لها مؤكداً:

ـ إنك أفضل حالاً.

أبدت الأرملة آسيس سيماء المرارة، وبينما هي تعقص شعرها الغزير الذي له لون الحديد، قالت شاكية: «كل يوم أتحسن لكي أدلي بصوتي في الانتخابات». ثم خرجت إلى الممر كي تبدّل الماء الذي في الأقفاص.

انهار روبرتو آسيس على الأريكة حيث كانت تنام ابنته. أسند رقبته بكفيه ولاحق بعينيه الذاويتين المرأة. وعندما انتهت من الأقفاص، أقبلت الأرملة آسيس إلى ابنها مترددة وقالت:

ـ كنت أظن أنك في الجبل.

ـ لم أذهب. كان عليّ إنجاز بعض الأعمال ـ قال.

ـ لن تذهب إذن حتى يوم الاثنين.

غمز بعينيه موافقاً. واجتازت خادمة زنجية حافية الصالة ومعها الطفلة لتوصلها إلى المدرسة. أشارت الأرملة إلى ابنها فتبعها إلى غرفة النوم الرحبة حيث أزيز المروحة الكهربائية. ألقت بنفسها على

كرسي هزاز من الخيزران، قبالة المروحة، بحركة من الإعياء المفرط. ومن الجدران المطلية بالجير الأبيض كانت تتدلى صور أطفال قدماء في أطر من النحاس. تمدد روبرتو آسيس على السرير الفخم الذي مات عليه، هرماً وكدراً، عدد من الأطفال المعلقة صورهم على الجدران، بمن فيهم أبوه نفسه الذي مات في كانون الأول الماضي.

- ماذا جرى؟ - سألته الأرملة.

- هل تصدقين ما يقوله الناس؟ - سألها بدوره.

- في مثل سني يجب تصديق كل شيء. - أجابت الأرملة، ثم سألت باسترخاء -: وما الذي يقولونه؟

- إن ربيبكا إيزابيل ليست من صلبي.

أخذت الأرملة تتأرجح على الكرسي الهزاز، وقالت: «إن لها أنفاً كأنوف آل آسيس». وبعد أن فكرت هنيهة، سألته وهي ساهمة: «من الذي يقول ذلك؟». قضم روبرتو آسيس أظفاره:

- لقد ألصقوا منشوراً.

حينئذ فقد أدركت الأرملة أن الزرقة التي تحيط بعيني ابنها لم تكن بسبب الأرق الطويل. فقالت بنبرة جازمة:

- المنشورات ليست هي الناس.

وقال روبرتو آسيس:

- ولكنها لا تقول إلا ما يتداوله الناس. حتى لو كان المعنيُّ لا يعرف الأمر.

لكن الأرملة كانت تعرف كل ما قالته القرية عن أسرتها خلال سنوات طويلة. ففي بيت كبيتها، يعج بالخادمات، والبنات بالعماد والمحميات من كل الأعمار، يستحيل عليها الاعتصام في غرفة النوم دون أن تلاحقها إلى هناك شائعات الشارع. فآل آسيس

المشوشين الذين أسسوا القرية مذ كانوا مجرد مربي خنازير، يبدون وكأن دمهم محبب للإشاعة. وقالت:

- ليس كل ما يقال صحيحاً، حتى لو كان المرء يعرفه.

فقال:

- الجميع يعرفون أن روساريو دي مونتيرو كانت تضاجع باستور. وأن أغنيته الأخيرة عنها.

- الجميع يقولون ذلك، ولكن ليس هناك من هو متأكد منه. وبالمقابل، فقد أصبح معروفاً للجميع الآن أن أغنيته كانت عن مارغوت راميريث. كانا ستيزوجان، ولم يعلم بذلك أحد سواهما وسوى أم باستور. ولو أنه لم يتكتم بغيرة على هذا السر الوحيد الذي أمكن إخفاءه عن القرية لكان في ذلك خير له.

نظر روبرتو آسيس إلى أمه بخفة مأساوية وقال: «لقد ظننت في إحدى اللحظات، هذا الصباح، بأنني سأموت». لم يبدُ على الأرملة أنها تأثرت، وقالت:

- آل آسيس غيورون، وهذه هي المصيبة الكبرى في هذا البيت.

ظلا صامتين لفترة طويلة. اقتربت الساعة من الرابعة وبدأ الحر يخف. وعندما أطفأ روبرتو آسيس المروحة الكهربائية، كان البيت كله يستيقظ ويمتلئ بأصوات الناس وتغريد الطيور.

قالت الأرملة:

- أعطني زجاجة الدواء الموجودة على الكوميدينو.

تناولت قرصين رماديين مكورين كلؤلؤتين اصطناعيتين، وأعادت الزجاجة إلى ابنها قائلة: «تناول قرصين، سيساعدانك على النوم». تناولهما مع الماء الذي تركته أمه في الكأس، وأسند رأسه إلى الوسادة.

تنهدت الأرملة وصمتت مفكرة. بعد ذلك، قالت شاملة القرية كلها بكلامها، مثلما تفعل دائماً عندما تتحدث عن الأسر الست التي تؤلف طبقتها:

ـ السيئ في هذه القرية هو أنه على النساء أن يبقين وحيدات في البيوت بينما الرجال في الجبل.

بدأ روبرتو آسيس يغفو، ولاحظت الأرملة حنكه الذي بلا حلاقة، وأنفه الطويل ذا الغضاريف الحادة، وفكرت في زوجها الميت. لقد عرف أداليبرتو آسيس اليأس كذلك. كان عملاقاً جبلياً، وضع ياقة حول عنقة لخمس عشرة دقيقة فقط في حياته كلها. وذلك ليلتقط الصورة التي مازالت على الكوميدينو تحيي ذكراه. ويُحكى عنه أنه قتل في هذه الحجرة بالذات رجلاً وجده مضطجعاً مع زوجته، وأنه دفنه سراً في باحة البيت. ولكن الحقيقة ليست كذلك: إذ إن أداليبرتو قد قَتَل بطلقة من بندقيته قرداً فاجأه يستمني وراء دعامة غرفة النوم وعيناه مصوبتان إلى زوجته، بينما هذه تقوم باستبدال ملابسها. لقد مات بعد أربعين سنة من ذلك دون أن يتمكن من تصحيح تلك الأسطورة.

❖ ❖ ❖

صعد الأب أنخل على السلم المائل ذي الدرجات المنفصلة عن بعضها بعضاً. وفي الطابق الثاني، في نهاية الممر، ما بين البنادق وأحزمة الرصاص المعلقة على الجدار، كان ثمة رجل من رجال الشرطة يقرأ وهو منبطح على سرير عسكري. كان مستغرقاً في القراءة لدرجة أنه لم ينتبه لقدوم الأب إلا عندما سمع التحية. فطوى المجلة واعتدل جالساً في السرير.

سأله الأب أنخل:

ـ ماذا تقرأ؟

فأراه الشرطي المجلة:

ـ *تيري والقراصنة*.

تفحص الأب بنظرة متواصلة زنازين الإسمنت المسلح الثلاث التي بلا نوافذ، والمقفلة من جهة الممر بعوارض حديدية ثخينة. في الزنزانة الوسطى كان ينام شرطي آخر بسرواله الداخلي، مباعداً ما بين ساقيه في شبكة نوم معلقة. الزنزانتان الأخريان كانتا فارغتين. سأل الأب أنخل عن ثيسر مونتيرو. فأشار الشرطي برأسه نحو باب مقفل وقال:

ـ إنه هناك. في غرفة الملازم.

ـ أيمكنني التحدث إليه؟

ـ ممنوع الاتصال به ـ قال الشرطي.

لم يُلّح الأب أنخل. وسأل عما إذا كان السجين بحالة جيدة. فرد الشرطي بأنهم خصصوا له أفضل حجرة في الثكنة، وهي مجهزة بإضاءة جيدة وبماء عادي، ولكنه لم يتناول طعاماً منذ أربع وعشرين ساعة. فقد رفض تناول الأطعمة التي طلبها العمدة من الفندق.

وأضاف الشرطي:

ـ إنه يخشى أن يسمموه.

ـ كان عليكم أن تعملوا لإحضار الطعام من بيته ـ قال الأب.

ـ لا يريد إزعاج زوجته.

ودمدم الأب كأنه يحدث نفسه: «سأتكلم حول هذا كله مع العمدة». وعندما أخذ يتقدم نحو نهاية الممر، حيث شيد العمدة مكتبه المصفح. قال له الشرطي:

ـ العمدة غير موجود. منذ يومين لم يغادر بيته. إنه يعاني ألماً في أضراسه.

ذهب الأب أنخل ليعوده. وجده جالساً في شبكة النوم، بجانب كرسي عليه إبريق ماء مملح، وعلبة أقراص مسكنة، وحزام الرصاص مع المسدس. وكانت وجنته لا تزال متورمة. سحب الأب أنخل كرسياً إلى جانب شبكة النوم، وقال:

- اقلعه.

أفلت العمدة جرعة الماء المالح في المبولة وقال: «من السهل قول هذا». بينما كان رأسه لا يزال متدلياً فوق المبولة. أدرك الأب أنخل ما يعنيه. فقال بصوت خافت جداً:

- إذا أنت خولتني، فإنني مستعد للحديث إلى طبيب الأسنان - ثم أخذ نفساً عميقاً وتجرّا على أن يضيف -: إنه رجل متفهم.

فقال العمدة:

- كبغل. يجب أن أهشمه بالرصاص، وسنبقى مع ذلك على ما نحن عليه.

تابعه الأب بعينيه حتى المغسلة. فتح العمدة الصنبور، ووضع وجنته المتورمة تحت دفقة الماء البارد وأبقاها هكذا برهة، في ما بدت عليه علائم الغيبوبة. مضغ بعد ذلك قرصاً مسكناً ثم شرب ماء الصنبور، وكان يوصله إلى فمه براحة يده.

قال الأب بإلحاح:

- أقول بجد، يمكنني أن أحدث طبيب الأسنان.

قام العمدة بحركة تعبّر عن نفاد صبره وقال:

- افعل ما تشاء يا أبتاه.

استلقى في أرجوحة النوم على ظهره وقد أغمض عينيه، ووضع كفيه على عنقه، بينما كان يتنفس بإيقاع محموم. بدأ الألم يتراجع. وعندما فتح عينيه من جديد، كان الأب أنخل يتأمله بصمت، وهو جالس إلى جانب شبكة النوم.

ـ ما جاء بك إلى هذه الأرض؟ ـ سأله العمدة.

وقال الأب دون مقدمات:

ـ ثيسر مونتيرو. هذا الرجل بحاجة لأن يعترف.

ـ ممنوع الاتصال به. ـ قال العمدة ـ غداً، بعد إجراء التحقيقات الأولية، يمكنك مقابلته لتلقي اعترافه. وعلينا أن نرسله يوم الاثنين.

ـ إنه معتقل منذ ثمان وأربعين ساعة ـ قال الأب.

ـ وأنا بهذه الضرس منذ أسبوعين ـ قال العمدة.

بدأت بعض حشرات البعوض تطن في الحجرة المظلمة. ونظر الأب من النافذة فرأى سحابة لها لون وردي فاقع تطفو فوق النهر.

ـ ومشكلة الطعام؟ ـ سأل.

نزل العمدة من أرجوحة النوم ليغلق باب الشرفة وقال: «أنا قمت بواجبي»، ثم أضاف: «لا يريدهم أن يزعجوا زوجته ولم يقبل طعام الفندق». أخذ يرش مبيداً للحشرات في الغرفة. وبحث الأب أنخل عن منديل في جيبه كيلا يعطس، لكنه بدلاً من المنديل وجد رسالة. «آي»، هتف وهو يحاول تمسيد الرسالة بأصابعه. توقف العمدة عن الرش. وغطى الأب أنفه، ولكن دون جدوى.. إذ عطس مرتين. «اعطس يا أبتاه»، قال له العمدة، ثم أضاف باسماً:

ـ فنحن في ديمقراطية.

ابتسم الأب أنخل كذلك. ثم قال، وهو يعرض المغلف: «لقد نسيت وضع هذه الرسالة في البريد». عثر على المنديل في كمه، فنظف أنفه الذي هيجه مبيد الحشرات، وتابع التفكير في ثيسر مونتيرو، وقال:

ـ كأنكم تقيمون أوده بالخبز والماء.

فقال العمدة:

ـ إذا كانت هذه هي رغبته فلن نستطيع حشوه بالطعام رغم أنفه.

ـ أكثر ما يهمني هو مسألة ضميره ـ قال الأب.

ودون أن يرفع المنديل عن أنفه، لاحق العمدة بنظره إلى أن انتهى هذا من الرش، وقال: «لابد أن ضميره ليس مرتاحاً ما دام يخشى أن يسمموه». وضع العمدة مضخة المبيد الحشري على الأرض، وقال:

ـ إنه يعرف أن الجميع كانوا يحبون باستور.

وردّ الأب:

ـ ويحبون ثيسر مونتيرو كذلك.

ـ لكن المصادفة شاءت أن يكون باستور هو الميت.

تأمل الأب الرسالة. كان الضوء قد شحب. ودمدم: «باستور. لم يتسع له الوقت للاعتراف». أضاء العمدة النور قبل أن يلقي بنفسه في أرجوحة النوم، وقال:

ـ غداً ستكون حالتي أفضل. وبعد التحقيق يمكنك مقابلته لتلقي الاعتراف. أترى ذلك مناسباً؟

أبدى الأب أنخل موافقته، وقال بإلحاح: «كل هذا من أجل راحة روحه فقط». نهض واقفاً بحركة وقورة. ونصح العمدة بألا يتناول مزيداً من المسكنات. وردّ عليه العمدة مذكراً إياه بألا ينسى الرسالة. ثم قال له:

ـ وأمر آخر يا أبتاه. حاول على كل حال أن تكلم قالع الأضراس.

ونظر إلى الكاهن الذي بدأ بنزول الأدراج، وأردف مبتسماً:

ـ كل هذا يساهم في تمتين السلام.

كان موظف البريد جالساً أمام مكتبه يراقب موت المساء.

وعندما أعطاه الأب أنخل الرسالة، دخل إلى المكتب، وبلل بلسانه طابعاً من فئة الخمسة عشر سنتافو، للبريد الجوي، وطابع الإعمار، وتابع البحث في درج المنضدة. عندما أضيئت أنوار الشارع، وضع الأب عدة قطع نقدية معدنية على المنضدة وخرج دون أن يودع.

تابع الموظف تفتيش الدرج. وبعد لحظة، حين تعب من تقليب الأوراق، كتب بالحبر على زاوية المغلف: لا توجد طوابع من فئة الخمسة. ثم وقّع تحت الكتابة ووضع خاتم المكتب.

❖ ❖ ❖

في تلك الليلة، وبعد انتهاء القداس، وجد الأب أنخل جرذاً ميتاً في حوض الماء المقدس. كانت ترينيداد تنصب المصايد في موضع التعميد. فأمسك الأب بالحيوان من طرف ذيله وقال لترينيداد وهو يهز أمامها الجرذ الميت:

ـ ستتسببين في وقوع كارثة. الا تعلمين أن بعض المؤمنين يملؤون زجاجات من الماء المقدس ويقدمونه شراباً لمرضاهم.

فتساءلت ترينيداد:

ـ وماذا في ذلك؟

ورد الأب:

ـ وتسألين ماذا في ذلك؟ لا شيء سوى أن المرضى سيتناولون ماء مقدساً ممزوجاً بالزرنيخ.

ذكرته ترينيداد بأنه لم يعطها النقود بعد لشراء الزرنيخ. وقالت: «إنه جبس»، وكشفت له عن المعادلة: لقد نثرت الجبس في زوايا الكنيسة، فأكله الجرذ، وبعد دقيقة من ذلك، مضى وقد أمضّه العطش، ليشرب من الحوض. وهنا صلّبَ الماءُ الجبسَ في معدته.

قال الأب:

ـ على كل حال، من الأفضل أن تأخذي نقوداً لشراء الزرنيخ. لا أريد مزيداً من الجرذان الميتة في الماء المقدس.

كانت تنتظره في المكتب لجنة من السيدات الكاثوليكيات، برئاسة ريبيكا دي آسيس. وبعد أن أعطى ترينيداد النقود لشراء الزرنيخ، تحدث الأب عن الجو الحار في الغرفة، ثم جلس إلى منضدة العمل، قبالة السيدات الثلاث اللاتي التزمن الصمت.

ـ إني رهن إشارتكن يا سيداتي المبجلات.

تبادلن النظرات فيما بينهن. وعندئذ فتحت ريبيكا دي آسيس مروحة مزينة بمنظر ياباني، وقالت دون مواربة:

ـ إنها مسألة المنشورات يا أبتاه.

وبصوت متدرج، كما لو أنها تروي خرافة طفولية، عرضت حالة الذعر التي تسود القرية. وقالت بالرغم من أنه يجب تفسير موت باستور «كقضية شخصية بحتة»، إلا أن العائلات المحترمة تشعر أنها مدعوة للاهتمام بأمر المنشورات.

وكانت أدالخيسا مونتويّا، أكبر السيدات الثلاث سناً، أكثر وضوحاً. إذ قالت وهي تستند إلى قبضة مظلتها:

ــ لقد قررنا، نحن سيدات المجتمع الكاثوليكيات، اتخاذ موقف من القضية.

فكر الأب أنخل خلال ثوان قصيرة. تنهدت ريبيكا دي آسيس بعمق، وتساءل الأب كيف يمكن لتلك المرأة أن تعبق برائحة دسمة كهذه. كانت رائعة ومتوددة، لها بياض باهر وصحة حارة. تكلم الأب ونظره معلق في نقطة غير محددة.

ـ أعتقد أن من واجبنا عدم الالتفات إلى صوت الفضيحة. علينا

الوقوف فوق مسالكها، والتمسك بقانون الرب كما فعلنا حتى الآن.

وافقت أدالخيسا مونتويّا بحركة من رأسها. لكن الأخريات لم يوافقن؛ لأنهن يرين أنه «يمكن لهذه المصيبة، على المدى البعيد، أن تأتي بنتائج مشؤومة». وفي هذه اللحظة عطس مكبر الصوت في صالة السينما. فضرب الأب أنخل بكفه على جبهته. «بعد إذنكن»، قال لهن، وراح يبحث في درج المنضدة عن فهرس الرقابة الكاثوليكية.

- ما هو فيلم اليوم؟

- *قراصنة الفضاء* - قالت ريبيكا دي آسيس، وأضافت -: إنه فيلم حربي.

بحث الأب أنخل حسب الترتيب الأبجدي، وهو يهمس بمقاطع من أسماء الأفلام بينما إصبعه السبابة تمر بسرعة على قائمة التصنيف الطويلة. وتوقف عندما قلب الورقة:

- *قراصنة الفضاء*.

ثم سار بإصبعه أفقياً ليبحث عن التصنيف الأخلاقي للفيلم، في ذات اللحظة التي سمع فيها صوت صاحب دار السينما بدلاً من أسطوانة الموسيقى المنتظرة، يعلن عن إلغاء العرض بسبب رداءة الطقس. وأوضحت واحدة من النسوة هذا الأمر بأن صاحب السينما قد اتخذ القرار لأن الجمهور يطالب باسترداد نقوده إذا ما تسببت الأمطار بقطع العرض قبل الاستراحة.

قال الأب أنخل:

- هذا مؤسف. إنه فيلم صالح لجميع الأعمار.

أغلق السجل وتابع:

- كما قلت، هذه قرية محافظة. فمنذ تسع عشرة سنة، عندما أوكل إلي أمر الأبرشية، كان يوجد أحد عشر بيتاً للمحظيات

العامات تديرها عائلات مهمة. واليوم بقي بيت واحد منها فقط، وأنتظرُ أنه لن يستمر طويلاً.

فقالت ريبيكا دي آسيس:

- لسنا نعني أنفسنا، وإنما هؤلاء الناس المساكين.

وتابع الأب أنخل، غير عابئ بالمقاطعة:

- لا يوجد مسوغ للقلق. يجب أن نرى كيف تغيرت هذه القرية. في ذلك الزمن، أتت راقصة روسية وقدمت في حلبة صراع الديكة استعراضاً للرجال فقط، وفي نهايته باعت في مزاد علني كل ما كانت ترتديه على جسدها.

قاطعته أدالخيسا مونتويّا قائلة:

- هذا صحيح.

فهي تذكر في الحقيقة تلك الفضيحة كما رووها لها: عندما أصبحت الراقصة عارية تماماً، بدأ رجل مسن بالصراخ في المدرج، ثم صعد إلى الصف العلوي الأخير وبال على الجمهور. وقد رووا لها أن الرجال الآخرين - مقتدين بالمثل - أخذوا يبولون على بعضهم البعض وسط صراخ مجنون.

وتابع الأب:

- لقد أصبح ثابتاً الآن أن هذه القرية هي أكثر قرى الولاية الرسولية تديناً.

وشدد على هذا الطرح، مشيراً إلى بعض اللحظات الصعبة في نضاله ضد مظاهر الضعف والانهيار البشري، إلى أن لم تعد توليه السيدات الكاثوليكيات اهتماماً بسبب الحر الخانق. أعادت ريبيكا دي آسيس فتح مروحتها، وعندها اكتشف الأب أنخل أين كان مصدر العطر.

تجمدت رائحة الصندل في حرارة الصالة. وسحب الأب المنديل من كمه ورفعه إلى أنفه ليمنع نفسه من العطاس، وتابع يقول:

- وكنيستنا، في الوقت نفسه، هي أفقر كنيسة في الولاية. فالنواقيس مهترئة والجدران ممتلئة بالجرذان، لأني أنفقت حياتي في ترسيخ الأخلاق والعادات الحميدة.

فك زر العنق. «العمل المادي يستطيع القيام به أي كاهن شاب»، قال وهو ينهض واقفاً، ثم أضاف: «أما بناء الأخلاق فهو بحاجة إلى سنوات عديدة من المثابرة، وإلى خبرة طويلة». رفعت ريبيكا دي آسيس يدها الشفافة وبدا فيها خاتم الزواج مدعماً بخاتم آخر من الزمرد، وقالت:

- ولهذا الأمر بالذات، فكرنا في أن هذه المنشورات ستجعل عملك كله هباء.

المرأة الوحيدة التي احتفظت بالصمت حتى ذلك الحين، استغلت الفرصة لتتكلم:

- وإضافة إلى ذلك، فكرنا في أن البلاد قد بدأت تسترد استقرارها، وفاجعة كهذه ربما تكون غير مواتية.

بحث الأب أنخل عن مروحة في الخزانة وأخذ يهوي بها برصانة.

- إنهما قضيتان لا علاقة لإحداهما بالأخرى - قال -. لقد اجتزنا مرحلة سياسية صعبة، ولكن الأخلاق الأسريّة لم تُمس.

وطرح ما يفكر فيه أمام السيدات الثلاث: «بعد بضع سنوات، سأذهب إلى رئيس أساقفة الولاية لأقول له: ها أنا أترك لك هنا قرية مثالية. وما عليك الآن إلا أن تبعث بشاب فتي وجسور ليبني أفضل كنيسة في الولاية».

أحنى راسه قليلاً وهتف:

- وعندئذ سأذهب إلى بيت أجدادي لأموت قرير العين.

اعترضت السيدات. وعبرت أدالخيسا مونتويّا عن الشعور العام:

- هذه القرية هي قريتك يا أبتاه. ونحن مصممون على بقائك هنا حتى اللحظة الأخيرة.

وقالت ريبيكا دي آسيس:

- إذا كانت القضية هي بناء كنيسة جديدة، فبإمكاننا بدء الحملة منذ الآن.

فرد الأب أنخل:

- كل شيء في وقته.

ثم أضاف بنبرة مختلفة: «لا أريد حالياً الوصول إلى الشيخوخة وانا على راس أية أسقفية. ولا أريد أن يصيبني ما أصاب الراعي أنطونيو إيسابيل دل سانتيسمو ساكرامينتو ديل التار كاستانيدا أي مونتيرو، الذي بعث إلى المطران بأن مطراً من عصافير ميتة يهطل في أبرشيته. فوجده مبعوث المطران الذي جاء للتحقق من الأمر، يلعب في ساحة القرية مع الأطفال لعبة عسكر وحرامية».

أبدت السيدات دهشتهن:

- من هو؟

فقال الأب أنخل:

- إنه الكاهن الذي خلفته في ماكوندو. كان عمره مئة سنة.

الشتاء الذي كان بالإمكان إدراك قسوته منذ الأيام الأخيرة من شهر أيلول، انهال بكل شدته في نهاية ذلك الأسبوع، وقد أمضى العمدة يوم الأحد كله وهو يمضغ المسكنات في سريره المعلق، بينما فاض النهر إلى أقصى مداه ملحقاً الأضرار بالأحياء الواطئة.

عندما توقف المطر أول مرة، في فجر يوم الاثنين، احتاجت القرية لعدة ساعات كي تعود إلى استقرارها. ومنذ الصباح الباكر، فتحت صالة البلياردو ودكان الحلاقة أبوابهما، ولكن معظم البيوت ظلت مغلقة حتى الساعة الحادية عشرة. وقد أُتيحت للسيد كارميتشيل الفرصة ليكون أول من يهتز أمام مشهد الرجال الذين ينقلون بيوتهم إلى أرض أكثر ارتفاعاً. مجموعات صاخبة انتزعت أعمدة البيوت الخشبية وراحت تنقل الجدران المصنوعة من القصب والطين والسقوف التي من السعف.

وقف السيد كارميتشيل على رصيف صالون الحلاقة، فاتحاً المظلة، وكان يراقب العملية التي تجري بنشاط عندما أخرجه الحلاق من شروده.

- كان عليهم أن ينتظروا إلى أن يتوقف المطر - قال الحلاق.

فقال السيد كارميتشيل وهو يغلق المظلة:

- لن يتوقف قبل يومين. هذا ما تخبرني به الثآليل.

مر الرجال الذين ينقلون البيوت وهم يصطدمون بجدران صالون الحلاقة، وقد غاصوا في الوحل حتى كواحلهم. ورأى السيد

كارميتشيل، من خلال النافذة في البيت المهدم غرفة نوم معراة تماماً من حميميتها، وأحس كما لو أن كارثة تنقض عليه.

كان الوقت يبدو كأنه السادسة صباحاً، لكن معدته أشارت له بأن الساعة تقارب الثانية عشرة. ودعاه موسى السوري ليجلس في دكانه ريثما ينقطع المطر، فأطلق السيد كارميتشيل تكهنه بأن المطر لن يتوقف خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة. ترنح قبل أن يقفز إلى الرصيف المجاور. وقذف بعض الصبيان الذين كانوا يلعبون لعبة الحرب، كرةً من الطين التصقت بالجدار، على بعد أمتار قليلة من بنطاله المكوي حديثاً. فخرج إلياس السوري من دكانه حاملاً بيده بندقية صيد، وراح يتوعد الصبيان بخليط من العربية والإسبانية.

تقافز الصبية مبتهجين وهم يصرخون:

- تركي باذنجاني.

تأكد السيد كارميتشيل من أن بنطاله لم يتلوث. وعندئذ أغلق المظلة ودخل إلى صالون الحلاقة، واتجه مباشرة إلى الكرسي.

- لقد كنت أقول دائماً إنك رجل حكيم - قال الحلاق.

عقد له منشفة حول عنقه. استنشق السيد كارميتشيل رائحة ماء الخزامى التي تثير فيه الكآبة نفسها التي تثيرها فيه رائحة الأبخرة الجليدية في عيادة طبيب الأسنان. بدأ الحلاق بقص الشعر الذي على الرقبة. وبحث السيد كارميتشيل بعينيه عن شيء يقرؤه.

- ألا توجد صحف؟

ورد الحلاق دون أن يتوقف عن عمله:

- لم تبق في البلد سوى الصحف الرسمية، وهي نوع من الصحف لن يدخل هذا المحل ما دمتُ حياً.

اكتفى السيد كارميتشيل بتأمل حذائه المشقق إلى أن سأله

الحلاق عن أرملة مونتيل. كان قادماً من بيتها. فهو المشرف على أعمالها منذ وفاة تشيبي مونتيل، كما كان يعمل في مسك دفتر حسابات هذا الأخير طوال سنوات عديدة.

- إنها هنا - قال.

فقال الحلاق كمن يحدث نفسه:

- يقتل أحدنا نفسه كي يعيش، بينما تملك هي وحدها أراض لا يمكن اجتيازها على حصان في خمسة أيام. لا بد أنها تملك عشرة أقضية.

- ثلاثة - قال كارميتشيل. ثم أردف مقتنعاً بما يقول:

- إنها أطيب امرأة في العالم.

اتجه الحلاق نحو المنضدة لينظف المشط. ورأى السيد كارميتشيل وجهه الذي يشبه وجه جدي منعكساً في المرآة، وأدرك مرة أخرى لماذا لا يقدره. تحدث الحلاق وهو ينظر إلى الصورة:

ـ تجارة رائعة: حزبي في السلطة، والشرطة تهدد خصومي السياسيين بالموت، وانا أشتري أراضيهم ومواشيهم بالسعر الذي أفرضه أنا نفسي.

أحنى السيد كارميتشيل رأسه. وتابع الحلاق قص الشعر من جديد، ثم أضاف: «عندما تنتهي الانتخابات، أكون قد أصبحت مالكاً لثلاثة أقضية، ولا وجود لمنافسين أمامي، وهكذا أظل ممسكاً بالمقلاة من ذراعها حتى لو تغيرت الحكومة. أقول لك: إنها أفضل تجارة.. أفضل من تزييف النقود».

قال السيد كارميتشيل:

- لقد كان خوسيه مونتيل ثرياً قبل أن تبدأ الأعمال السياسية.

فقال الحلاق:

ـ تعني عندما كان يجلس بسرواله الداخلي أمام باب مشغل قشر الأرز. إن التاريخ يشير إلى أنه لبس أول حذاء في قدميه منذ تسع سنوات.

قال السيد كارميتشيل:

ـ وحتى لو كان الأمر كذلك، فالأرملة لم تكن لها أية علاقة بأعمال مونتيل التجارية.

ـ لكنها تتظاهر بالبلاهة ـ قال الحلاق.

رفع السيد كارميتشيل رأسه. وحل المنشفة عن عنقه ليسهل دوران دمه. وقال معترضاً: «لهذا السبب كنتُ أفضل دائماً أن تقص زوجتي لي شعري. فهي لا تتقاضى مني أجراً، إضافة إلى أنها لا تحدثني بالسياسة». دفع له الحلاق رأسه إلى الأمام، وتابع عمله بصمت. وكان في بعض الأحيان يطقطق بالمقص في الهواء ليفرغ فائضاً من المهارة اليدوية. سمع السيد كارميتشيل صراخاً في الشارع، فتطلع في المرآة. كان هناك أطفال ونساء يمرون أمام الباب حاملين أثاث بيوتهم وأمتعتهم.

فعلق بحنق:

ـ المصائب تأكلنا بينما أنتم لا تزالون على أحقادكم السياسية. منذ سنوات توقفت الملاحقات ومازلت تتحدث عن الموضوع نفسه.

فقال الحلاق:

ـ العزلة التي جعلونا نعيشها هي اضطهاد أيضاً.

ـ لكنهم لا يضربوننا بالهراوى ـ قال السيد كارميتشيل.

ـ التخلي عنا وتركنا لمصيرنا هي طريقة أخرى للضرب بالهراوى.

فقال السيد كارميتشيل ساخطاً:

ـ هذا من أدبيات الصحف.

اعتصم الحلاق بالصمت. دعك الرغوة في صحن الحلاقة ثم دهنها بالفرشاة على رقبة السيد كارميتشيل، وقال معتذراً: «يكاد المرء منا أن ينفجر من أجل التحدث إلى أحد. ثم إنه لا يأتينا رجل محايد في كل يوم».

فقال السيد كارميتشيل:

- حين يكون على المرء أن يطعم أحد عشر ابناً، فلا بد له من أن يكون محايداً.

- إني أوافقك الرأي - قال الحلاق.

مرّ بموسى الحلاقة على راحة يده، وحلق له شعر رقبته بصمت. كان يمسح الصابون بأصابعه، ثم ينظف أصابعه ببنطاله. بعد ذلك مسح له رقبته بقطعة من حجر الشب. وانتهى وهو صامت.

وبينما كان يزرر عنق قميصه، رأى السيد كارميتشيل الإعلان المعلق على الجدار الداخلي: «ممنوع التكلم بالسياسة». نفض الشعيرات العالقة على كتفيه، وعلق المظلة بذراعه، وسأل مشيراً إلى اللوحة المكتوبة:

- لماذا لا تنزعها؟

فقال الحلاق:

- إنها لا تعنيك أنت. فنحن متفقان على أنك رجل محايد.

لم يترنح السيد كارميتشيل هذه المرة ليقفز إلى الرصيف. تأمله الحلاق إلى أن انعطف عند المنحنى، وبعدها نظر ذاهلاً إلى النهر العكر والمتوعد. كان المطر قد توقف، لكن غيمة قاتمة كانت ثابتة فوق القرية. وقبيل الساعة الواحدة بقليل، دخل موسى السوري متأففاً، لأن الشعر يتساقط من رأسه، وينمو بالمقابل على كتفيه بسرعة غريبة.

كان السوري معتاداً قص شعره كل يوم اثنين. وكان من عادته أن يدلي رأسه فوق صدره كميت ويأخذ بالشخير بالعربية بينما الحلاق يتحدث إلى نفسه بصوت عال. ومع ذلك، فقد استيقظ في يوم الاثنين ذاك مفزعاً من السؤال الأول:

- أتعرف من الذي كان هنا؟

- كارميتشيل - قال السوري.

فأكد الحلاق كأنه يتهجى العبارة:

- الزنجي البائس كارميتشيل. إنني أمقت هذا الصنف من الرجال.

فقال موسى السوري:

- كارميتشيل ليس رجلاً. فمنذ ثلاث سنوات تقريباً لم يشتر زوجاً واحداً من الأحذية. ولكنه في السياسة يفعل ما يجب عمله: إنه ينظم الحسابات وهو مغمض العينين.

أسند ذقنه إلى صدره ليبدأ الشخير من جديد، لكن الحلاق انتصب أمامه وهو متقاطع الذراعين، وقال له: «قل لي أيها التركي: مع من أنت في النهاية؟».

- مع نفسي - أجاب السوري دون أن يطرأ عليه أي تغيير.

فقال الحلاق:

- أنت مخطئ. عليك ألا تنسى على الأقل أضلاع ابن مواطنك إلياس الأربعة التي هُشمت لحساب تشيبي مونتيل.

فقال السوري:

- إلياس مستاء جداً لأن ابنه مال إلى السياسة. لكن الفتى يرقص سعيداً الآن في البرازيل، وأما تشيبي مونتيل فمات.

❖ ❖ ❖

قبل أن يغادر الحجرة الغارقة في الفوضى بسبب ليالي الألم الطويلة، حلق العمدة الجانب الأيمن من ذقنه، وترك على الجانب الأيسر لحيته التي لم يحلقها منذ ثمانية أيام. ارتدى البدلة العسكرية النظيفة. وانتعل الجزمة ذات الكعب ونزل ليتناول الغداء في الفندق منتهزاً الهدنة التي منحها المطر للبلدة.

لم يكن يوجد في صالة الطعام أحد. شق العمدة طريقه بين الموائد المجهزة كل منها لأربعة أشخاص واحتل المكان الأكثر انزواء في طرف القاعة، ونادى:

- ماسكاراس.

هرعت شابة صغيرة السن، ترتدي فستاناً قصيراً ومحكماً على جسدها، وفي صدرها نهدان صلبان كالحجارة. طلب العمدة الغداء دون أن ينظر إليها. وأثناء عودتها إلى المطبخ، أدارت الفتاة جهاز الراديو الموضوع على رف في أقصى المطعم. بث الجهاز نشرة أخبار، مع فقرات من خطاب ألقاه رئيس الجمهورية في الليلة السابقة، ثم قائمة بالمواد الجديدة الممنوع استيرادها. وبينما كان صوت المذيع يهيمن أكثر فأكثر، كان الحر يصبح أشد زخماً. وحين رجعت الفتاة وهي تحمل الحساء، كان العمدة يحاول وقف تعثره في استخدام قبعته كمروحة.

قالت الفتاة:

- المذياع يجعلني أتعرق أيضاً.

بدأ العمدة بتناول الحساء. وكان قد فكر في أن هذا الفندق المنعزل الذي يستمر بالعمل بفضل رجال الشرطة الذين يمرون به في سفرهم، هو مكان مختلف عن بقية القرية. فعلى شرفته الخشبية غير المتناسقة كان التجار الذين يأتون من مدن الداخل لشراء

محصول الأرز، يمضون الليل وهم يلعبون الورق، بانتظار برودة الفجر كي يتمكنوا من النوم. كما أن الكولونيل أوريليانو بوينديا الذي كان في طريقه إلى ماكوندو ليوافق على بنود معاهدة إنهاء الحرب الأهلية الأخيرة، نام ليلة على تلك الشرفة، في حقبة لم تكن توجد فيها قرى في دائرة يبلغ قطرها عدة فراسخ حول الفندق. وكان البناء حينذاك هو المبنى الحالي نفسه، بجدرانه الخشبية وسقفه الذي من التوتياء، والمطعم كان هو نفسه، والتقسيمات الكرتونية التي تفصل بين الغرف كانت هي نفسها أيضاً؛ لكنه كان حينذاك بلا نور كهربائي وبلا خدمات صحية فقط. ويروي شرطي رحالة عجوز أنه في أوائل القرن الحالي كانت تُعلق في قاعة الطعام مجموعة من الأقنعة الموضوعة تحت تصرف الزبائن، وأن النزلاء المقنعين كانوا يقضون حاجتهم في الفناء، على مرأى من الجميع.

كان على العمدة أن يحل الأزرار التي حول عنقه لينتهي من تناول الحساء. وبعد نشرة الأخبار، بدأ المذياع يبث إعلاناً منظوماً شعراً. وتلته أغنية عاطفية عن رجل ذي صوت منعنع يموت حباً، وقد صمم على أن يلف العالم وراء امرأة. أولى العمدة اهتمامه للأغنية، بينما كان ينتظر بقية الطعام، إلى أن رأى طفلين يمران أمام الفندق وهما يحملان كرسيين هزازين، ووراءهما امرأتان ورجل يحملون قدوراً وصفائح وبقية المتاع.

خرج إلى الباب صارخاً:

ـ من أين سرقتم هذه الأشياء؟

توقفت المرأتان. وشرح له الرجل بأنهم ينقلون البيت إلى أرض أكثر ارتفاعاً. سألهم العمدة إلى أين نقلوه، وأشار الرجل بقبعته جهة الجنوب:

ـ هناك فوق، على أرض أجرنا إياها دون ساباس بثلاثين بيزو.

تفحص العمدة الأثاث: كرسي هزاز مخلع، وقدور مهترئة... متاع أناس فقراء. فكر للحظة، وقال أخيراً:

ـ احملوا هذه الأشياء وكل متاعكم إلى الأرض الخلاء التي قرب المقبرة.

استولى الذهول على الرجل. فقال له العمدة:

ـ إنها أرض تابعة للبلدية ولن تكلفكم شيئاً. البلدية تهديها إليكم.

ثم اتجه إلى المراتين، واضاف: «واخبروا دون ساباس بأني أقول له ألا يكون لصاً».

انتهى من تناول الغداء دون أن يتلذذ بمذاق الطعام. ثم أشعل بعدها سيجارة أخرى من عقب الأولى، وظل ساهماً لفترة طويلة، مسنداً مرفقيه إلى المنضدة، بينما المذياع يجتر أغنيات عاطفية.

ـ بماذا تفكر؟ ـ سألته الفتاة وهي ترفع الأطباق الفارغة.

لم يطرف للعمدة رمش.

ـ بهؤلاء المساكين.

وضع القبعة على رأسه واجتاز الصالة. ثم التفت وهو عند الباب ليقول:

ـ لابد أن نجعل من هذه القرية شيئاً لائقاً.

قطعت عليه طريقه، وهو عند المنعطف، مناوشة بين مجموعة من الكلاب. ورأى عقد فقرات ظهرية وقوائم دابة وسط عاصفة النباح، ثم رأى أسناناً حادة وكلباً يسحب إحدى القوائم واضعاً ذيله بين قائمتيه الخلفيتين. ابتعد العمدة جانباً، وتابع سيره على الرصيف نحو مركز الشرطة.

كانت هناك امرأة تصرخ في الزنزانة، بينما الحارس ينام القيلولة منبطحاً على سرير عسكري ضيق. ضرب العمدة قائمة السرير بقدمه، فاستيقظ الحارس قافزاً.

ـ من هي هذه؟ ـ سأله العمدة

فتأهب الحارس:

ـ إنها المرأة التي تلصق المنشورات.

فصرخ العمدة:

ـ فلتخرج هي وليدخل أحدكم مكانها إذاً. لأن هذه المرأة كانت نائمة هنا في الزنزانة بينما استيقظت القرية وجدرانها ممتلئة بالمنشورات.

وما إن فُتحت البوابة الحديدية الثقيلة، حتى خرجت المرأة من الزنزانة. كانت امرأة ناضجة، عظامها بارزة ولها جديلة طويلة مثبتة بمشط زينة.

ـ انصرفي.. إلى الجحيم ـ قال لها العمدة.

أفلتت المرأة غديرة شعرها، ولوحت بالشعر المفلت الطويل والغزير عدة مرات، ثم هبطت السلم مثل حيوان جامح وهي تصرخ: «عاهرة، عاهرة». انحنى العمدة على الشرفة، وصاح بأعلى صوته، كأنه لا يريد أن تسمعه المرأة ورجاله وحسب، وإنما القرية بأسرها:

ـ كفى إثارة المشاكل لي بهذه المنشورات.

❖ ❖ ❖

على الرغم من استمرار رذاذ المطر بالهطول، فقد خرج الأب أنخل اليوم بجولته المسائية. كان الوقت لا يزال مبكراً على موعده مع العمدة، وهكذا مضى نحو القطاع الذي اجتاحته الفيضانات. ولم يجد سوى جثة قط تطفو بين الأزهار.

عندما رجع، كان المساء قد أخذ بالجفاف، وأصبح أكثر توتراً وبريقاً، وكان هناك مركب شحن صغير مطلي بطبقة من القار، ينحدر في النهر اللزج والهادئ. خرج طفل من بيت شبه مهدم وهو يصيح بأنه قد وجد البحر داخل قوقعة. فأمسك الأب أنخل بالقوقعة وأدناها من أذنه، وفعلاً، هناك كان البحر.

كانت امرأة القاضي أركاديو تجلس أمام بيتها كأنها في غيبوبة، بينما ذراعاها تتقاطعان على بطنها وعيناها تنظران إلى المركب الصغير. على مسافة ثلاثة بيوت من بيتها تبدأ المتاجر، حيث تُعرض الحلي الرخيصة ويجلس السوريون أمام الأبواب. كان المساء يحتضر في غيوم متوردة كثيفة وفي هياج الببغاوات والقردة على الضفة المقابلة.

بدأت البيوت تفتح أبوابها، واجتمع الرجال في مجموعات لتبادل الأحاديث تحت أشجار اللوز المتسخة في الساحة، وحول عربات المرطبات أو على مقاعد الغرانيت المتآكلة. وفكر الأب في أن القرية تمر كل مساء، في مثل هذا الوقت، بمعجزة التجلي.

- هل تتذكر السجناء في معسكرات الاعتقال يا أبتاه؟

لم ير الأب أنخل الدكتور خيرالدو، لكنه تخيله يبتسم من وراء النافذة المغطاة بشبكة معدنية. لم يتذكر الصور في الحقيقة، لكنه متأكد من أنه رآها في إحدى المرات.

قال الطبيب:

- ألق نظرة على صالة الانتظار.

دفع الأب أنخل الباب المغطى بشبكة معدنية، ورأى هناك مخلوقاً ممدداً على حصيرة، لم يستطع تحديد جنسه. كانت عظامه الجرداء مغطاة كلها بجلد أصفر. وإلى جانب الباب هناك رجلان

وامرأة ينتظرون جالسين. لم يشم الأب أنخل أية رائحة، ولكنه فكر في أن ذلك الكائن يعبق دون شك برائحة كريهة زخمة.

ـ من يكون؟ ـ قال متسائلاً.

ـ إنه ابني ـ ردت المرأة.

ثم أضافت وكأنها تعتذر:

ـ منذ سنتين وهو يتغوط برازاً مختلطاً بالدم.

أدار المريض عينيه باتجاه الباب، دون أن يحرك راسه. وأحس الأب بشفقة مرعبة. فسأل:

ـ وماذا فعلتم له؟

قالت المرأة:

ـ منذ زمن ونحن نقدم له موزاً أخضر، لكنه لا يرغب فيه، مع أنه يساعد على الشدّ.

ـ عليك إحضاره ليعترف ـ قال الأب.

لكنه قال ذلك دون قناعة. أغلق الباب بهدوء وحك بظفره الشبكة المعدنية للنافذة، وقرّب وجهه ليرى الطبيب في الداخل. كان الدكتور خيرالدو يهرس شيئاً في الهاون.

ـ ما به؟ ـ سأل الأب.

فأجاب الدكتور:

ـ لم أفحصه بعد.

ثم علق وهو ساهم:

ـ إنها أمور تصيب الناس بإرادة الرب يا أبتاه.

لم يول الأب اهتماماً لهذا التعليق، وقال:

ـ لم تكن أمارات الموت تبدو على أي من الموتى الذين رأيتهم بالوضوح الذي تبدو فيه على هذا الفتى المسكين.

حيا الطبيب مودعاً وانصرف. لم تكن هناك مراكب راسية في الميناء. بدأ الظلام يخيم، وأحس الأب أنخل أن حالته المعنوية قد تبدلت بعد رؤيته المريض. حث الخطى باتجاه مركز الشرطة عندما انتبه فجأة إلى أنه بدأ يتخلف عن موعده.

كان العمدة يجلس منهوكاً على أحد الكراسي التي تُطوى، وقد أمسك برأسه بين كفيه.

ـ مساء الخير ـ قال الأب ببطء شديد.

رفع العمدة رأسه، واهتزت صورة الأب أمام عينيه الحمراوين من اليأس. كان أحد خديه نظيفاً وحليقاً، أما الآخر فكان طويل الشعر ومغطى بمرهم له لون الرماد.

هتف بأنّة صماء:

ـ سأطلق رصاصة على نفسي يا أبتاه.

شعر الأب أنخل ببعض الأسى، وقال:

ـ إنك تسمم نفسك بالمسكنات الكثيرة التي تتناولها.

سار العمدة مجرجراً قدميه نحو الجدار، وضرب رأسه بعنف بالحائط الخشبي وهو يمسك شعره بكلتا يديه. لم يشهد الأب أنخل في حياته ألماً مبرحاً كهذا. فقال وكأنه يقترح، وهو واع، وسيلة لخلاصه:

ـ تناول قرصين آخرين. فقرصان آخران من المسكنات لن يسببا الموت.

لم يكن متبلداً أمام الألم البشري وحسب، بل وكان يعي أنه كذلك. بحث ببصره عن المسكنات في فراغ الصالة العاري. كانت هناك بمحاذاة الجدار ستة كراسٍ من الجلد ليس لها مساند للظهر، وخزانة بواجهة زجاجية مملوءة بأوراق مغبرة، وصورة لرئيس

الجمهورية معلقة بمسمار. والأثر الوحيد المتبقي من المسكنات هو عبوات السيلوفان المبعثرة على الأرض.

ـ أين هي؟ ـ قال يائساً.

فقال العمدة:

ـ لم تعد تؤثر فيّ.

اقترب الكاهن منه وكرر: «قل لي أين هي». أشار العمدة بحركة عنيفة من يده، ورأى الأب حينئذ وجهاً عظيماً ومروعاً على بعد سنتمترات قليلة من عينيه.

ـ اللعنة. لقد قلت إنني لا أريد إزعاجاً ـ صرخ العمدة.

ثم رفع كرسياً إلى ما فوق راسه والقى به بكل قوة يأسه نحو الواجهة الزجاجية. لم يدرك الأب أنخل ما جرى إلا بعد تحطم الزجاج. وعندئذ بدأ العمدة يبرز كطيف هادئ من وسط سحابة الغبار. وساد في هذه اللحظة صمت تام.

ـ أيها الملازم ـ همس الأب.

وأمام باب الممر كان الحراس يقفون وبنادقهم مهيأة. نظر العمدة إليهم دون أن يراهم، وهو يتنفس كقط، فأخفضوا بنادقهم؛ لكنهم ظلوا متيبسين إلى جانب الباب. قاد الأب أنخل العمدة من ذراعه إلى الكرسي القابل للطي. وقال له بإصرار:

ـ أين المسكنات؟

أغمض العمدة عينيه وألقى برأسه إلى الوراء، وقال: «لن أتناول هذه القذارة بعد الآن. إن أذنيّ تطنان وعظام جمجمتي قد تخدرت». وعندما توقف الألم هنيهة، أدار رأسه نحو العمدة وسأله:

ـ هل تحدثت إلى قالع الأسنان.

رد الأب بإيجاب وهو صامت. ومن الملامح التي بدت على وجهه بعد الإجابة أدرك العمدة نتيجة المقابلة.

اقترح عليه الأب:

ـ لماذا لا تتحدث مع الدكتور خيرالدو؟ هناك أطباء عاديون يقلعون الأضراس أيضاً.

تأخر العمدة قبل أن يجيب: «سيقول إنه لا يملك كماشة». ثم أضاف:

ـ إنها مؤامرة.

استغل توقف الألم ليستريح من ذلك المساء الذي لا يرحم. وعندما فتح عينيه كانت الغرفة غارقة في الظلام. فقال، دون أن يرى الأب أنخل:

ـ أنت حضرت من أجل ثيسر مونتيرو.

لم يسمع جواباً. فتابع: «لم استطع عمل شيء وأنا بهذه الآلام». نهض ليشعل النور، فدخلت موجة الذباب الأولى من خلال الشرفة.

عانى الأب أنخل من قلق الساعة، وقال:

ـ إن الوقت يمر.

فقال العمدة:

ـ يجب أن نرسله يوم الأربعاء على أي حال. غداً نتخذ الإجراءات اللازمة، وفي المساء تأتي إليه لتتلقى اعترافاته.

ـ في أي ساعة؟

ـ الساعة الرابعة.

ـ حتى لو كانت تمطر؟

أفرغ العمدة في نظرة واحدة كل الجزع المكبوت في صدره منذ أسبوعين:

ـ حتى لو كان العالم ينتهي يا أبتاه.

❖ ❖ ❖

أصبح الألم أكبر من أن تؤثر فيه المسكنات. فعلق العمدة أرجوحة النوم على شرفة غرفته محاولاً النوم في برودة أول الليل. لكنه هُزم قبل الساعة الثامنة مرة أخرى أمام اليأس، فنزل إلى الساحة الهاجعة في موجة شديدة من الحر.

وبعد أن طاف في الجوار دون أن يجد الأمل الذي يحتاج إليه للتغلب على الألم، دخل إلى صالة السينما. وكان هذا تصرفاً خاطئاً. فأزيز الطائرات الحربية ضاعف من وتيرة الألم. وقبل الاستراحة غادر الصالة، ووصل إلى الصيدلية في اللحظة التي كان يستعد فيها دون موسكوتي لإغلاق الأبواب.

ـ أعطني أقوى ما لديك من الأدوية لألم الأضراس.

تفحص الصيدلي وجنته بنظرة مستغربة. ثم اتجه إلى أقصى المحل بين صفين من الخزائن ذات الأبواب الزجاجية، مترعة تماماً بقوارير فخارية مسجل على كل منها اسم ما تحتويه بحروف زرقاء اللون. وعندما رأى العمدة الصيدلي مولياً إليه ظهره، أحس بأنه يمكن لهذا الرجل ذي الرقبة الممتلئة والمتوردة أن يكون في لحظة من لحظات سعادته. إنه يعرفه. فهو يقيم في غرفتين ملحقتين بالصيدلية، وزوجته البدينة جداً، مصابة منذ عدة سنوات بالشلل.

عاد دون لالو موسكوتي إلى منضدة الكونتوار ومعه قارورة خزفية بلا بطاقة، انطلقت منها عند فتحها رائحة أعشاب حلوة.

ـ ما هذا؟

دسَّ الصيدلي أصابعه بين البذور الجافة في القارورة، وقال: «إنه حب الهيل. يمضغ جيداً، ثم يبتلع الرحيق شيئاً فشيئاً. لا يوجد ما هو أفضل منه لداء المفاصل». ووضع عدة بذور في راحة يده، وقال وهو ينظر إلى العمدة من فوق نظارته:

ـ افتح فمك.

أعرض العمدة عنه. وقلب القارورة ليتأكد من عدم وجود أية لصاقة عليها، ثم عاد يركز نظره على الصيدلي، وقال:

ـ أعطني أي دواء أجنبي.

فقال لالو موسكوتي:

ـ هذا أفضل من أي شيء أجنبي. إنه مكفول بثلاثة آلاف عام من الخبرة الشعبية.

وبدا يصرّ البذور في قصاصة من صحيفة. لم يكن يبدو عليه أنه رب أسرة. كان يبدو خالاً يصرّ حبوب الهيل باهتمام ودود وكأنه يصنع عصفوراً ورقياً للأطفال. وعندما رفع رأسه كان قد بدأ بالابتسام:

ـ لماذا لا تقلعه؟

لم يجبه العمدة. دفع له ورقة نقدية وغادر دون أن ينتظر لاسترداد بقية النقود.

بعد منتصف الليل، كان لا يزال يتلوى على أرجوحة النوم دون أن يجرؤ على مضغ البذور. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، وهي ساعة الحر القصوى، هطل مطر غزير ما لبث أن تحول إلى رذاذ خفيف. وبينما هو منهوك من الحمى، يرتجف ويغطيه عرق لزج وبارد، انقلب العمدة على بطنه في أرجوحة النوم، وفتح فمه وراح يصلي في ذهنه. صلى بعمق، وقد توترت عضلاته في تشنجها الأخير؛ لكنه كان واعياً أنه كلما ألحف في السعي للوصول إلى تواصل مع الرب، كان الألم يدفعه بقوة أكبر في الاتجاه المعاكس. عندئذ انتعل جزمته وارتدى الرداء الواقي من المطر فوق البيجاما، وتوجه إلى الثكنة.

انطلق بالصراخ. فاصطدم رجال الشرطة بعضهم ببعضٍ في الممر وهو يبحثون عن أسلحتهم في العتمة، كالتائهين بين الواقع والكابوس في حقل من أشجار المانغا. وعندما أضيئت الأنوار، كانوا شبه عراة بانتظار الأوامر.

صرخ العمدة:

- غونثاليث، روفيرا، بيرالتا.

انفصل هؤلاء الثلاثة عن الجماعة وأحاطوا بالملازم. لم يكن ثمة سبب واضح يبرر اختياره لهم. كانوا ثلاثة خلاسيين عاديين، لأحدهم ملامح طفولية، وهو حليق الرأس، ويرتدي قميص فانيلا. والاثنان الآخران يرتديان قميصين من النوع نفسه تحت السترة العسكرية مفتوحة الأزرار.

لم يتلقوا أمراً محدداً. قفزوا الدرجات أربعاً فأربع في أثر العمدة، وغادروا الثكنة في رتل، ثم اجتازوا الشارع دون أن يأبهوا برذاذ المطر، وتوقفوا أمام عيادة طبيب الأسنان. وبضربتين قويتين من أعقاب بنادقهم حطموا الباب. كانوا قد أصبحوا داخل البيت عندما أضيئت أنوار البهو، وظهر رجل قصير وأصلع، يرتدي سروالاً قصيراً، من الباب الداخلي، وهو يحاول أن يلف جسده بروب الحمام. وقف مشلولاً للوهلة الأولى وقد رفع إحدى ذراعيه إلى أعلى بينما كان فمه مفتوحاً، مثلما يحدث عادة أمام وميض فلاش المصور. بعد ذلك قفز قفزة إلى الوراء فاصطدم بزوجته التي خرجت من المخدع بقميص نومها. فصرخ العمدة:

- مكانكما.

قالت المرأة «آي» وهي تضع يديها على فمها، وعادت إلى حجرة النوم. واتجه طبيب الأسنان إلى البهو وهو يعقد حزام الروب، وعندئذ فقط تعرف على رجال الشرطة الثلاثة الذين يصوبون بنادقهم نحوه،

وعلى العمدة الذي كان الماء يقطر من جسده كله وهو يقف ساكناً، وواضعاً يديه في جيبي ردائه المطري.

قال الملازم:

ـ إذا خرجت السيدة من غرفة النوم فهناك أمر برميها بالرصاص.

امسك طبيب الأسنان قبضة الباب، وقال متوجهاً إلى الداخل: «ها أنتذا قد سمعت يا بنيتي». ثم أغلق باب حجرة النوم بحركة دقيقة. بعد ذلك سار نحو غرفة عيادته السنية، بين الأثاث الخيزراني الذي تقشر طلاؤه، مخفوراً بعيون البنادق الغائمة. سبقه اثنان من رجال الشرطة إلى باب العيادة. أضاء أحدهما النور، ومضى الآخر مباشرة إلى منضدة العمل، وأخرج مسدساً من الدرج.

ـ لابد من وجود مسدس آخر ـ قال العمدة.

كان قد دخل، وراء طبيب الأسنان، إلى أقصى الغرفة. وقام الشرطيان بعملية تفتيش دقيقة وسريعة، بينما ظل الثالث يحرس الباب. قلبا صندوق الأدوات فوق منضدة العمل، وبعثرا على الأرض قوالب الجبس، ومجموعات أسنان اصطناعية غير منتهية، وأسناناً مفردة، وكرات صغيرة من الذهب، ثم أفرغا القوارير الفخارية الموضوعة على النافذة من محتوياتها، ونزعا أحشاء الوسادة الجلدية التي على كرسي العيادة بطعنات سريعة من حربتي بندقيتهما، وكذلك فعلا بفرشة الكرسي الدوار ذي النوابض.

ـ إنه من مسدس «28 طويل»، وسبطانته طويلة.

قال العمدة محدداً نوع المسدس، ثم أمعن النظر في طبيب الأسنان، وقال له: «من الأفضل أن تخبرنا عن مكانه، فنحن لم نأت لتخريب البيت». لكن عينيّ الطبيب الضيقتين والخامدتين لم تقولا شيئاً من وراء النظارة ذات الإطار الذهبي. وردّ بهدوء:

- لا يوجد أي حرج بالنسبة إلي. وإن كنتم ترغبون فبإمكانكم متابعة تخريبه.

فكر العمدة. وبعد أن تفحص مرة أخرى الحجرة الصغيرة، المبنية من ألواح خشبية غير مصقولة، تقدم نحو الكرسي موجهاً الأوامر الحاسمة لرجاله. أمر أحدهم بالوقوف لحراسة الباب المؤدي إلى الشارع، وآخر عند مدخل العيادة، والثالث إلى جوار النافذة. وعندما استراح على الكرسي، وفك أزرار ردائه المطري المبلل، أحس بأنه محاط بمعادن باردة. أخذ نفساً عميقاً من الهواء العابق برائحة القطران، وأسند جمجمته إلى مسند الرأس، محاولاً تنظيم تنفسه. التقط طبيب الأسنان بعض الأدوات عن الأرض، ووضعها في وعاء ماء ليغليها.

ظل وراء العمدة يتأمل النار الزرقاء المنبعثة من الموقد، بينما اكتسى وجهه بالملامح نفسها التي سيكتسي بها لو كان وحده في العيادة. وعندما غلى الماء، لف ورقة حول مقبض الوعاء وحمله نحو الكرسي. كان الشرطي يقف معرقلاً طريقه. فأنزل طبيب الأسنان الإناء كي يستطيع رؤية العمدة من خلال البخار المتصاعد، وقال له:

- مر هذا القاتل بالوقوف حيث لا يسبب الإزعاج.

وبإشارة من العمدة، ابتعد الشرطي عن النافذة ليفسح الطريق نحو الكرسي. أسند كرسياً إلى الجدار، وجلس مباعداً بين ساقيه، وواضعاً بندقيته فوق فخذيه، دون أن يهمل المراقبة. أضاء طبيب الأسنان المصباح الكهربائي، فأغمض العمدة - وقد بهره الضوء المفاجئ - عينيه، وفتح فمه. كان الألم قد توقّف.

حدد طبيب الأسنان الضرس المصاب مبعداً الوجنة المتورمة بسبابته وموجهاً المصباح الكهربائي المتحرك بيده الأخرى، غير متأثر

بتنفس المريض المضطرب. بعد ذلك شمر كمه حتى المرفق، واستعد لقلع الضرس.

أمسكه العمدة من معصمه قائلاً:

- التخدير.

التقت نظراتهما أول مرة، وقال طبيب الأسنان بعذوبة:

- إنكم تقتلون الناس دون تخدير.

لم يلاحظ العمدة في اليد المشدودة على الزناد أية قوة للتحرر، وقال: «أحضر الأمبولات». وحرك الشرطي المتربص في الركن فوهة البندقية باتجاههما، وسمعا كلاهما من مكانهما عند الكرسي صوت تهيئة البندقية.

فقال طبيب الأسنان:

- افترض انه لا يوجد مخدر.

أفلت العمدة معصم الطبيب وردّ قائلاً: «لابد من وجوده»، ثم أخذ يتفحص الأشياء المبعثرة على الأرض باهتمام كئيب. وراقبه طبيب الأسنان باهتمام مشفق. ثم دفعه نحو مسند الكرسي، وقال مبدياً نفاد صبره لأول مرة:

- كفاك جبناً أيها الملازم، فلا وجود لمخدر ينفع مع هذا الورم.

بعد انقضاء أشقى لحظة في حياته، أرخى العمدة عضلاته المتوترة وظل يجلس منهوكاً على الكرسي، بينما حُفرت العلامات القاتمة التي رسمتها رطوبة السماء الصافية في ذاكرته حتى الموت. أحس بطبيب الأسنان وهو يحرك إبريق الغسل. وأحس به يرتب الصناديق في مواضعها على المنضدة، ويلتقط صامتاً بعض الأشياء عن الأرض.

نادى العمدة قائلاً:

ـ روفيرا. قل لغونثالث أن يدخل واجمعا معاً هذه الأشياء عن الأرض حتى تعيدا كل شيء مثلما كان.

وبينما الشرطيان يفعلان ذلك، ضغط طبيب الأسنان القطن بالملقط، وبلله بسائل له لون الحديد، وغطى به الجرح. أحس العمدة بحرارة سطحية، وبعد أن أطبق له طبيب الأسنان فمه، ظل يركز نظره على السقف الأملس، شارداً بفكره عن الضجة التي يثيرها الشرطيان وهما يعيدان ترتيب العيادة بدقة، معتمدين في ذلك على ذاكرتيهما. دقت ساعة البرج معلنة الثانية. وبعد لحظة من ذلك، أشار العمدة لشرطييه، وقد أدرك أنهما انتهيا، بأن يعودا إلى الثكنة

كان طبيب الأسنان يقف طيلة الوقت إلى جانب الكرسي. وعندما خرج الشرطيون، نزع قطعة من القطن عن اللثة، ثم فحص الفم مستعيناً بالمصباح الكهربائي، بعد ذلك أعاد إطباق الفكين وأبعد الضوء. لقد انتهى كل شيء. وبقي في الحجرة الصغيرة حينئذ ذلك الأسى الغريب الذي لا يعرفه أحد سوى كناسي المسرح بعد خروج آخر الممثلين.

ـ يا لك من جاحد ـ قال العمدة.

ودس الطبيب يديه في جيوب روبه وتراجع خطوة إلى الرواء، ليفسح له الطريق. وتابع العمدة قائلاً: «لدي أمر باقتحام البيت». ثم أضاف وهو يبحث بعينيه عن الطبيب وراء دائرة الضوء: «توجد تعليمات محددة بالبحث عن أسلحة وذخائر ووثائق تتضمن أدق التفاصيل عن مؤامرة على مستوى البلاد». ركز عينيه اللتين لا تزالان غائمتين على الطبيب، وأضاف: «لقد ظننت أني أحسنت صنعاً بعصياني تلك الأوامر، لكنني كنت مخطئاً. فالأمور قد تغيرت الآن، وأصبح لدى المعارضة ضمانات، والجميع يعيشون بسلام، بينما

تتابع أنت التفكير كمتآمر». مسح الطبيب وسادة الكرسي بكمه وقلبها على الجانب الذي لم يُمزق. فتابع العمدة:

- إن موقفك يضرّ بالقرية.

وأشار إلى الوسادة، دون أن يهتم بالنظرة الساهمة التي كان الطبيب يوجهها إلى وجنته، وقال:

- على البلدية أن تدفع لك الآن تعويضاً عن كل هذه الأضرار، إضافة إلى بوابة المدخل. إنه مبلغ... وكل ذلك بسبب عنادك.

فقال طبيب الأسنان:

- عليك أن تتغرغر بماء الحلبة.

بحث القاضي عن الكلمة في المعجم الذي في مركز التلغراف، لأن معجمه تنقصه بعض الحروف. ولم يخرج بنتيجة واضحة: اسم حذّاء في روما اشتهر بالأهاجي التي كان ينظمها ضد الجميع، وبيانات أخرى ليست ذات أهمية. وبالمنطق التاريخي نفسه، فكر في منشور تشهير علقه على باب أحد البيوت شخص مجهول يمكن تسميته مارفوريو. لم يخب أمله. فخلال الدقيقتين اللتين وظفهما للبحث في المعجم، أحس للمرة الأولى منذ زمن طويل براحة أداء الواجب.

رآه موظف التلغراف وهو يضع المعجم على الرف، ما بين المصنفات المنسية التي تضم البيانات والأوامر الإدارية حول البريد والبرق، فأوقف إرسال برقية بحركة نشيطة. ثم اقترب وهو يخلط أوراق اللعب، متأهباً لتكرار اللعبة الدارجة: معرفة الورقات الثلاث. لكن القاضي لم يوله اهتماماً. «إنني مشغول جداً» قال معتذراً، وخرج إلى الشارع المتوقد يطارده يقين غامض بأن الساعة لا تكاد تكون الحادية عشرة وأن يوم الثلاثاء هذا مازال يحتفظ له بساعات طويلة يستفيد منها.

وفي مكتبه، كان العمدة ينتظره بمشكلة أخلاقية. ففي الانتخابات الأخيرة صادرت الشرطة البطاقات الانتخابية لأعضاء الحزب المعارض وأتلفتها. وهكذا صار معظم أهل القرية الآن بلا وثائق لإثبات الشخصية.

وختم العمدة حديثه وهو يفتح ذراعيه قائلاً:

ـ إن هؤلاء الناس الذين ينقلون بيوتهم، لا يعرفون حتى أسماءهم.

وأدرك القاضي أركاديو أن وراء هاتين الذراعين المفتوحتين ثمة كآبة مخلصة. ولكن مشكلة العمدة كانت بسيطة: يكفي تعيين موظف لتسجيل الأحوال المدنية. وانتهى السكرتير إلى تبسيط الحل بقوله:

ـ ما عليك إلا أن تبعث بطلبه. فهو معين منذ نحو سنة.

لقد تذكره العمدة. فمنذ شهور، عندما أحيط علماً بتعيين مسجل الأحوال المدنية، أجرى اتصالاً مع العاصمة ليسأل كيف يجب عليه أن يستقبله، وردوا عليه: «بالرصاص» والآن وصلت أوامر مغايرة، التفت إلى السكرتير وهو يضع يديه في جيبيه، وقال له:

ـ اكتب الرسالة.

أثارت قعقعة الآلة الكاتبة في المكتب جواً من النشاط انعكس في وعي القاضي أركاديو الذي وجد نفسه فارغاً، فسحب من جيب قميصه سيجارة، ودعكها بين راحتيه قبل أن يشعلها. ثم أمال الكرسي إلى الخلف، حتى أقصى طاقة لنوابضه. وبينما هو في ذلك الوضع فاجأه يقين محدد بأنه يعيش لحظة من حياته.

رتب العبارة جيداً قبل أن ينطق بها وقال:

ـ لو أنني كنت مكانك لعينت مندوباً يمثل الوزارة العامة أيضاً.

وعلى عكس ما كان ينتظر، فإن العمدة لم يجب على الفور. نظر إلى الساعة، لكنه لم ير كم هو الوقت. واكتفى بالتأكد من أنه مازال أمامه متسع حتى موعد الغداء. وعندما تكلم فعل ذلك دون حماس: فهو لا يعرف الطريقة الواجب اتباعها لتعيين مندوب من الوزارة العامة.

فقال القاضي أركاديو شارحاً:

ـ لقد كان المجلس البلدي يعين هذا الشخص. وبما أنه لا وجود للمجلس الآن، فإن نظام الطوارئ يخولك صلاحية تعيينه.

استمع العمدة بينما هو يوقع الرسالة دون أن يقرأها. ثم تحدّث معلقاً بحماس. ولكن السكرتير أبدى تحفظاً ذا صبغة أخلاقية على الأسلوب الذي اقترحه رئيسه، وأصر القاضي أركاديو: إنه أسلوب طوارئ في ظل حالة الطوارئ.

ـ سأفكر في الأمر ـ قال العمدة.

نزع القبعة ليهوي بها، ولاحظ القاضي أركاديو أثر طارتها مطبوعاً على جبهته. وبسبب الطريقة التي كان يهوي بها، أدرك أن العمدة لم ينته من التفكير بعد نفض رماد السيجارة بظفر إصبعه الصغرى الطويل والمائل، وانتظر.

ـ هل يخطر ببالك أي مرشح؟ ـ سأل العمدة.

كان واضحاً أنه يتجه بسؤاله إلى السكرتير.

فكرر القاضي وهو يغمض عينيه:

ـ مرشح.

ـ لو كنت مكانك لعينت رجلاً نزيهاً ـ قال السكرتير.

وخفف القاضي من هذه الوقاحة قائلا: «هذا يعتمد على وزنه». ثم نظر إلى الرجلين على التوالي.

ـ من مثلاً؟ ـ قال العمدة.

ـ لا يخطر ببالي أحد الآن ـ قال القاضي ساهماً.

اتجه العمدة إلى الباب، وقال: «فكر في الأمر. وعندما نخرج من مشكلة الفيضانات سنحل مشكلة المندوب». بقي السكرتير مطرقاً فوق الآلة الكاتبة، إلى أن انتهى من سماع وقع أقدام العمدة تبتعد. وعندئذ قال:

ـ انه مجنون. من سنة ونصف هشموا رأس المندوب بأعقاب البنادق، وهو يبحث الآن عن مرشح ليهدي إليه المنصب.

انتفض القاضي أركاديو منتصباً وقال:

ـ إنني ذاهب. لا أريد أن تؤثر على شهيتي للغداء بقصصك المرعبة.

غادر المكتب. كان ثمة عنصر مشؤوم في تركيب تلك الظهيرة. وقد أدركه السكرتير بحساسيته الشديدة تجاه الخرافات. وعندما وضع القفل بدا له وكأنه يقوم بعمل ممنوع. هرب. وأمام بوابة مكتب التلغراف لحق بالقاضي أركاديو الذي كان مهتماً بالتقصي حول إذا ما كان ممكناً تطبيق خدعة أوراق اللعب في لعبة البوكر. ورفض موظف التلغراف كشف سر اللعبة. ووصل إلى حد تكرار الخدعة مرات لا نهائية ليقدم للقاضي أركاديو فرصة اكتشاف الخدعة بنفسه. لقد راقب السكرتير تلك اللعبة أيضاً، وتوصل إلى نتيجة. أما القاضي أركاديو، فإنه لم ينظر حتى مجرد نظر إلى الورقات الثلاث. كان يعرف أنها الورقات نفسها التي انتقاها بالمصادفة، وكان موظف التلغراف يعيدها إليه دون أن يراها أيضاً.

ـ إنها مسألة سحر ـ قال موظف التلغراف.

كان القاضي أركاديو يفكر حينئذ بعملية اجتياز الشارع فقط. وعندما قرر المسير، أمسك السكرتير من ذراعه وأجبره على الغوص معه في جو الزجاج المصهور. خرجا معاً إلى الرصيف المظلل، عندئذ شرح له السكرتير سر الخدعة. لقد كان اللغز بسيطاً لدرجة أن القاضي أركاديو أحس بالإهانة.

ساراً بعض الطريق صامتين.

ـ هذا طبيعي ـ قال القاضي فجأة بكراهية ظاهرة، ثم أضاف: ـ فأنت لم تحدد التفاصيل.

تباطأ السكرتير هنيهة وهو يبحث عن مغزى العبارة. وقال أخيراً:

ـ الأمر في غاية البساطة. فمعظم المنشورات تُكتشف وتُنزع قبل الفجر.

قال القاضي أركاديو:

ـ هذا لغز آخر لا أفهمه. فأنا لا يقض مضجعي منشور لا يقرؤه أحد.

فقال السكرتير، وهو يتوقف عن المسير، إذ أنه وصل إلى بيته:

ـ هذه هي القضية. فما يقض المضاجع ليس المنشورات، وإنما الخوف من المنشورات.

وعلى الرغم من عدم اكتمال التفاصيل التي جمعها السكرتير، فقد أراد القاضي معرفتها. وسجل الحالات، بالأسماء والتواريخ: إحدى عشرة حالة في سبعة أيام. ولم تكن توجد أية علاقة بين الرجال الأحد عشر المعنيين. والذين رأوا المنشورات اتفقوا على أنها كانت مكتوبة بريشة وبحبر أزرق، بحروف كحروف الطباعة، مختلفة بين حروف كبيرة وصغيرة، وكأن كاتبها طفل صغير. وكانت عباراتها مبتذلة إلى حد أن بعض الأخطاء الإملائية كانت تبدو وكأنها متعمدة. ولم تكن تكشف عن أية أسرار: فهي لا تحتوي شيئاً غير متداول بين الجميع منذ زمان. كان قد فكر بجميع الاحتمالات عندما ناداه موسى السوري من دكانه قائلاً:

ـ ألديك بيزو؟

لم يفهم القاضي أركاديو ما يعنيه. لكنه قلب جيوبه: خمسة وعشرون سنتافو وقطعة نقدية أميركية يحتفظ بها كتميمة منذ أيام الجامعة. تناول موسى السوري الخمسة والعشرين سنتافو، وقال:

ـ خذ ما تشاء وادفع الباقي عندما تريد ـ ثم تابع وهو يلقي القطع النقدية في الدرج الفارغ: ـ لا أريد أن تصل الساعة الثانية عشرة دون أن أستفتح وأذكر اسم الله.

وهكذا، دخل القاضي أركاديو إلى بيته بصورة مفاجئة في الساعة الثانية عشرة وهو يحمل هدية لزوجته. وجلس على حافة السرير ليخلع حذاءه، فيما راحت هي تلف جسدها بقطعة قماش حريرية مزينة برسوم، وتخيلت مظهرها، بعد الولادة، بالفستان الجديد، ثم قبلت زوجها من أنفه. حاول أن يبعدها، لكنها ارتمت فوقه، وسقطا على عرض السرير. بقيا بلا حراك. مر القاضي أركاديو براحته على ظهرها وهو يحس بحرارة البطن المنتفخ، إلى أن شعر بنبضات كليتيها.

رفعت المرأة رأسها وهمست ضاغطة على أسنانها:

ـ انتظر، سأغلق الباب.

❖ ❖ ❖

انتظر العمدة إلى أن انتهوا من بناء البيت الأخير. كانوا قد أقاموا خلال عشرين ساعة شارعاً جديداً، عريضاً ومقفراً، ينتهي فجأة بجدار المقبرة. وبعد أن شارك في ترتيب الأثاث، مساعداً أصحاب البيوت، دخل العمدة وهو يكاد يختنق إلى أقرب مطبخ. كان الحساء يغلي على موقد حجري بدائي على الأرض. رفع الغطاء عن القدر وتنشق البخار لحظة. في الجانب الآخر من الموقد كانت تجلس امرأة هزيلة تراقبه بصمت بعينين واسعتين وديعتين.

ـ أيمكن تناول الغداء؟ ـ قال العمدة.

لم تجبه المرأة. فسكب صحناً من الحساء دونما دعوة. عندئذ ذهبت المرأة إلى الغرفة بحثاً عن كرسي ووضعته أمام الطاولة ليجلس

العمدة عليه. وبينما هو يتناول الخساء، تفحص الفناء بنوع من الذعر التوقيري ـ بالأمس، كان المكان عقاراً أجرد. والآن هناك ملابس منشورة وخنزيران يتمرّغان في الوحل. فقال:

ـ تستطيعون أن تزرعوا أيضاً.

وردت المرأة دون أن ترفع رأسها: «ستأكل الخنازير ما نزرع». ثم وضعت قطعة من اللحم المطهو، وقطعتين من اليكة ونصف موزة خضراء في طبق حمله العمدة إلى الطاولة. أبدت المرأة في عملية الكرم تلك، بوضوح، كل الفتور الذي تستطيعه. وبحث العمدة، باسماً، بعينيه عن عيني المرأة، وقال:

ـ أيوجد ما يكفي للجميع؟

ـ فليجعله الله لك غير قابل للهضم ـ قالت المرأة دون أن تنظر إليه.

لم يول اهتماماً لأمنيتها الخبيثة. صرف كل اهتمامه إلى الغداء، دون أن يكترث لخيوط العرق التي تسيل على عنقه. وعندما انتهى، أخذت المرأة الصحن، ولم تكن قد نظرت إليه بعد.

ـ إلى متى ستستمرون هكذا؟ ـ سألها العمدة.

فتكلمت المرأة دون أن تبدل ملامح وجهها الظاهرة:

ـ إلى أن تبعثوا لنا موتانا الذين قتلتموهم.

ـ لقد اختلفت الأمور الآن ـ قال لها العمدة موضحاً ـ. فالحكومة الجديدة تهتم برفاهية المواطنين. وأنتم بالمقابل...

فقاطعته المرأة:

ـ إنهم هم أنفسهم مع نفس...

ـ إن حياً مثل هذا الحي، شُيّد في أربع وعشرين ساعة، هو شيء لم يكن معروفاً من قبل ـ قال العمدة بإصرار، وأضاف: ـ إننا نسعى للوصول إلى قرية محترمة.

جمعت المرأة الغسيل النظيف عن السلك المعدني وحملته إلى الحجرة. تابعها العمدة ببصره ليسمع الإجابة:

- لقد كانت قرية محترمة قبل أن تأتوها أنتم.

لم ينتظر لتناول القهوة. وقال: «يا لكم من ناكرين للجميل. نهديهم الأرض، ومع ذلك يتذمرون». لم ترد المرأة عليه. ولكنها تمتمت وهي تنحني فوق الموقد، بينما العمدة يجتاز المطبخ متوجهاً إلى الشارع:

ـ إقامتنا هنا ستجعل الأمر أسوأ بالنسبة لكم. لأننا سنتذكركم أكثر ونحن هنا، قرب موتانا الذين في الأرض الخلفية.

حاول العمدة نوم القيلولة ريثما تصل المراكب، لكنه لم يطق الحر. كان ورم وجنته قد بدأ بالتراجع. ومع ذلك، لم يشعر بأنه على ما يرام. وتابع جريان النهر الهادئ خلال ساعتين، بينما كان يسمع صرير جدجد داخل الحجرة. لم يكن يفكر في أي شيء.

عندما سمع صوت محركات المركب، تعرى وجفف العرق بمنشفة ثم استبدل بزته. بحث بعد ذلك عن الجدجد، وأمسكه بين إبهامه وسبابته وخرج إلى الشارع. ومن بين الجموع التي تنتظر المركب، ظهر طفل نظيف، يرتدي ملابس جديدة، واعترض سبيله وهو يحمل مسدساً رشاشاً من البلاستيك. فأعطاه العمدة الجدجد.

بعد لحظة من ذلك، بينما كان يجلس في متجر موسى السوري، راقب مناورة المركب. وعج الميناء بالنساء خلال عشر دقائق. أحس العمدة بثقل في معدته وبوخزة ألم في رأسه، فتذكر الأمنية السيئة التي أطلقتها المرأة. ثم اطمأن بعد ذلك وهو يراقب المسافرين

الذين يجتازون سطح المركب الخشبي، ويشدون عضلاتهم بعد ثماني ساعات من الجلوس المتواصل، قال:

ـ اللعنة نفسها.

نبهه موسى السوري إلى شيء جديد: وصول سيرك. ولاحظ العمدة أن الأمر صحيح، رغم أنه ما كان يستطيع أن يقول كيف لا حظ ذلك. ربما بسبب مجموعة من الأعمدة والخرق الملونة المكومة على سطح المركب، ومن رؤيته لامرأتين متشابهتين تماماً ومحشوتين في ثوبين متماثلين مزينين برسوم أزهار، وكأنهما نسخة معادة لشخص واحد.

ـ هاهو ذا سيرك يأتي على الأقل ـ دمدم.

تحدث موسى السوري عن حيوانات ضارية وبهلوانات. أما العمدة فكانت له طريقة أخرى للتفكير في السيرك. نظر إلى مقدمة جزمته وهو يشدّ ساقيه، وقال:

ـ إن القرية تتقدم.

توقف موسى السوري عن التهوية وسأل: «أتعرف كم هي مبيعاتي اليوم؟». لم يغامر العمدة بذكر أي رقم، بل انتظر الإجابة. فقال السوري:

ـ خمسة وعشرون سنتافو.

وفي هذه اللحظة رأى العمدة موظف التلغراف وهو يفتح كيس البريد ويسلم الدكتور خيرالدو رسائله. ناداه. وكان البريد الرسمي يصل في ظرف مختلف. مزق الطوابع ورأى أن ما في الظرف هو تعليمات روتينية ومطبوعات تتضمن دعاية للنظام. عندما انتهى من القراءة، كان رصيف الميناء قد تبدل: فقد تراكمت أكداس البضائع، وأقفاص الدجاج، ومعدات السيرك الغامضة. وكان المساء قد حلّ، فنهض متنهداً:

- خمسة وعشرون سنتافو.

فكرر السوري بصوت متماسك، ودون رغبة تقريباً:

- خمسة وعشرون سنتافو.

راقب الدكتور خيرالدو عملية تفريغ المركب حتى نهايتها. وكان هو الذي لفت انتباه العمدة إلى امرأة متينة، ذات مظهر وقور، تضع في ذراعيها عدداً من الأساور. كانت تبدو كأنها تنتظر قدوم المسيح تحت مظلة ملونة. ولم يتوقف العمدة للتفكير بالقادمة الجديدة، وقال:

- لابد أنها مروضة الوحوش.

فقال الدكتور خيرالدو وهو يعض الكلمات بصفي أسنانه الحادة:

- إنك محق إلى حد ما. فهذه حماة ثيسر مونتيرو.

تابع العمدة الأمر دون اهتمام. نظر إلى الساعة: الرابعة إلا خمساً وعشرين دقيقة. وأمام باب المركز أخبره الحارس ان الأب انخل قد انتظره نصف ساعة وأنه سيعود في الرابعة.

وعندما خرج إلى الشارع من جديد، وهو لا يدري ماذا يفعل، رأى طبيب الأسنان من خلال نافذة عيادته فاقترب ليطلب منه ناراً. أعطاه طبيب الأسنان ما طلب وهو يتفحص وجنته التي مازالت متورمة.

- لقد تحسنت - قال العمدة.

وفتح فمه، فقال طبيب الأسنان وهو يتأمل في داخله:

- هناك عدة أسنان بحاجة إلى تلبيس.

ثبت العمدة مسدسه على الحزام، وقال بحزم: «سأحضر إلى هنا». ولم يبدل طبيب الأسنان ملامحه.

- تعال عندما تشاء، فلعل رغبتي بموتك في بيتي تتحقق.

ربت العمدة على كتفه وعلق بمزاج رائق: «لن تتحقق». ثم أضاف فاتحاً ذراعيه:

- إن أضراسي فوق الأحزاب.

❖ ❖ ❖

- ألن تتزوجي؟

باعدت امرأة القاضي اركاديو بين ساقيها وأجابت: «لا أمل في ذلك يا أبتاه. وخصوصاً الآن، إذ سأنجب له ابناً» مال الأب أنخل بنظره إلى النهر. كانت هناك بقرة ضخمة غارقة تنحدر مع مسار التيار، وفوقها عدد من طيور الرخمة. قال:

- ولكنه سيكون ابناً غير شرعي.

- لا يهم - قالت - أركاديو يعاملني الآن معاملة حسنة. وإذا أجبرته على الزواج بي فسيشعر بأنه مقيد وسيجعلني أدفع الثمن.

كانت قد خلعت القبقاب وباعدت أثناء الحديث ما بين ركبتيها، وضمت أصابع قدميها إلى بعضهما بعضاً على عارضة الكرسي الصغير. كانت تضع المروحة في حضنها بينما ذراعاها يتقاطعان فوق بطنها المنتفخ. وكررت: «لا أمل في ذلك يا أبتاه». ظل الأب أنخل محتفظاً بالصمت، فقالت: «اشتراني دون ساباس بمئتي بيزو، وامتص نضارتي خلال ثلاثة شهور ثم ألقى بي إلى الشارع وأنا لا أملك رأس دبوس. ولو أن أركاديو لم يلتقطني يومها، لمت جوعاً». ثم نظرت إلى الأب أول مرة وأضافت:

- أو لاضطررت إلى العمل كعاهرة.

فقال الأب انخل الذي كان يحاول إقناعها بإصرار منذ ستة شهور:

- عليك أن تجبريه على الزواج وتكوين منزل. فحياتكما التي تعيشان الآن ليست في وضع غير آمن وحسب، بل إنكما تقدمان مثلاً خبيثاً للقرية أيضاً.

ـ من الأفضل عمل الأمور على المكشوف ـ قالت ـ. هناك آخرون يفعلون الشيء نفسه، ولكن تحت أنوار مطفأة. ألم تقرأ المنشورات؟

ـ إنها افتراءات ـ قال الأب ـ. وعليك أن تسوّي وضعك وتنقذي نفسك من التقولات.

قالت:

ـ أنا لست مضطرة لإنقاذ نفسي من أي شيء لأنني أفعل كل شيء في وضح النهار. والدليل على ذلك أن أحداً لم يُضع وقته بإلصاق منشور عني، بينما ألصقت أوراق عن جميع ساكني الساحة المحترمين.

ـ أنت بلهاء ـ قال الأب ـ. ولكن الله أمدك بحظ الوقوع على رجل يقدرك. ولهذا السبب عليك أن تتزوجي وتكوّني منزلاً.

ـ أنا لا أفهم هذه الأمور ـ قالت ـ. ولكنني هكذا على أي حال، أملك مكاناً أنام فيه، ولا ينقصني الطعام.

ـ وإذا ما هجرك؟

عضت شفتها. وابتسمت ابتسامة غامضة وهي تجيب:

ـ لن يهجرني يا أبتاه. وأعرف لماذا أقول هذا.

لم يقتنع الأب بالهزيمة هذه المرة أيضاً. وطلب منها أن تحضر إلى القداس على الأقل. وردت عليه بأنها ستفعل ذلك «في يوم من هذه الأيام»، وتابع الأب المسير بانتظار موعد لقائه مع العمدة. وأشار له أحد السوريين إلى الطقس الجيد، ولكنه لم يوله اهتماماً. وركز كل اهتمامه على أدق تفاصيل السيرك الذي كان يُنزل وحوشه المفترسة في ذلك الأصيل اللطيف. وبقي هناك حتى الساعة الرابعة.

كان العمدة يودع طبيب الأسنان عندما رأى الأب أنخل قادماً، فقال له وهو يشدّ على يده: «في الموعد المحدد تماماً، مع أن السماء لا تمطر». وبينما هو يتأهب لصعود درج المركز المائل، ردَّ الأب أنخل:

ـ والعالم لم ينته.

بعد دقيقتين من ذلك أُدخل إلى حجرة ثيسر مونتيرو.

وخلال الوقت الذي استغرقته عملية الاعتراف، كان العمدة يجلس في الممر. تذكر السيرك عندما رأى امرأة تتعلق بأسنانها من عارضة على ارتفاع خمسة أمتار، ورجلاً يرتدي بزة زرقاء مطرزة بخيوط ذهبية ويقرع جرساً. وبعد نصف ساعة غادر الأب أنخل حجرة ثيسر مونتيرو، فسأله العمدة:

ـ جاهز؟

فتأمله الأب أنخل بسخط، وقال:

ـ إنكم تقترفون جريمة. فهذا الرجل لم يتناول طعاماً منذ خمسة أيام، ولولا متانة بنيته لما بقي على قيد الحياة.

ـ هذه رغبته ـ قال العمدة بهدوء.

وقال الأب وهو يكبح نبرة مندفعة في صوته:

ـ ليس صحيحاً. فأنت أصدرت أمراً بعدم تقديم الطعام له.

أشار العمدة إليه بسبابته قائلاً:

ـ حذار يا أبتاه. إنك تكشف أسرار الاعتراف.

ـ ليس هذا جزءاً من الاعتراف ـ قال الأب.

نهض العمدة قافزاً وقال: «لا تأخذ الأمور بعصبية» ثم أردف وقد انفجر فجأة من الضحك: «إذا كان يهمك إلى هذا الحد، فإننا سنضع له حداً في الحال». ونادى أحد رجال الشرطة، وأمره بإحضار طعام لثيسر مونتيرو: «أحضروا له فروجاً كاملاً، وليكن سميناً، مع طبق بطاطا وطبق سلطة». ثم قال موجهاً كلامه للأب:

ـ كل هذا على نفقة البلدية يا أبتاه. لتروا كيف أن الأمور قد تغيرت.

خفض الأب أنخل راسه:

ـ متى ستبعث به؟

ـ المركب يخرج غداً ـ قال العمدة ـ فإذا استعاد رشده هذه الليلة فسيذهب غداً. وما عليه إلا أن يدرك بأني أريد خدمته.

ـ ولكنها خدمة غالية بعض الشيء ـ قال الأب.

ـ ليست هناك خدمات لا تكلف نقوداً لمن يملك النقود ـ قال العمدة. وثبت عينيه على عيني الأب أنخل الزرقاوين الصافيتين، وأضاف:

ـ أتمنى أن تكون قد جعلته يدرك كل هذه الأمور.

لم يجب الأب أنخل. نزل الدرج، وعندما وصل إلى نهايته ألقى تحية الوداع بجؤار أصم. حينئذ اجتاز العمدة الممر ودخل إلى حجرة ثيسر مونتيرو دون أن يقرع الباب.

إنها غرفة بسيطة، فيها إبريق لغسل الأيدي وسرير معدني. كان ثيسر مونتيرو منبطحاً على السرير بذقن غير حليقة. وكان يرتدي ثيابه التي غادر بها بيته يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضي. لم يتحرك فيه أي عضو، حتى ولا عينيه، حين سمع العمدة يقول له: «هاأنتذا قد صفيت حساباتك مع الرب، وخير ما تفعله الآن هو أن تصفيها معي». ثم سحب كرسياً إلى جانب السرير وجلس عليه بالمقلوب، مسنداً صدره إلى مسند الكرسي. ركز ثيسر انتباهه على دعائم السقف. ولم يبد عليه الاهتمام بالرغم من أن هناك على طرفي شفتيه ما يشير إلى حديث طويل كان قد تبادله مع نفسه. وسمع العمدة يقول: «يجب علينا، أنا وأنت، ألا نلف وندور. غداً ستذهب. وإذا كنت محظوظاً سيأتي محقق خاص بعد شهرين أو ثلاثة شهور. وعلينا عندئذ أن نقدم له المعلومات. ثم إنه سيرجع في مركب الأسبوع التالي وهو مقتنع بأن ما أقدمت عليه ليس سوى حماقة».

توقف عن الكلام. لكن ثيسر مونتيرو ظل متماسكاً.

ـ وبعد ذلك سينتزعون منك، ما بين قضاة ومحامين، عشرين ألف بيزو على الأقل. وربما أكثر من هذا المبلغ، إذا ما تولى المحقق الخاص مهمة إبلاغهم بأنك مليونير.

أدار ثيسر مونتيرو رأسه باتجاهه. ومع أنها كانت مجرد حركة خفيفة، فإنها جعلت نوابض السرير تصرّ.

وتابع العمدة بصوت يشبه صوت مرشد روحي:

ـ ثم بعد ذلك، وبين مراجعات وأوراق سيحكمون عليك بسنتين، إذا ما سارت الأمور لمصلحتك.

شعر بأنه مراقب بدءاً من مقدمة حذائه. وعندما وصلت عينا ثيسر مونتيرو إلى عينيه، لم يكن قد أتم كلامه بعد. لكنه غيّر من نبرة صوته:

ـ أنت مدين لي بكل أملاكك. فقد وصلني أمر بتصفيتك. جاء أمر قتلك في كمين ومصادرة مواشيك لتغطي الحكومة نفقات الانتخابات الباهظة في الدائرة كلها. وأنت تعلم أن هناك عمداً عديدين فعلوا ذلك في بلديات أخرى. أما هنا، فإننا لم نطع الأوامر.

في هذه اللحظة بدأت تظهر أول العلائم التي تشير إلى أن ثيسر مونتيرو أخذ يفكر. فباعد العمدة ما بين ساقيه، وفيما هو يضع ذراعيه على مسند الكرسي أجاب على سؤال لم ينطق به محدثه:

ـ أنا لم آخذ سنتافو واحداً مما دفعته طوال حياتك. فكل تلك الأموال أنفقت في تنظيم الانتخابات. وهاهي الحكومة الجديدة تقرر الآن فرض الأمن وتوفير الضمانات للجميع. وبينما أنا أفطس براتبي الضئيل، فإنك تتعفن في المال. لقد قمت بتجارة رابحة.

بدأ ثيسر مونتيرو عملية النهوض الشاقة. وعندما وقف على

قدميه، رأى العمدة نفسه ضئيلاً وبائساً أمام بهيمة هائلة. وكان في النظرة التي لاحقه بها حتى النافذة نوعاً من الغيرة، فدمدم:

- إنها أفضل عملية في حياتك.

كانت النافذة تطل على النهر. ولكن ثيسر مونتيرو لم يتعرف عليه. رأى نفسه في قرية مختلفة، مقابل نهر مختلف. وسمع العمدة وراءه يقول: «إنني أحاول مساعدتك. جميعنا نعلم أنها كانت قضية شرف، ولكن إثبات ذلك سيكلفك كثيراً. خاصة وأنك اقترفت حماقة بتمزيقك المنشور». وفي هذه اللحظة داهمت الحجرة رائحة نتنة مقززة. فقال العمدة:

- البقرة، لابد أنها علقت في مكان ما.

ظل ثيسر مونتيرو عند النافذة، غير مبال برائحة العفونة. لم يكن في الشارع أحد. وفي الميناء كانت ترسو ثلاثة مراكب، وكان بحارتها يعلقون شباك نومهم ليناموا. وإن هذا المشهد سيكون مختلفاً في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي. وسيكون الميناء غاصاً بالناس لمدة نصف ساعة، بانتظار إبحار السجين.

تنهد ثيسر مونتيرو، ودس يديه في جيوبه. وبحماسة صارمة، إنما دون تهور، اختصر أفكاره كلها في كلمتين:

- كم تريد؟

وجاء الجواب فوراً:

- عجول عمرها سنة بقيمة خمسة آلاف بيزو.

فقال ثيسر مونتيرو:

- وخمسة عجول أخرى مقابل أن تبعث بي هذه الليلة بالذات، بعد انتهاء السينما، في زورق سريع.

أطلق المركب صفيراً، ثم قام بالدوران في وسط النهر، ورأت الجموع المحتشدة على رصيف الميناء، والنساء اللواتي على النوافذ، روساريو دي مونتيرو آخر مرة وهي تجلس إلى جانب أمها على الصندوق الصفيحي نفسه الذي نزلت به إلى القرية منذ سبع سنوات. وسيطر على الدكتور أوكتافيو خيرالدو الذي كان يحلق ذقنه مقابل نافذة العيادة شعور بأن تلك الرحلة هي، بطريقة ما، عودة إلى الواقع.

كان الدكتور خيرالدو قد رآها في مساء اليوم الذي وصلت فيه أول مرة وهي ترتدي زي مدرسة المعلمين المتسخ، وحذاء رجالياً، وتبحث في الميناء عمن يتقاضى أجراً أقل لقاء حمل صندوقها حتى المدرسة. وكان يبدو عليها أنها مستعدة للهرم دون أية مطامع في تلك القرية التي رأت اسمها مكتوبا أول مرة ـ كما روت هي نفسها ـ على قصاصة ورقية سحبتها من قبعة حين أجروا قرعة بين أحد عشر معلماً متنافساً على ست وظائف شاغرة. أقامت في غرفة من غرف المدرسة، فيها سرير معدني وإبريق لغسل الأيدي، وكانت تقضي ساعات فراغها وهي تطرز الشراشف بينما العصيدة تغلي على الموقد البترولي. وفي تلك السنة بالذات، أثناء احتفالات عيد الميلاد، تعرفت على ثيسر مونتيرو في مهرجان مدرسي. كان أعزب جلفاً من أصل زنجي، أثري في عمليات قطع الخشب، كان يعيش في الغابة العذراء مع كلاب متوحشة، ولا يظهر في القرية إلا نادراً، ويفعل ذلك دائما بذقن غير حليقة، منتعلا جزمة ذات كعب له حذوة

معدنية، وحاملا بندقية بسبطانتين. وفكر الدكتور خيرالدو بينما ذقنه مطلية برغوة الصابون: وكأنها سحبت من القبعة القصاصة الرابحة للمرة الثانية. وهبت عندئذ رائحة نتنة أخرجته من أفكاره.

ـ كان سرب من نسور الرخمة يتفرق على الضفة المقابلة وقد أفزعته الموجة التي أحدثها المركب. وظلت رائحة النتانة مخيمة للحظة على الميناء، ثم انتشرت مع النسيم الصباحي ودخلت إلى البيوت.

صرخ العمدة من شرفة غرفة نومه، يراقب تفرق نسور الرخمة:

ـ أما زالت هذه الرائحة اللعينة تفوح! إنها البقرة العاهرة.

غطى أنفه بمنديل، ثم دخل إلى حجرة النوم وأغلق باب الشرفة. كانت الرائحة مستقرة في الداخل. ودون أن ينزع قبعته، علق المرآة بمسمار في الجدار وبدأ محاولة دقيقة لحلاقة وجنته التي مازالت متورمة بعض الشيء. وبعد قليل طرق صاحب السيرك الباب.

دعاه العمدة للجلوس، وراح يراقبه من خلال المرآة أثناء الحلاقة. كان يرتدي قميصاً مخططاً بمربعات سوداء، وسروال ركوب خيل مع طماق، ويحمل مقرعة يضرب بها على ركبته ضربات منتظمة .

قال العمدة وهو ينزع بالشفرة الشعر الذي تراكم خلال أسبوعين من اليأس:

ـ لقد وصلتني الشكوى الأولى ضدكم هذه الليلة بالذات.

ـ وما هي ؟

ـ إنكم تبعثون الصبيان لسرقة القطط.

فقال صاحب السيرك:

ـ ليس صحيحاً، إننا نشتري كل قط يحضرونه ببيزو واحد دون السؤال من أين أتوا به، وذلك لإطعام الحيوانات المفترسة.

ـ وهل تطعمونها القطط وهي حية؟

فاعترض صاحب السيرك:

ـ آه، لا ، فهذا يوقظ في الحيوانات غريزة الافتراس.

وبعد أن غسل العمدة وجهه، التفت إليه وهو يمسح وجنتيه بمنشفة. لم يكن قد انتبه حتى تلك اللحظة إلى أنه يضع في جميع أصابعه تقريباً خواتم ذات فصوص من أحجار ملونة قال:

ـ عليك أن تبتكر أي شيء آخر. فلتصطادوا تماسيح إذا شئتم، أو استفيدوا من الأسماك التي تذهب هدراً في هذا الوقت. أما القطط الحية فلا.

هز صاحب السيرك كتفيه ولحق بعمدة إلى الشارع، كان الرجال يقفون جماعات في الميناء ويتبادلون الحديث رغم نتانة الرائحة المنبعثة من البقرة التي علقت بأعشاب الضفة المقابلة. فصرخ بهم العمدة:

ـ كان عليكم، أيها المخنثون، بدل الوقوف هنا والثرثرة مثل النساء، أن تنظموا لجنة منذ أمس لسحب البقرة العالقة .

أحاط به عدد من الرجال. فعرض العمدة عليهم:

ـ خمسون بيزو لمن يأتيني بأجزاء هذه البقرة إلى المكتب قبل مرور ساعة.

انفجرت جلبة أصوات عند طرف رصيف الميناء، إذ سمع بعض الرجال هناك عرض العمدة وقفزوا إلى الزوارق وهم يصرخون بتحديات متبادلة بينما هم يحلون حبال الزوارق، وضاعف العمدة المبلغ متحمساً: «مئة بيزو، خمسون بيزو لكل شق من البقرة» ثم قاد صاحب السيرك إلى حافة رصيف الميناء، وانتظر إلى أن وصلت الزوارق الأولى إلى كثبان الضفة الأخرى. عندئذ التفت العمدة إلى صاحب السيرك باسماً وقال :

ـ إنها قرية سعيدة.

وأكد صاحب السيرك ذلك بحركة من رأسه. فتابع العمدة: «الشيء الوحيد الذي ينقصنا هو مثل هذه الأمور. فالناس كثيراً ما يفكرون بنذالة لعدم وجود العمل». وشيئاً فشيئاً، راحت تلتفت حولهما جماعة من الصبيان. قال صاحب السيرك:

ـ ها هو السيرك.

كان العمدة يقوده من ذراعه نحو الساحة. فسأله:

ـ وماذا تقدمون؟

ـ كل شيء. لدينا استعراض كامل، للصغار والكبار.

فرد عليه العمدة:

ـ هذا لا يكفي. عليكم أن تجعلوه في متناول الجميع أيضاً.

وقال صاحب السيرك:

ـ لقد وضعنا هذا في اعتبارنا كذلك.

مضيا معاً إلى أرض خلاء وراء صالة السينما، حيث كان العمل جارياً في نصب خيمة السيرك. كان هناك رجال ونساء تبدو عليهم الكآبة وهم يُخرجون أدوات وأشياء ملونة من الصناديق الضخمة المغلفة بصفيح أصفر براق. وعندما لحق العمدة بصاحب السيرك بين أكداس الكائنات البشرية والأمتعة وهو يصافح الجميع، أحس أنه وسط غرق. وبعد أن صافحته امرأة مربوعة، ذات حركات حازمة، وجميع أسنانها ملبسة بالذهب تقريباً، تفحصت كفه وقالت:

ـ هناك شيء غريب في مستقبلك.

سحب العمدة يده دون أن يتمكن من السيطرة على شعور عابر بالانقباض، وضرب صاحب السيرك المرأة على ذراعها ضربة خفيفة بالمقرعة، وقالها دون أن يتوقف: «دعي الملازم وشأنه». وقاد العمدة إلى أحد أطراف المكان، حيث كانت الحيوانات المفترسة. وسأله :

- هل تؤمن بمثل هذه الأمور؟

- حسب الحال - قال العمدة.

وقال صاحب السيرك:

- لم يتمكنوا من إقناعي بها. عندما ينقاد لهذه الأمور فإنه ينتهي إلى عدم الإيمان بالإرادة البشرية.

تأمل العمدة الحيوانات الناعمة بفعل الحر، كانت تنبعث من الأقفاص رائحة حامضة كثيفة، وكان في تنفس الحيوانات المتقطع نوعاً من المرارة التي لا رجاء بعدها. داعب صاحب السيرك بالمقرعة أنف فهدة، فأحنت رأسها بحركة دلال وتأوهت.

- ما اسمها؟ - سأله العمدة.

- ارستوطاليس.

- أعني المرأة - قال العمدة موضحاً.

- آه، نسميها كاساندرا، امرأة المستقبل.

أبدى العمدة ملامح الضيق، وقال:

- أود مضاجعتها.

- كل شيء ممكن - قال صاحب السيرك.

❖ ❖ ❖

أغلقت أرملة مونتيل ستائر غرفة نومها وهي تدمدم: «يا للرجال من مساكين». رتبت الكوميدينو، ووضعت السبحة وكتاب الصلوات في الدرج ومسحت نعل خفها ذا اللون الخبازي بجلد النمر المبسوط إلى جانب السرير. ثم جالت في الحجرة لتقفل خوان الزينة بالمفتاح، وكذلك أبواب الفترينة الزجاجية الثلاثة وخزانة مكعبة الشكل، فوقها تمثال من الجبس لسان رافائيل. وبعد ذلك كله أقفلت الغرفة بالمفتاح.

وبينما هي تنزل السلم العريض المرصوف ببلاط مزين بزخارف متشابكة، كانت تفكر بمصير روساريو دي مونتيرو الغريب. فعندما اجتازت منعطف الميناء، برصانتها المعهودة كتلميذة علموها الا تلتفت أو تدير راسها، كانت أرملة مونتيل تطل من شقوق شرفتها، وأحست بأن شيئاً كان آخذاً بالانهيار منذ زمن بعيد قد انتهى الآن.

فاحت للقائها وهي على عتبة الدرج رائحة فناء بيتها الذي يشبه معرضاً قروياً. فإلى أحد جانبي الدرابزين توجد سقالة عليها قوالب جبن ملفوفة بأوراق جديدة. ووراء السقالة، في سرداق خارجي، تتكدس أكياس ملح وأزقاق عسل. وفي طرف الفناء يوجد إسطبل فيه بغال وخيول، وسروج على المرابط الخشبية. كان البيت يعبق برائحة حيوانات الحمل مختلطة برائحة أخرى هي رائحة جلود مدبوغة ومعصرة لقصب السكر.

القت الأرملة تحية الصباح في المكتب على السيد كارميتشيل الذي كان يفصل حزماً من الأوراق النقدية عن بعضها البعض ويوزعها فوق المنضدة، ويتطلع إلى دفتر الحسابات ليتأكد من صحة المبالغ. وعندما فتحت النافذة المطلة على النهر، نفذ ضوء الساعة التاسعة إلى الصالة المتمثلة بالزخارف الرخيصة، وبأرائك مغلفة بقماش رمادي، وصورة مكبرة لخوسيه مونتيل على إطارها شريط حداد أسود. شمت الأرملة رائحة النتانة قبل أن ترى الزوارق بين رمال الضفة المقابلة.

ـ ما الذي يحدث في الضفة الأخرى؟ ـ سألت.

ـ إنهم يحاولون سحب بقرة ميتة ـ أجابها السيد كارميتشيل.

ـ الأمر هكذا إذن ـ قالت الأرملة ـ لقد حلمتُ طوال الليل بهذه

الرائحة ـ ثم نظرت إلى السيد كارميتشيل المستغرق في عمله وأضافت: ـ لم يعد ينقصنا الآن سوى الطوفان.

وتكلم السيد كارميتشيل دون أن يرفع رأسه:

ـ لقد بدأ منذ خمسة عشر يوماً.

فوافقت الأرملة بقولها:

ـ أجل، لقد وصلنا الآن إلى النهاية، لم يعد يعوزنا إلا أن نستلقي في قبر، تحت الشمس، ونستكين إلى أن يأتينا الموت.

كان السيد كارميتشيل يصغي إليها دون أن يتوقف عن إجراء حساباته. وتابعت الأرملة: «منذ سنوات ونحن نشكو من أن شيئاً لا يحدث في هذه القرية. وفجأة تبدأ المأساة، كأن الله قرر أن تتصبَّ دفعة واحدة كل الأحداث التي لم تحدث منذ سنوات».

أعاد السيد كارميتشيل النظر إليها وهو بجانب صندوق الخزنة، ورآها تستند بمرفقيها إلى النافذة وتركز عينيها على الضفة المقابلة. كانت ترتدي ثوباً أسود تصل أكمامه حتى معصميها، وكانت تقضم أظفارها.

ـــ عندما تنقضي الأمطار ستتحسن الأمور ـــ قال السيد كارميتشيل.

وقالت الأرملة متنبئة:

ـ لن تنقضي. فالمصائب لا تأتي منفردة أبداً. ألم ترَ روساريو مونتيرو؟

كان السيد كارميتشيل قد رآها، فقال: «هذا كله فضيحة لا مبرر لها. وإذا ما اهتم أحدنا بالمنشورات، فسيصاب بالجنون »

ـ المنشورات ـ تنهدت الأرملة.

وقال السيد كارميتشيل :

ـ لقد علقوا لي واحداً.

فاقتربت من المنضدة وقد اكتست بملامح الدهشة.

ـ لك أنت؟

فأكد السيد كارميتشيل:

ـ لي أنا. وقد جعلوه كبيراً جداً، ومتكاملاً تماماً، يوم السبت من الأسبوع الماضي. كان يبدو كأنه إعلان من إعلانات السينما.

سحبت الأرملة كرسياً نحو المنضدة، وهتفت: «هذا مشين. فليس ثمة ما يقال عن أسرة مثالية كأسرتك». لكن السيد كارميتشيل لم يكن قلقا، وقال لها موضحاً:

ـ بما أن زوجتي بيضاء، فقد ولد أبناؤنا من مختلف الألوان. تصوري.. إنهم احد عشر.

ـ بالطبع ـ قالت الأرملة.

ـ يقول المنشور إنني لست أباً إلا للأولاد السود. ويعددون فيه آباء الأولاد الآخرين. وقد أشركوا حتى تشيبي مونتيل، لترقد روحه بسلام.

ـ زوجي!

فقال السيد كارميتشيل:

ـ زوجك وازواج أربع سيدات أخريات.

بدأت الأرملة تنتحب قائلة: «لحسن الحظ أن بناتي بعيدات. وهن يقلن إنهن لا يردن العودة إلى هذا البلد المتوحش الذي يغتالون فيه الطلاب في الشارع، وأنا أرد عليهن بأنهن محقات، وبأن يبقين في باريس إلى الأبد». فأدار السيد كارميتشيل الكرسي نصف دورة، مدركاً أن فصل الإرباك اليومي قد بدأ. وقال لها:

ـ يجب الا تهتمي بهذه الأمور.

فأجهشت الأرملة:

- بالعكس. فأنا أول من كان عليها أن تحزم أمتعتها وترحل عن هذه القرية، بالرغم من أني سأخسر هذه الأراضي وهذه التنقلات اليومية المرتبطة أشد الارتباط بالمصيبة. لا يا سيد كارميتشيل. لا أريد مبولة من ذهب لأبصق فيها دماً.

حاول السيد كارميتشيل مواساتها، فقال:

- عليك تحمل مسؤولياتك. فهذه الثروة لا يمكن الإلقاء بها من النافذة.

- المال هو روث الشيطان - قالت الأرملة.

- ولكنه حصيلة العمل الشاق الذي قام به دون تشي مونتيل أيضاً.

عضت الأرملة أصابعها وردت:

- أنت تعرف أن هذا ليس صحيحاً. لقد جُمع هذا المال بالشر، وأول من دفع ثمن ذلك هو خوسيه مونتيل نفسه عندما مات دون أن يعترف.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تقول فيها ذلك. ثم هتفت مشيرة إلى العمدة الذي كان يمر على الرصيف المقابل متأبطاً ذراع صاحب السيرك:

- الذنب يقع طبعاً على عاتق هذا الحيوان، لكن واجب التفكير يقع على عاتقي.

ابتعد السيد كارميتشيل عنها. ودس حزم الأوراق النقدية المثبتة بخيوط من المطاط في علبة كرتونية، ونادى من بوابة الفناء على العمال المياومين حسب تسلسل أسمائهم الأبجدي.

وبينما الرجال يقبضون أجورهم عن يوم الأربعاء، كانت أرملة

مونتيل تحس بمرورهم دون أن ترد على تحياتهم. كانت تعيش وحدها في هذا البيت الكئيب المؤلف من تسع حجرات، حيث ماتت الأم الكبيرة، والذي اشتراه خوسيه مونتيل دون أن يتصور أن أرملته ستتحمل فيه الوحدة حتى الموت. فأثناء الليل، وبينما هي تذرع الحجرات الفارغة حاملة مضخة مبيد الحشرات، كانت تلتقي بالأم الكبيرة وهي تنتزع أحشاء القمل في الممرات، وكانت تسألها: «متى سأموت؟». ولكن ذلك الاتصال السعيد مع الغيب لم يكن يحمل لها سوى مضاعفة الشك، لأن الإجابات كانت، كإجابات جميع الموتى: حمقاء ومتناقضة.

بعد الساعة الحادية عشرة بقليل، رأت الأرملة من خلال دموعها الأب أنخل وهو يجتاز الساحة. نادته: «أبتاه... يا أبتاه» وهي تشعر أنها تخطو بتلك المناداة خطوة أخيرة. لكن الأب لم يسمعها. قرع بوابة بيت الأرملة دي آسيس على الرصيف المقابل، وفُتحت البوابة قليلاً بطريقة رشيقة ليتمكن من الدخول.

في الممر المفعم بتغريد الطيور، كانت الأرملة دي آسيس ترقد على كرسي من الكتان، ووجهها مغطى بمنديل مبلل بماء الورد. ومن الطريقة التي قُرع بها الباب عرفت الطارق هو الأب أنخل، ولكنها أطالت صمتها المؤقت إلى أن سمعت تحيته، عندئذ كشفت عن وجهها الذي أفسده الأرق، وقالت:

ـ المعذرة يا أبتاه، لم أكن أنتظر وصولكم مبكراً هكذا.

كان الأب أنخل يجهل أنها قد دعته للغداء، فاعتذر وهو مبهور بعض الشيء، وقال إنه أمضى الصباح وهو يعاني آلاماً في رأسه وإنه فضل اجتياز الساحة قبل أن يبدأ الحر.

ـ لا عليك. إنما أردت أن أقول فقط إنني مرهقة ـ قالت الأرملة.

أخـرج الأب مـن جيبـه كتـاب صـلوات غلافـه منتـزع وقـال: «بإمكانك أن تستريحي لبعض الوقت إذا رغبت، وسأصلي في أثناء ذلك». لكن الأرملة اعترضت، وقالت:

- أشعر بأنني قد تحسنت.

مشت إلى آخر الممر وقد أغمضت عينيها، وعند عودتها فردت المنديل بمنتهى العناية على ذراع الكرسي. وعندما جلست مقابل الأب أنخل، بدت كأنها قد أصبحت أكثر شباباً بعدة سنوات مما هي عليه. وقالت حينئذ دون دراماتيكية:

- إنني بحاجة إلى مساعدتك يا أبتاه.

دس الأب أنخل كتاب الصلوات في جيبه قائلاً:

- أنا رهن إشارتك.

- القضية تتعلق بروبرتو آسيس مرة أخرى.

فعلى النقيض من تعهده بنسيان المنشور، كان روبرتو آسيس قد ودع أهل بيته في اليوم السابق على أنه سيتغيب عن البيت حتى يوم السبت، وقد عاد في تلك الليلة بالذات إلى البيت في غير موعده. ومنذ ذلك الحين حتى الفجر، حين غلبه الإرهاق، ظل جالساً في عتمة الغرفة، منتظراً عشيق زوجته المزعوم.

استمع الأب أنخل إلى حديثها وهو حائر، ثم قال:

- ليس لهذا كله أي أساس.

فردت الأرملة:

- أنت لا تعرف آل آسيس يا أبتاه. إنهم يحملون الجحيم في مخيلتهم.

- ريبيكا تعرف وجهة نظري حول المنشورات - قال -. وإذا شئت فإنني أستطيع أن أتحدث إلى روبرتو آسيس كذلك.

ـ ولا بأي شكل ـ قالت الأرملة ـ فهذا سيكون تسعيراً للأتون. أما إذا أوليت المنشورات اهتمامك في قداس الأحد، فإني متأكدة من أن روبرتو آسيس سيشعر بأنه مدعو لإعادة النظر.

فتح الأب أنخل ذراعيه وهتف:

ـ مستحيل. سيكون هذا اهتماماً بأمر ليس فيه ما يستحق الاهتمام.

ـ لا يوجد ما هو أهم من منع جريمة من الوقوع.

ـ أوتظنين بأنه سيصل إلى هذا الحد؟

فقالت الأرملة:

ـ لست أظن فقط، بل إنني متأكدة من أن قواي لن تكفي لمنع ذلك.

بعد قليل جلسا إلى المائدة. أحضرت لهما خادمة حافية أرزاً مع بقول، وخضاراً مسلوقة وطبقاً من اللحم مغطى بطبقة صلصا كثيفة بنية اللون. ملأ الأب أنخل طبقه بصمت. إن الفلفل الحار، وصمت الدار العميق، وأحاسيس الحيرة التي كانت تملأ قلبه في تلك اللحظة، نقلته من جديد إلى حجرته الضيقة حين كان راهباً مستجداً في ظهيرة ماكوندو القائظة. ففي يوم كهذا اليوم، يوم مغبر وحار، رفض إعطاء إذن دفن نصراني لمشنوق كان أهالي ماكوندو القساة يرفضون دفنه.

فك أزرار العنق في مسوحه الكهونتي ليفلت العرق. وقال للأرملة:

ـ لا بأس. ابذلي جهدك إذاً كيلا يتخلف روبرتو عن قداس الأحد.

ووعدته الأرملة دي آسيس بذلك.

❖ ❖ ❖

شغل الدكتور خيرالدو وزوجته، اللذان لا ينامان القيلولة أبداً، فترة بعد الظهر بقراءة قصة قصيرة لديكنز. كانا على الشرفة الداخلية. هو في أرجوحة النوم، يستمع وأصابعه متشابكة على رقبته، وهي تضع الكتاب في حضنها، وتقرأ بلا انفعال، بتفخيم محترف، دون أن تغير من وضعها على الكرسي. لم ترفع رأسها حتى النهاية، وحتى بعد أن انتهت، ظلت محتفظة بالكتاب مفتوحاً فوق ركبتيها، بينما كان زوجها يغسل رأسه فوق طشت الغسل. وكان الحر ينذر بعاصفة قريبة.

- أليست قصة طويلة؟ - سألته بعد أن فكرت بتمعن.

وبحركاته المترددة في صالة الجراحة، أبعد الطبيب رأسه عن الطشت، وقال وهو يقف أمام المرآة ويدعك البرينتين بكلتا يديه: «يقولون إنها رواية قصيرة. ولكنني أفضل القول إنها قصة طويلة». دعك المرهم بأصابعه على رأسه، وأضاف:

- النقاد يقولون إنها قصة قصيرة ، لكنها طويلة.

ارتدى ملابس كتانية بيضاء بمساعدة زوجته التي يمكن الاعتقاد أنها شقيقته الكبرى، ليس بسبب الإخلاص الوديع الذي تخدمه به، وإنما لبرودة عينيها التي تجعلها تبدو أكبر سناً مما هي عليه. وقبل أن يخرج، أراها الدكتور خيرالدو قائمة الزيارات وترتيبها، لتعرف أين سيكون إذا ما أتته حالة مستعجلة. ثم حرك مؤشرات الساعة الإعلانية في قاعة الانتظار إلى عبارة: الطبيب سيرجع في الساعة الخامسة.

كان الشارع يلتهب بالقيظ. سار الدكتور خيرالدو على الرصيف المفيَّأ وهاجس ملح يلاحقه: لن يهطل المطر هذا المساء بالرغم من سخونة الهواء. كان صرير الزيزان يجعل وحشة الميناء أشد

كثافة، لكنهم كانوا قد أزاحوا البقرة الميتة، وكان التيار قد جرفها بعيداً فتركت رائحة النتانة فراغاً رهيباً في الجو.

ناداه موظف التلغراف من الفندق:

ـ هل استلمت البرقية؟

لم يكن الدكتور خيرالدو قد استلمها .

فقرأها عليه موظف التلغراف من ذاكرته:

ـ «أخبرنا عن أوضاع المكتب، التوقيع أركوفان».

مضيا معاً إلى مكتب البرق. وبينما الطبيب يكتب الرد، أخذ موظف التلغراف يحني رأسه وقد غلبه النعاس.

ـ إنه حمض المورياتيك ـ قال الطبيب موضحاً دون أية قناعة علمية. وبالرغم من هواجسه، فقد أضاف مواسياً نفسه عندما انتهى من الكتابة: «ربما هطل المطر هذه الليلة»

عد موظف التلغراف كلمات البرقية، ولم يوله الطبيب اهتماماً، إذ كان يتطلع إلى كتاب ضخم مفتوح بجانب جهاز الإرسال. فسأل إذا ما كان الكتاب رواية.

ـ *البؤساء*، فيكتور هوغو.

بعث الموظف البرقية، وختم النسخة التي أمامه ثم رجع إلى الشرفة حاملاً معه الكتاب وقال:

ـ أظن أننا سنبقى على هذه الحال حتى كانون الأول.

منذ عدة سنوات والدكتور خيرالدو يعرف أن موظف التلغراف يشغل ساعات فراغه ببث قصائد حب على جهاز الإرسال إلى موظفة التلغراف في سان برناردوبينتو. لكنه كان يجهل أنه يقرأ الروايات أيضاً. فقال وهو يتصفح المجلد الثخين الذي أيقظ في ذاكرته انفعالات مشوشة من سنوات مراهقته:

ـ هذا كتاب جدي. الكسندر دوماس أكثر ملاءمة هذه الأيام.

فقال موظف التلغراف موضحاً:

ـ إنها تفضل هذا الكتاب.

ـ وهل التقيت بها؟

نفى موظف التلغراف بحركة من رأسه، وقال:

ـ ولكن سيان لدي، فأنا أستطيع التعرف عليها في أي مكان في العالم بسبب القفزات التي تحدثها دوماً في حرف (الراء).

لقد كرس الدكتور خيرالدو في ذلك المساء أيضاً ساعة من وقته لدون ساباس. وقد وجده يرقد في السرير منهوكاً، ومتدثراً بمنشفة حتى وسطه.

ـ هل كانت السكاكر جيدة؟ ـ سأله الطبيب.

فقال دون ساباس متحسراً.

ـ إنه الحر.

ثم التفت نحو الباب بجسده الضخم الذي كجسد جدة هرمة وأضاف:

ـ لقد أخذت الحقنة بعد الغداء.

فتح الدكتور خيرالدو الحقيبة فوق منضدة إلى جانب النافذة. كانت الجداجد تصر في الفناء. وكانت درجة الحرارة نباتية في الغرفة. تبول دون ساباس وهو جالس في السرير تبولاً خفيفاً. وعندما أخذ الطبيب عينة من السائل العنبري اللون في أنبوب زجاجي، أحس المريض بالانتعاش. فقال وهو يراقب عملية التحليل:

ـ انتبه جيداً يا دكتور، فأنا لا أريد أن أموت قبل أن أعرف كيف ستنتهي هذه الرواية.

ألقى الدكتور خيرالدو قرصَ دواء أزرق اللون في العينة البولية:

ـ أية رواية؟

ـ المنشورات.

راقبه دون ساباس بنظرة وديعة إلى أن انتهى من تسخين الأنبوب على نار الولاعة الكحولية. شمها. وانتظرت عينا المريض اللتان بلا لون سؤالاً:

ـ حسن ـ قال الطبيب وهو يسكب العينة في الفناء. ثم تفحص دون ساباس قائلاً:

ـ وهل أنت مهتم أيضاً بهذه القضية؟

فقال المريض:

ـ لا. ولكنني ابتهج كياباني لهلع الناس.

أعد الدكتور خيرالدو الحقنة.

وتابع دون ساباس قائلاً:

ـ أضف إلى هذا أنهم علقوا لي منشوري منذ يومين. كان يتضمن النذالات نفسها: قصص أبنائي وحكاية الحمير.

ضغط الطبيب على شريان دون ساباس بحزام مطاطي. ألح المريض على قصة الحمير، ولكنه اضطر لروايتها لأن الدكتور لا يعتقد بأنه سمعها.

قال:

ـ إنها تجارة حمير قمت بها منذ عشرين سنة، وشاءت المصادفة أن جميع الحمير التي كنت أبيعها كانت تموت بعد يومين، دون أية آثار تدل على استخدام العنف في قتلها.

مد ذراعه ذا اللحم المترهل ليأخذ الطبيب عينة من الدم. وعندما ختم الدكتور خيرالدو الثقب الذي أحدثته الإبرة من القطن، ثنى دون ساباس ذراعه.

ـ هل تعلم ما الذي ابتدعه الناس حينئذ؟

هز الطبيب رأسه نافياً.

انتشرت شائعة تقول إنني كنت أدخل إلى الحظائر ليلاً وأطلق النار في جوف الحمير، بدس فوهة المسدس في مؤخراتها.

وضع الدكتور خيرالدو في جيب سترته الأنبوب الزجاجي الذي يحتوي عينة الدم، وقال:

ـ إن في هذه القصة كل المقومات التي تجعلها تبدو صحيحة.

فقال دون ساباس وهو يجلس على السرير كمعبود شرقي:

ـ لقد كانت الثعابين هي السبب، وعلى أية حال، لابد أن يكون المرء نذلاً تماماً حتى يكتب في المنشور أموراً يعرفها الجميع.

ـ لقد كانت هذه هي صفة المنشورات دائماً. فهي تقول ما يعرفه الجميع، والحقيقة أن ما تقوله صحيح في معظم الأحيان.

عانى دون ساباس من أزمة عابرة، ودمدم: «حقاً»، وأخذ يمسح بملاءة السرير العرق عن جفونه المنتفخة. ثم عقب في الحال:

ـ كل ما في الأمر هو أنه لا وجود لثروة في هذه البلاد إلا ووراءها حمار ميت.

تلقى الطبيب هذه العبارة وهو منحن على طشت الغسيل. ورأى انفعالات وجهه منعكسة في الماء. رأى أسنانه المنتظمة انتظاماً تبدو معه أنها ليست طبيعية، وقال وهو ينظر إلى المريض من فوق كتفه:

ـ لقد كنت أعتقد دوماً يا عزيزي دون ساباس أن ميزتك الوحيدة هي المجون.

تحمس دون ساباس، وبعثت فيه المداعبات الطيبة نوعاً من الشباب المفاجئ: «هذه، وقدرتي الجنسية» قال ذلك مرفقاً الكلمات بثني ذراعه بطريقة قد يكون الغرض منها حبس الدورة الدموية،

ولكنها بدت للطبيب وقاحة سافرة.وقفز دون ساباس ليجلس على إليتيه وتابع:

ـ ولهذا السبب فإني أموت ضحكاً من المنشورات، يقولون إن أولادي يأخذون أية فتاة تبدأ بالنضج في هذه الأرياف، وأنا أقول: إنهم أبناء أبيهم.

وقبل أن يودعه، كان على الدكتور خيرالدو أن يستمع إلى ملخص إجمالي لمغامرات دون ساباس الجنسية.

وأخيراً هتف المريض قائلاً:

ـ أيام الشباب السعيدة. من الهناء، عندما كانت الفتاة في السادسة عشرة تكلف أقل من ثمن عجلة.

ـ إن هذه الذكريات تزيد من نسبة السكر لديك ـ قال الطبيب.

ففتح دون ساباس فمه ورد قائلاً:

ـ على العكس. إنها أفضل من حُقن أنسولينك اللعينة.

عندما خرج الطبيب إلى الشارع، كان لديه انطباع بأن حساء حلواً قد بدأ يجري في شرايين دون ساباس. لكن شيئاً آخر كان يشغل اهتمامه حينئذ: المنشورات. فمنذ عدة أيام والإشاعات تصل إلى عيادته. وفي هذا المساء، بعد زيارته لدون ساباس، تنبه إلى أنه لم يسمع في الواقع شيئاً آخر منذ أسبوع سوى أخبار المنشورات.

قام بعدة زيارات في الساعة التالية، وفي جميع الزيارات حدثوه عن المنشورات. استمع إلى القصص دون أن يعلق بشيء، مبدياً لا مبالاة ساخرة، لكنه كان في الواقع يحاول الوصول إلى نتيجة. وعند عودته إلى العيادة انتزعه من أفكاره الأب أنخل الذي خرج من بيت الأرملة مونتيل.

ـ كيف حال هؤلاء المرضى يا دكتور؟ سأله الأب أنخل.

ـ مرضاي على ما يرام يا أبتاه ـ أجاب الطبيب ـ وماذا عن مرضاك؟

عض الأب أنخل شفتيه. وأمسك الطبيب من ذراعه وراحا يجتازان الساحة معاً.

ـ لماذا تسألني؟

ـ لست أدري ـ قال الطبيب ـ لدي أخبار بأن هناك وباءً خطيراً بين زبائنك.

انحرف الأب أنخل بالحديث انحرافة بدت للطبيب متعمدة:

ـ إنني آت من عند أرملة مونتيل. أعصاب هذه المرأة المسكينة محطمة.

ـ قد تكون معاناة تأنيب الضمير ـ قال الطبيب مشخصاً.

ـ إنه هاجس الموت.

وعلى الرغم من أنهما يسكنان في اتجاهين متعاكسين، إلا أن الأب أنخل رافقه حتى عيادته.

ـ بجد يا أبتاه، ما رأيك بالمنشورات؟ ـ عاد الطبيب إلى الموضوع.

ـ لا أفكر فيها ـ قال الأب ـ ولكنك إذا اضطررتني إلى الكلام عنها فسأقول لك إنها أعمال حسد في قرية مثالية.

ـ لم نكن نحن معشر الأطباء نشخص الأمور بهذه الطريقة ولا حتى في العصور الوسطى.

توقفا أمام العيادة. وكرر الأب أنخل للمرة الثانية في هذا اليوم، وهو يهوي ببطء، عبارة: «يجب ألا نعطي أهمية لأمور ليست لها». وأحس الدكتور خيرالدو أن يأساً خفياً يهز كيانه.

ـ وكيف تعرف يا أبتاه أنه لا صحة لشيء مما تقوله المنشورات؟

ـ أعرف ذلك من الاعترافات.

نظر الطبيب ببرود إلى عينيه، وقال:

- سيكون الأمر أخطر لو أنك لم تعرفه من خلال الاعترافات.

في ذلك المساء، لاحظ الأب أنخل أن الحديث يدور في بيوت الفقراء عن المنشورات أيضاً، إنما بطريقة مختلفة، بل وبسعادة صحية. تناول طعامه بلا شهية، بعد أن حضر القداس وهو يحس بشوكة ألم في رأسه عزاها إلى كرات اللحم التي تناولها على الغداء. بعد ذلك بحث عن التقييم الأخلاقي لفيلم السينما، وللمرة الأولى في حياته انتابه إحساس غامض بالتعالي عندما قرع الأجراس اثنتي عشرة مرة معلناً تحريم الفيلم تحريماً قاطعاً. وأخيراً وضع كرسياً أمام الباب المؤدي إلى الشارع، وكان يشعر بأن رأسه سينفجر من الألم، واستعد للتحقق علناً ممن سيدخلون السينما مخالفين تحذيره.

❖ ❖ ❖

دخل العمدة. وبينما هو قابع في إحدى زوايا الصالة، دخن سيجارتين قبل أن يبدأ عرض الفلم. كانت لثته قد شفيت تماماً من الالتهاب، لكن جسده ما زال يعاني من ذكرى الليلة الماضية ومن آثار المسكنات، وقد سببت له السجائر نوعاً من الغثيان.

كانت صالة السينما عبارة عن فناء محاط بجدار من الاسمنت، ومسقوف بألواح من التوتياء حتى منتصفه، وبعشب يبدو كأنه يستعيد الحياة كل صباح، مسمداً ببقايا اللبان وأعقاب السجائر. رأى العمدة للحظة أن المقاعد الخشبية تطفو، وكذلك العارضة الحديدية التي تفصل المقاعد عن الرواق، ورأى تموجات مترنحة في الفراغ المطلي باللون الأبيض على الجدار الداخلي، حيث يُعرض الفيلم.

أحس بالتحسن عندما أطفئت الأنوار. وحينئذ توقفت موسيقى الحاكي الصاخبة، ولكن ارتجاج المولد الكهربائي الموضوع في حجيرة خشبية إلى جانب آلة العرض أصبح كبيراً.

عرضوا قبل الفيلم بضع شرائح دعائية. وخرقت سكون العتمة للحظات قصيرة عدة همسات مخنوقة، وخطوات مرتبكة وضحكات متقطعة. ففكر العمدة، وقد انتابه قلق عابر، في أن هذا الدخول السري إلى السينما له مظهر التمرد على تعاليم الأب أنخل الصارمة.

كانت رائحة الكولونيا وحدها كافية لجعله يتعرف على صاحب دار السينما عندما مر قريباً منه. فهمس وهو يشده من ذراعه:

ـ عليك أن تدفع ضريبة خاصة أيها النصاب.

جلس صاحب السينما في المقعد المجاور وهو يضحك مطبقاً أسنانه، وقال:

ـ إنه فيلم جيد.

ـ أما أنا فأفضل أن تكون جميع الأفلام سيئة ـ قال العمدة ـ. لأنه لا وجود لما هو أكثر إثارة للملل من السينما الأخلاقية.

لم يكن هناك منذ سنوات من يحمل رقابة النواقيس على محمل الجد. لكن الأب أنخل كان يشير أثناء قداس الأحد إلى النساء اللواتي خالفن تعليماته على مدار الأسبوع ويطردهن من الكنيسة.

ـ كان الخلاص في الباب الخلفي الصغير ـ قال صاحب السينما.

كان العمدة قد بدأ بمتابعة الجريدة السينمائية القديمة المستهلكة. وكان يتوقف عن الكلام كلما ظهرت على الشاشة قضية تثير الاهتمام.

ـ الأمور على حالها في كل شيء ـ قال ـ. فالكاهن لا يقدم خبز القربان للنسوة اللواتي يرتدين ملابس قصيرة الأكمام. وهن يتابعن ارتداء ملابس ذات أكمام قصيرة، لكنهن يضعن أكماماً مستعارة قبل الدخول إلى الكنيسة.

بعد الجريدة السينمائية عرضوا مشاهد من فيلم الأسبوع القادم. فشاهدها بصمت. وعند انتهاء عرضها مال صاحب السينما نحو العمدة، وهمس:

ـ اشتر مني هذه الصالة أيها الملازم.

لم يرفع العمدة نظره عن الشاشة:

ـ ليست بتجارة.

فقال صاحب دار السينما:

ـ بالنسبة إليّ ليست كذلك. أما بالنسبة إليك فستكون منجماً من ذهب. وهذا طبيعي، فالكاهن لن يأتيك بقصة دقات النواقيس.

ـ سأنظر في الموضوع ـ قال العمدة.

لكنه لم يحسم الأمر. رفع قدميه على المقعد الذي أمامه وتاه في شعاب مأساة غامضة لا تستحق في نهاية المطاف، حسب رأيه، أربع دقات من الناقوس.

بعد خروجه من السينما توقف في صالة البلياردو، حيث كان يجري لعب اليانصيب. كان الجو حاراً، وكان المذياع يبث موسيقى كأنها الحجارة. وبعد أن تناول زجاجة مياه معدنية، مضى العمدة إلى النوم.

سار على ضفة النهر بلا أية هموم. كان يشعر بارتفاع ماء النهر في الظلام، وكذلك بهمس داخله وبرائحته التي كرائحة حيوان خرافي. وأمام باب حجرة النوم، قفز إلى الوراء وهو ينزع مسدسه من قرابه، وقال بصوت متهدج:

ـ اخرج إلى الضوء وإلا سأحرقك.

وخرج من الظلام صوت شديد العذوبة:

ـ لا تكن عصبياً أيها الملازم.

ظل واقفاً والمسدس في يده إلى أن خرج الشخص المختبئ إلى النور: كانت كاساندرا.

ـ لقد نجوت بأعجوبة ـ قال العمدة.

جعلها تصعد إلى غرفة النوم. وتحدثت كاساندرا خلال وقت طويل متبعة في ذلك أسلوباً ملتوياً. جلست على أرجوحة النوم، وبينما هي تتكلم، نزعت حذاءها ونظرت ببلاهة إلى أظافر قدميها المطلية بطلاء أحمر فاقع.

وبينما هو جالس قبالتها، يهوي بقبعته، تابع العمدة الحديث بأدب مصطنع. كان قد عاد إلى التدخين، ومدت باتجاهه ذراعاً مزينة بمجموعة من الأساور الرنانة، وقرصت أنفه قائلة:

ـ لقد تأخر الوقت يا صغيري. أطفئ النور.

ابتسم العمدة وقال:

ـ لم أستدعك لهذا.

لم تفهم ما يريد. وسألها العمدة:

ـ أتعرفين قراءة البخت؟

عادت كاساندرا للجلوس في الأرجوحة، وقالت: «بكل تأكيد». ثم انتعلت حذاءها، بعد أن أدركت ما يريده منها، وقالت:

ـ لكنني لم أحضر ورق اللعب معي.

فابتسم العمدة:

ـ من يأكل التراب لابد له من أن يحمل معه قطعة طين.

أخرج أوراق لعب مهترئة من قاع الحقيبة. وتفحصت هي كل ورقة، من وجهها وقفاها باهتمام جادّ، وقالت: «الورق الآخر أفضل، لكن المهم على أي حال هو التواصل». دفع العمدة طاولة صغيرة، وجلس أمامها، فوضعت كاساندرا أوراق اللعب عليها، وسألته:

ـ أتريد الحب أم المال؟

مسح العمدة العرق عن كفيه، وقال:

ـ المال.

احتمى حمار لا صاحب له من المطر تحت إفريز البيت الريفي، وأمضى الليل كله وهو يرفس جدار حجرة النوم. لقد كانت ليلة بلا راحة. وبعد أن توصل الأب أنخل إلى إغفاءة متعثرة، استيقظ وقد سيطر عليه إحساس بأنه مغطى بالتراب. إن أزهار الناردين الهاجعة تحت رذاذ المطر، ورائحة المرحاض، ثم جو الكنيسة الكئيب بعد تلاشي صدى دقات الساعة التي أعلنت الخامسة، كانت كلها تبدو كأنها تتواطأ لجعل ذلك الصباح صباحاً صعباً.

ومن حجرة المقدسات، حيث ارتدى ملابس القداس، أحس بوجود ترينيداد وهي تجمع محصولها من الجرذان الميتة. وبينما كان يدخل الكنيسة رأى النساء الصامتات بجفاء، كان لصوته باللاتينية نبرة فظة. ووصل في اللحظة الأخيرة إلى الإحساس بشعور الإحباط الذي كان يقلقه في ساعات النحس من حياته.

كان ماضياً لتناول الفطور عندما اعترضت ترينيداد طريقه وهي منفرجة الأسارير: «لقد أوقعت اليوم ستة جرذان أخرى»، قالت وهي تهز العلبة لتصدر صوت ارتطام الجرذان فيها. حاول الأب أنخل أن يتجاوز القلق، فقال:

ـ عظيم. على هذا المعدل، ستصبح القضية هي العثور على الجحور لإبادتها نهائياً.

كانت ترينيداد قد عثرت على الجحور. وأوضحت له كيف تمكنت من تحديد الثقوب في عدة أماكن من المعبد، وخصوصاً في البرج وفي موضع العماد، وكيف أنها سدتها بالزفت. وأنها

وجدت في الصباح جرذاً يضرب نفسه بالجدران بجنون بعد أن بحث طوال الليل عن باب جحره.

خرجا إلى البهو الصغير المرصوف بالأحجار حيث كانت أول شتلات الناردين قد بدأت بالانتصاب. تخلفت عنه ترينيداد لتلقي الجرذان الميتة في المرحاض. وعندما دخلت إلى المكتب، كان الأب أنخل يستعد لتناول الفطور بعد أن أزاح الشرشف الذي يظهر من تحته كل صباح ـ كما في شعوذة قديمة ـ طعام الفطور الذي تبعثه إليه الأرملة دي آسيس.

قالت ترينيداد وهي تدخل:

ـ لقد نسيت أن أخبرك بأنني لم أستطع شراء الزرنيخ. فدون لولا موسكوتي يقول إنه لا يبيعه إلا بإذن من الطبيب.

قال الأب أنخل:

ـ لن نحتاج إليه. فجميع الجرذان ستموت مختنقة في جحورها.

قرب الكرسي من الطاولة وبدأ بترتيب الفنجان والصحن الذي يحتوي شرائح من لحم الدجاج النظيف، وإبريق القهوة المزين برسم تنين ياباني. وبينما كانت ترينيداد تفتح النافذة، قالت: «من الأفضل أن نكون متأهبين دائماً إذا ما عادت الجرذان للظهور».

سكب الأب أنخل القهوة، ثم توقف فجأة ونظر إلى ترينيداد التي تقترب من المنضدة بفستانها الذي بلا شكل والحذاء الطبي الذي تنتعله لأنها فكحاء.

ـ إنك مهتمة كثيراً بهذا الأمر ـ قال لها.

لم يكتشف الأب أنخل حينئذ، كما لم يكتشف من قبل، أي علامة اضطراب في حاجبي ترينيداد الكثيفين المتشابكين. ودون أن يتمكن من إخفاء رعشة خفيفة في أصابعه، أكمل سكب

القهوة، ثم ألقى في الفنجان ملعقتين صغيرتين من السكر، وبدأ بتحريك القهوة وقد ثبت نظره على الصليب المعلق على الجدار.

- منذ متى لم تعترفي؟

- منذ يوم الجمعة - أجابته ترينيداد.

قال الأب أنخل:

- أخبريني، هل أخفيت عني خطيئة في يوم من الأيام؟

أنكرت ترينيداد بحركة من رأسها.

أغمض الأب أنخل عينيه. ثم توقف فجأة عن تحريك القهوة، ووضع الملعقة في الصحن، وأمسك بذراع ترينيداد قائلاً:

- اركعي.

وضعت ترينيداد صندوق الجرذان على الأرض وهي مرتبكة، وركعت أمامه. «ردّدي صلاة: أنا الخاطئة»، قال لها الأب أنخل، وقد أحرز صوته النبرة الأبوية المناسبة للاعتراف. أطبقت ترينيداد قبضتيها فوق صدرها، وراحت تصلي بهمهمة غير مفهومة، إلى أن وضع الأب يده على كتفها وقال:

- حسن.

- لقد كذبتُ - قالت ترينيداد.

- وماذا أيضاً؟

- خطرت لي أفكار شريرة.

هكذا كان ترتيب اعترافها دوماً. فهي تعدد دائماً الخطايا نفسها عموماً، وبالترتيب ذاته دائماً. أما في تلك المرة فإن الأب أنخل لم يستطع مقاومة الإسراع في التعمق، فقال:

- مثلاً.

- لست أدري - ترددت ترينيداد - أحياناً تخطر لي أفكار شريرة.

فأصر الأب أنخل قائلاً:

ـ ألم تخطر ببالك قطّ فكرة وضع حد لحياتك؟

ـ يا مريم الطاهرة ـ هتفت ترينيداد دون أن ترفع رأسها، وكانت تضرب في الوقت ذاته بفقرات أصابعها على شرشف المنضدة. ثم أجابت:

ـ لا، يا أبتاه.

أجبرها الأب أنخل على رفع رأسها، وأدرك بإحساس غامض، أن عيني الفتاة أخذتا تفيضان بالدمع.

ـ تعنين أنك تطلبين الزرنيخ من أجل الجرذان حقاً؟

ـ نعم يا أبتاه.

ـ لماذا تبكين إذن؟

حاولت ترينيداد خفض رأسها، لكنه أسند ذقنها بحزم. فأطلقت لدموعها العنان. أحس الأب أنخل بالدموع تسيل بين أصابعه مثل خلٍ فاتر.

ـ حاولي التماسك. فأنت لم تكملي اعترافك بعد ـ قال لها.

تركها تفضفض عن نفسها في بكاء صامت. وعندما أحس أنها انتهت من البكاء، قال لها برقة:

ـ حسناً، اخبريني الآن.

نفّت ترينيداد أنفها في التنورة، وابتلعت لعاباً كثيفاً ومالحاً بفعل الدموع، وحين بدأت الكلام من جديد، كانت قد استعادت صوتها الجهوري الغريب. قالت:

ـ عمي أمبروسو يلاحقني.

ـ وكيف هذا؟

ـ يريدني أن أسمح له بقضاء ليلة في فراشي ـ قالت ترينيداد.

ـ تابعي.

ـ لا شيء سوى هذا ـ قالت ترينيداد ـ أقسم بالرب المقدس أنه لا يوجد أكثر من هذا.

ـ لا تحلفي ـ قال لها الأب مؤنباً، ثم سألها بصوته الهادئ ككاهن: ـ أخبريني، مع من تنامين؟

فقالت ترينيداد:

ـ مع أمي والأخريات. سبع في غرفة واحدة.

ـ وهو؟

ـ في الغرفة الأخرى، مع الرجال ـ قالت ترينيداد.

ـ ألم يدخل قطّ إلى حجرتك؟

أنكرت ترينيداد برأسها.

فقال الأب أنخل بإصرار:

ـ أخبريني الحقيقة. هيا، دون أي خوف: ألم يحاول الدخول إلى غرفتك قطّ؟

ـ مرة واحدة.

ـ وكيف حدث ذلك؟

ـ لست أدري ـ قالت ترينيداد ـ عندما استيقظتُ أحسست به مندساً تحت الغطاء، كان ساكناً، وقال لي إنه لا يريد أن يفعل شيئاً بي، وإنما يريد أن ينام معي لأنه يخاف الديكة.

ـ أية ديكة؟

ـ لست أدري ـ قالت ترينيداد ـ هذا ما قاله لي.

ـ وأنت ماذا قلت له؟

ـ إذا لم تذهب فإنني سأصرخ حتى يستيقظ الجميع.

ـ وماذا فعل؟

ـ استيقظت كاستولا وسألتني عما يحدث، فقلت لها لا شيء،

وإنني كنت أحلم دون شك. وحينئذ ظل ساكناً، مثل ميت. ولم أنتبه إليه عندما انسل من تحت الغطاء.

فقال الأب أنخل بلهجة مؤكدة:

ـ كان مرتدياً ملابسه.

وقالت ترينيداد:

ـ كان بملابس النوم. وهي ليست سوى السروال الداخلي.

ـ ألم يحاول لمسك؟

ـ لا، يا أبتاه.

ـ أخبريني الحقيقة.

فأصرت ترينيداد:

ـ هذه هي الحقيقة يا أبتاه. أقسم لك بالرب المقدس.

رفع الأب أنخل رأسها من جديد، وواجه عينيها المضمختين ببريق حزين.

ـ ولماذا أخفيت عني كل هذا؟

ـ كنت خائفة.

ـ خائفة مم؟

ـ لست أدري يا أبتاه.

وضع يده على كتفها ونصحها مطولاً. وكانت ترينيداد توافق على ما يقوله بحركات من رأسها. وعندما انتهيا، راح يصلي معها بصوت خافت جداً: «سيدي يسوع، أيها الرب والإنسان الحقيقي..»، كان يصلي بعمق، مع بعض الرهبة، مستعيداً في ذهنه أثناء الترتيل ذكريات حياته، إلى الحد الذي تسعفه به الذكريات. وفي اللحظة التي منحها فيها المغفرة بدأت تسيطر على روحه أجواء الكارثة.

❖ ❖ ❖

دفع العمدة الباب، وصاح: «أيها القاضي». فظهرت زوجة القاضي أركاديو من غرفة النوم وهي تجفف يديها بتنورتها، وقالت:

ـ لم يأت منذ ليلتين.

فقال العمدة:

ـ اللعنة. ولم يحضر إلى المكتب يوم أمس. بحثتُ عنه في كل مكان لقضية مستعجلة ولم يستطع أحد أن يسعفني بالعثور عليه. أليست لديك فكرة عن المكان الذي قد يكون فيه؟

ـ لابد أنه في مكان تواجد العاهرات.

خرج العمدة دون أن يغلق الباب. ودخل إلى صالة البلياردو، حيث كان الغراموفون الآلي يطحن بأعلى صوته أغنية عاطفية، واتجه مباشرة إلى المقصورة الداخلية صارخاً: «أيها القاضي». توقف دون روكي، صاحب المحل، عن سكب محتويات زجاجات الروم في دمجانة كبيرة، وصاح قائلاً: «إنه ليس هنا أيها الملازم». عبر العمدة إلى الجانب الآخر من الباب. وهناك كانت عدة جماعات من الرجال الذين يلعبون الورق. ولم يكن أي منهم قد رأى القاضي أركاديو.

فقال العمدة:

ـ اللعنة. كل ما يفعله الناس في هذه القرية يعرفه الجميع، وعندما أحتاج الآن إلى القاضي، لا أجد من يعرف أين هو.

ـ اسأل عنه من يعلق المنشورات ـ قال دون رومي.

ولم يكن القاضي في مكتبه أيضاً، كانت الساعة تشير إلى التاسعة، لكن سكرتير القاضي كان يغفو في ممر البهو. ذهب العمدة إلى مركز الشرطة، وأمر ثلاثة من رجاله بارتداء ملابسهم وبعث بهم للبحث عن القاضي أركاديو في صالة الرقص، وفي غرف نساء سريات يعرفهن الجميع. ثم خرج إلى الشارع دون أن يتخذ

وجهة محددة. وفي صالون الحلاقة، وجد القاضي أركاديو يجلس على الكرسي مباعداً بين ساقيه ووجهه مغطى بمنشفة دافئة. فصاح:

ـ اللعنة أيها القاضي. منذ يومين وأنا أبحث عنك.

رفع الحلاق المنشفة، ورأى العمدة عينين منتفختين وذقناً سوداء بسبب لحية لم تحلق منذ ثلاثة أيام.

قال للقاضي:

ـ أنت تهيم ضائعاً بينما امرأتك تضع مولودها.

انتفض القاضي أركاديو على الكرسي:

ـ خراء.

أطلق العمدة ضحكة مجلجلة، وقال وهو يدفعه إلى مسند الكرسي: «لا تكن رعديداً. إنني أبحث عنك لأمر آخر». أسند القاضي أركاديو ظهره من جديد بعد أن أغمض عينيه. فقال العمدة:

ـ انته من هذا وتعال إلى المكتب. إني بانتظارك.

ثم جلس على مقعد وسأله:

ـ في أي جحيم كنت؟

ـ هنا ـ قال القاضي.

لم يكن العمدة يتردد على صالون الحلاقة كثيراً. وكان قد رأى في إحدى المرات الإعلان المعلق على الجدار: ممنوع التكلم بالسياسة، لكنه بدا له شيئاً طبيعياً حينها. ومع ذلك فقد لفت الإعلان انتباهه اليوم، فنادى:

ـ غوارديولا.

مسح الحلاق الموسى بسرواله وتوقف عن عمله.

ـ ماذا هناك أيها الملازم؟

ـ من الذي سمح لك بتعليق هذا؟ ـ سأله العمدة مشيراً إلى الإعلان.

ـ التجربة ـ قال الحلاق.

سحب العمدة كرسياً لا مسند له إلى أقصى الصالون وصعد عليه لينزع الإعلان. وقال:

ـ من له صلاحية المنع هنا هو الحكومة. إننا في ديمقراطية.

عاد الحلاق إلى عمله. «لا أحد يستطيع منع الناس من التعبير عن أفكارهم»، أضاف العمدة وهو يمزق قطعة الورق المقوى. ثم ألقى بأجزائها إلى سلة القمامة ومضى إلى المغسلة ليغسل يديه.

وأبدى القاضي أركاديو رأيه في الموضوع قائلاً:

ـ أرأيت يا غوارديولا ما الذي يصيبك لأنك تتصرف كضفدع.

بحث العمدة عن الحلاق في المرآة ووجده غارقاً في عمله. ولم يرفع نظره عنه وهو يمسح يديه، وقال:

ـ الفرق بين ما مضى وما نحن فيه الآن هو أن السياسيين كانوا في السابق هم الذين يقودون، أما الآن فالحكومة هي التي تقود.

وقال القاضي أركاديو ووجهه مطلي برغوة الصابون:

ـ ها أنتذا قد سمعت ما قاله يا غوارديولا.

ـ وكيف لا ـ قال الحلاق.

وعند خروجهما، قاد العمدةُ القاضي أركاديو باتجاه المكتب. كانت الشوارع تبدو تحت رذاذ المطر المتواصل كأنها مرصوفة بصابون مرقش.

قال العمدة:

ـ لقد كنتُ دوماً على يقين بأن هذا المكان ما هو إلا وكر متآمرين.

فقال القاضي أركاديو:

ـ إنهم يتكلمون، لكنهم لا يتجاوزون ذلك.

ورد العمدة:

ـ وهذا هو بالذات ما يقلقني، إنهم وديعون إلى أبعد الحدود.

فقال القاضي معرباً عن رأيه:

ـ لم يعرف تاريخ البشرية حلاقاً واحداً تعاطى التآمر. وليس هناك بالمقابل خياط لم ينخرط في ذلك.

لم يترك ذراع القاضي أركاديو إلى أن أجلسه على الكرسي الدوار. ودخل السكرتير إلى المكتب متثائباً وهو يحمل ورقة مكتوبة على آلة كاتبة. «هكذا، هيا إلى العمل». ألقى بقبعته إلى الوراء وتناول الورقة.

ـ ما هذا؟

ـ إنها للقاضي ـ قال السكرتير ـ قائمة بأسماء الأشخاص الذين لم تعلق بهم منشورات.

بحث العمدة عن القاضي أركاديو وقد بدت عليه أمارات الحيرة، وهتف:

ـ آه، كاراخو! أنت أيضاً منهمك في هذه اللعنة إذاً.

فقال القاضي محاولاً الابتعاد عن الموضوع:

ـ إنها كقراءة الروايات البوليسية.

قرأ العمدة القائمة.

ـ إنها فرضية جديدة ـ قال السكرتير موضحاً ـ. لابد أن يكون الفاعل أحد هؤلاء. أليس هذا منطقياً؟

انتزع القاضي أركاديو الورقة من العمدة، وقال موجهاً حديثه إليه: «إنه أحمق في مؤخرته». ثم اتجه إلى السكرتير قائلاً: «لو كنت أنا من يعلق المنشورات، فإن أول ما سأفعله هو تعليق منشور على بيتي بالذات لأبعد عن نفسي أية شبهات». ثم سأل العمدة:

ـ ألا تظن ذلك أيها الملازم؟

فقال العمدة:

ـ إنها شؤون الناس، وهم يعرفون كيف يرتبونها. ليس لنا أن ندخل في هذه الأمور.

مزق القاضي أركاديو الورقة، وجعل منها كرة ألقى بها إلى الفناء قائلاً:

ـ بكل تأكيد.

وقبل هذه الإجابة، كان العمدة قد نسي الأمر كله. أسند راحتيه إلى الطاولة وقال:

ـ حسن، القضية التي أريدك أن تبحث عنها في كتبك هي التالية: بسبب الفياضانات، نقل أهالي الحي السفلي بيوتهم إلى الأرض التي وراء المقبرة، وهي أرض من أملاكي الخاصة. فما الذي عليّ عمله في هذه الحالة؟

ابتسم القاضي أركاديو وقال:

ـ لم يكن المجيء إلى المكتب ضرورياً من أجل هذا. إنها أبسط قضية في الدنيا: البلدية تخصص الأرض للمستوطنين وتدفع التعويض المناسب لمن يثبت أنه يمتلكها بتسجيل صحيح وقانوني.

ـ لدي الوثائق ـ قال العمدة.

وقال القاضي:

ـ لم يبق إذاً سوى تعيين مختصين ليقوموا بالتثمين. والبلدية تدفع.

ـ ومن يعينهم؟

ـ بإمكانك أنت بالذات تعيينهم.

مشى العمدة نحو الباب وهو يشد قراب المسدس ليضعه في مكانه الصحيح. وفكر القاضي وهو يراه يبتعد في أن الحياة ليست

سوى تتابع فرص متتالية من أجل البقاء على قيد الحياة. فابتسم قائلاً:

- يجب الا تقلق هكذا من أجل قضية بهذه البساطة.

- لست قلقاً، ولكنها قضية على أي حال - قال العمدة بجد.

فتدخل السكرتير:

- عليك أن تعين الوكيل أولاً دون شك.

واتجه العمدة إلى القاضي:

- أهذا صحيح؟

قال القاضي:

- ليس ذلك ضروري في حالة الطوارئ القائمة - قال القاضي -، ولكن وضعك سيكون أنظف بكل تأكيد إذا ما تدخل وكيل مختص في الصفقة، لاسيما أن المصادفة جعلتك صاحب الأرض موضع الخلاف.

- يجب تعيينه إذاً - قال العمدة.

❖ ❖ ❖

وضع السيد بنجامين إحدى قدميه مكان الأخرى على مسند صندوق ماسح الأحذية دون أن يرفع نظره عن طيور الرخمة التي كانت تتنازع قطع أحشاء في وسط الشارع. راقب هذه الحيوانات المهيبة المتثاقلة، ذات الحواصل المنتفخة، وكأنها تؤدي رقصة قديمة، وقدر عالياً الدقة التمثيلية للرجال الذين يتنكرون كطيور رخمة في يوم الأحد الخمسيني. طلى الصبي الجالس عند قدميه فردة الحذاء الأخرى بأوكسيد الزنك وطرق على الصندوق طالباً استبدال القدم التي على المسند.

السيد بنجامين الذي كان يكسب قوته في زمن آخر من

كتابة مذكرات عرض الحال، لم يكن مستعجلاً لأي شيء. لقد كان للوقت سرعة غير ملموسة في هذه الدكان التي راح يأكلها سنتافو بعد آخر، إلى أن جعلها تقتصر على غالون بترول وحفنة من شموع الشحم.

ـ الطقس حار رغم هطول المطر ـ قال الفتى.

لم يكن السيد بنجامين متفقاً معه. كان يرتدي ملابس كتانية ناصعة البياض. أما الفتى فكان ظهره مبللاً بالعرق.

وقال السيد بنجامين:

ـ الحر مسألة ذهنية. كل ما في الأمر ألا نوليه اهتماماً.

لم يعلق الفتى بشيء. وضرب مجدداً على الصندوق. وبعد هنيهة من ذلك كان العمل قد انتهى. ارتدى السيد بنجامين سترته وهو في دكانه الكئيب ذي الخزائن الفارغة. ثم وضع على رأسه قبعة من القش المجدول، واجتاز الشارع محتمياً من المطر بالمظلة، وطرق على نافذة البيت المقابل. أطلت من النافذة المفتوحة صبية ذات شعر أسود فاحم وبشرة شديدة الشحوب.

قال السيد بنجامين:

ـ صباح الخير يا مينا. ألم تذهبي لتناول الغداء بعد؟

قالت لا ، وفتحت النافذة. كانت تجلس أمام سلة كبيرة ممتلئة بأسلاك مقطوعة وأوراق ملونة. وكانت هناك اسطوانة تصدح في الفونوغراف.

قال لها السيد بنجامين:

ـ اعملي معروفاً بالانتباه إلى الدكان ريثما أعود.

ـ هل ستتأخر؟

فقال السيد بنجامين الذي كان يصغي للأسطوانة:

ـ سأذهب إلى طبيب الأسنان. وسأعود بعد أقل من نصف ساعة.

قالت مينا:

ـ آه، لا بأس. العجوز لا تريدني أن أطيل البقاء وراء النافذة.

توقف السيد بنجامين عن الإصغاء للأسطوانة. وعلق قائلاً: «جميع الأغنيات صارت متشابهة هذه الأيام». ثبتت مينا وردة مكتملة الصنع في طرف سلك ملفوف عليه ورق أخضر، ثم فتلتها بين أصابعها وهي مأخوذة بالانسجام التام بين موسيقى الأسطوانة والوردة، وقالت:

ـ أنت معاد للموسيقى.

لكن السيد بنجامين كان قد انصرف، وكان يسير على رؤوس أصابعه كي لا يُفزع طيور الرخمة. ولم تعد مينا إلى عملها إلى أن رأته يقرع باب عيادة طبيب الأسنان.

قال طبيب الأسنان وهو يفتح الباب:

ـ إنني أرى حساسية الحرباء في عينيك.

وقال السيد بنجامين موافقاً:

ـ هذا ممكن. ولكن ما الذي تريده بهذا القول؟

فقال طبيب الأسنان:

ـ لقد سمعت الآن من المذياع أن الحرباء العمياء لا تبدل لونها.

بعد أن وضع المظلة المفتوحة في أحد الأركان، علق السيد بنجامين السترة والقبعة على المسمار نفسه ثم جلس على المقعد. كان طبيب الأسنان يخفق في الهاون عجينة وردية اللون.

ـ إنهم يقولون أشياء كثيرة ـ قال السيد بنجامين. كان يتكلم بلهجة غامضة، ليس الآن فقط، وإنما في جميع الأحوال.

ـ عن الحرباء؟

ـ عن الجميع.

اقترب طبيب الأسنان من الكرسي وهو يحمل العجينة الجاهزة ليطبع بها القالب. نزع السيد بنجامين أسنانه الاصطناعية المشققة، ولفها بمنديل ووضعها على الرف الزجاجي إلى جانب الكرسي. لقد كان فيه شيء من القديسين وهو بلا أسنان، بكتفيه الضيقتين وأعضائه الضامرة. وبعد أن ثبت له العجينة في حلقه، جعله الطبيب يطبق فمه، وقال له وهو ينظر إلى عينيه:

ـ هكذا إذن. أنا جبان.

حاول السيد بنجامين أن يأخذ نفساً عميقاً، لكن الطبيب أبقى فمه مطبقاً. فقال في دخيلته: «لا. ليس كذلك». كان يعلم، كما يعلم الجميع، أن طبيب الأسنان هو الوحيد الذي لم يهجر بيته بين المهددين بالموت. لقد خرقوا جدران بيته بالرصاص، ومنحوه مهلة 24 ساعة لمغادرة البلدة، لكنهم لم يتمكنوا من كسره. لقد نقل عيادته إلى غرفة داخلية، وكان يشتغل والمسدس في متناول يده، دون أن يفقد أعصابه، إلى أن انقضت شهور الإرهاب الطويلة.

وخلال الوقت الذي استغرقته العملية، رأى طبيب الأسنان الجواب نفسه ينعكس في عيني السيد بنجامين بدرجات متفاوتة من الغم. لكنه أبقى له فمه مطبقاً، بانتظار أن تجف العجينة. وبعد ذلك نزع القالب.

فانطلق السيد بنجامين ليفرج عن نفسه:

ـ لست أعني هذا. بل أعني المنشورات.

وقال طبيب الأسنان:

ـ آه، أنت مهتم إذاً بهذه المسألة أيضاً.

ـ إنها مؤشر على الانحلال الاجتماعي ـ قال السيد بنجامين.

كان قد أعاد وضع أسنانه الاصطناعية، وبدأ بعملية ارتداء السترة الدقيقة. فقال الطبيب دون مبالاة:

ـ هذا مؤشر إلى أن كل شيء سينكشف عاجلاً أو آجلاً.

ثم نظر إلى السماء المعكرة من خلال النافذة، وتابع قائلاً:

ـ انتظر حتى يتوقف المطر إذا شئت.

علق السيد بنجامين المظلة بذراعه. وقال وهو يتأمل بدوره الغيوم المحملة بالأمطار: «لا أحد في الدكان». ثم حيا بقبعته مودعاً. وقال وهو عند الباب:

ـ وانزع هذه الفكرة من رأسك يا أوريليو. فليس لأحد الحق بأن يفكر في أنك جبان لكونك قلعت ضرساً للعمدة.

ـ إذا كان الأمر كذلك فانتظر ثانية واحدة ـ قال الطبيب.

تقدم نحو الباب وأعطى السيد بنجامين ورقة مطوية.

ـ اقرأها وأعطها لغيرك.

لم يكن السيد بنجامين بحاجة إلى فتح الورقة ليعرف ما تضمنته. بل نظر إليه فاغراً فمه:

ـ ثانية؟

وأشار طبيب الأسنان برأسه مؤكداً، وظل واقفاً عند الباب إلى أن خرج السيد بنجامين.

نادته زوجته في الساعة الثانية عشرة لتناول الطعام. كانت ابنته أنخيلا ترفو جورباً في صالة الطعام المفروشة بأثاث بسيط وفقير تبدو بعض قطعه كأنها عتيقة مذ وجدت. وعلى الإفريز الخشبي المؤدي إلى البهو، كان يوجد صف من الأصص المطلية باللون الأحمر تنمو فيها نباتات طبية.

قال طبيب الأسنان وهو يحتل مقعده إلى المنضدة المستديرة:

ـ يا للمسكين بنجامين. إنه مشغول بالمنشورات.

ـ الجميع مشغولون بها ـ قالت زوجته.

وتدخلت أنخيلا:

ـ نساء آل توفار يغادرن البلدة.

تناولت الأم الأطباق لتسكب الحساء، وقالت: «انهن يبعن كل ما يملكن بسرعة».

وبينما هو يتنشق رائحة الحساء الدسمة، أحس طبيب الأسنان أنه بعيد عن اهتمامات زوجته، وقال:

ـ سيرجعن. فللعار ذاكرة ضعيفة.

وبينما هو ينفخ على الملعقة قبل أن يتناول الحساء، انتظر تعليق ابنته الصبية التي لها ملامح كملامحه، فيها شيء من الجفاف، بينما تنبعث من عينيها رغم ذلك حيوية غريبة. لكنها لم ترد كما كان ينتظر، بل تكلمت عن السيرك. قالت إن هناك رجلاً يقطع زوجته بمنشار إلى نصفين، وقزم يغني ورأسه محشور في فم الأسد، وثالث يقفز القفزة الثلاثية القاتلة على الأرجوحة البهلوانية، فوق دائرة من السكاكين. واستمع إليها طبيب الأسنان وهو يأكل بصمت. ووعد أخيراً بأنهم سيذهبون جميعاً إلى السيرك هذه الليلة، إذا لم يهطل المطر.

وعندما كان يعلق أرجوحته في حجرة النوم لينام القيلولة، انتبه إلى أن وعده الذي قطعه لم يغير شيئاً من مزاج زوجته. فقد كانت على استعداد لمغادرة البلدة أيضاً إذا علقوا لها منشوراً.

أصغى طبيب الأسنان إليها بلا استغراب. وقال: «سيكون في ذلك إتاحة الفرصة لهم لإخراجنا من هنا بورقة معلقة على الباب، بعد أن عجزوا عن طردنا بالرصاص». ثم خلع حذاءه واستلقى على الأرجوحة دون أن يخلع جوربيه. وقال لها مطمئناً:

ـ ولكن لا تقلقي، فليس هنالك أدنى احتمال بأنهم سيعلقون منشوراً بنا.

ـ إنهم لا يحترمون أحداً ـ قالت المرأة.

فقال طبيب الأسنان:

ـ الأمر نسبي، لأنهم يعلمون أن الثمن سيكون مختلفاً معي.

استلقت المرأة على السرير وهي تبدو منهوكة إلى أقصى الحدود.

ـ لو أننا نعرف من الذي يعلقها على الأقل.

ـ من يعلقها يعرف ذلك ـ قال طبيب الأسنان.

❖ ❖ ❖

كان العمدة معتاداً على قضاء أيام كاملة دون تناول أي طعام. إنه بكل بساطة ينسى ذلك. فنشاطه المحموم في بعض المناسبات، كان غير منتظم مثله كمثل فترات البطالة والملل الطويلة التي يمضيها متسكعاً في القرية دون هدف معين، أو حابساً نفسه في مكتبه المصفح، غافلاً عن مرور الوقت. إنه وحيد دائماً، وغارق في أفكاره. لم تكن له هواية خاصة، وهو لا يتذكر أنه تقيد في أية مرحلة من حياته بعادات منتظمة. إنه يظهر في الفندق في أية ساعة، مدفوعاً للذهاب إلى هناك بإحساس لا يستطيع دفعه، حيث يأكل أي شيء يقدمونه إليه.

تناول غداءه في ذلك اليوم بصحبة القاضي أركاديو. وبقيا معاً طوال ما بعد الظهر، إلى أن تم ترتيب عملية بيع الأرض. لقد قام الخبراء المختصون بواجبهم. والوكيل الذي عين بصفة مؤقتة، مارس مهام وظيفته لمدة ساعتين. وبعد الساعة الرابعة بقليل، لدى دخولهما إلى صالة البلياردو، كانا يبدوان كأنهما قادمان من غارة مضنية قاما بها على المستقبل.

- وهكذا انتهينا - قال العمدة وهو ينفض راحتيه.

لم يوله القاضي أركاديو اهتماماً. ورآه العمدة وهو يبحث دون وعي عن مقعد إلى جوار الكونتوار، فقدم إليه قرصاً مسكناً، وأمر دون روكي قائلاً:

- هات كأساً من الماء.

فقال القاضي أركاديو مصححاً وهو يسند جبهته على الكونتوار:

- بل بيرة مثلجة.

- بيرة مثلجة - صحح العمدة ما كان قد قاله، ثم أضاف وهو يضع النقود على الكونتوار: - لقد كسبها بعرق جبينه.

وبعد أن تناول البيرة، فرك القاضي أركاديو رأسه ذا الشعر الكثيف بأصابعه. كان المحل يضج بجو احتفالي، بانتظار استعراض السيرك.

رأى العمدة الاستعراض من صالة البلياردو، حيث مرت أول الأمر فتاة ترتدي ثوباً مفضضاً وتهتز مع إيقاع نحاسيات الفرقة الموسيقية فوق ظهر فيل قزم له أذنان كأوراق المانجا. بعد ذلك مر المهرجون وذوو الأسمال. كان المطر قد توقف تماماً، وأخذت أشعة الشمس الأخيرة تدفئ المساء المغسول. وعندما توقفت الموسيقى، ليتمكن الرجل الذي يقف على ساقين خشبيتين طويلتين من قراءة الإعلان، بدت القرية بأسرها وكأنها قد ارتفعت عن الأرض بصمت إعجازي.

احتفظ الأب أنخل، الذي رأى الاستعراض من مكتبه، بإيقاع الموسيقى في رأسه. وقد رافقه ذلك الشعور بالرخاء المستحضر من الطفولة أثناء تناوله الطعام، ثم في بداية الليل، عندما انتهى من مراقبة السينما ووجد نفسه مجدداً مع نفسه في حجرة النوم. وبعد أن

أدى الصلاة، استكان على الكرسي الهزاز في غيبوبة يرافقها أنين خافت، دون أن ينتبه إلى الساعة عندما دقت معلنة التاسعة، ولا إلى توقف مكبر الصوت في السينما وحلول معزوفة ضفدعية محله. ثم مضى من هناك إلى منضدة العمل ليكتب استدعاء موجهاً إلى العمدة.

ومن أحد مقاعد الشرف في السيرك، شاهد العمدة الذي حضر، بدعوة من صاحب السيرك، الفقرة الأولى التي أداها ذوو الأسمال وكذلك خروج المهرجين. بعد ذلك ظهرت كاساندرا، وكانت ترتدي ثوباً من القطيفة السوداء، لتحزر وهي معصوبة العينين ما يدور في ذهن الحاضرين. خرج العمدة هارباً، وقام بجولة روتينية في القرية، ليذهب في الساعة العاشرة إلى مركز الشرطة. وهناك كانت تنتظره دعوة الأب أنخل المكتوبة على بطاقة ورقية بخط منمق. وقد استثارته صيغة الدعوة المحافظة.

كان الأب أنخل قد بدأ بخلع ملابسه عندما طرق العمدة الباب. قال الكاهن: «يا للعجب! لم أكن أنتظر قدومك بهذه السرعة». رفع العمدة قبعته قبل أن يدخل، وقال باسماً:

- إنني أحب الردّ على الرسائل.

ألقى قبعته بحركة دورانية وكأنها أسطوانة، على الكرسي الهزاز. كانت هناك تحت دن الماء عدة زجاجات مياه غازية وضعت لتبرد بالماء الذي يرشح منه. أخرج الأب أنخل إحداها:

- أتشرب الليمونادة؟

وافق العمدة.

- لقد تسببت في إزعاجك - قال الكاهن، ثم أضاف ليدخل في الموضوع: ـ كي أعرب لك عن قلقي من عدم مبالاتك في مسألة المنشورات.

قال ذلك بطريقة يمكن اعتبارها مزاحاً، لكن العمدة فهم ما قاله بحذافيره. وتساءل بحيرة كيف أمكن لقضية المنشورات أن تجر الأب أنخل إلى هذا الحد.

- من المستغرب أن تكون أنت أيضاً، يا أبتاه، مهتماً بهذا الأمر.

كان الأب أنخل يبحث في أدراج المنضدة عن فتاحة الزجاجات.

- ليست المنشورات بحد ذاتها هي ما يثير قلقي - قال مبهوراً، دون أن يعرف ما الذي يفعله بزجاجة المياه الغازية التي في يده: - فلنقل إن ما يقلقني هو حالة الظلم في هذا كله.

انتزع العمدة الزجاجة من يده وفتحها بحذوة جزمته، بحركة حاذقة من يده اليسرى مما لفت انتباه الأب أنخل. ثم لحس ما فاض من الرغوة على عنق الزجاجة.

- لكلٍّ حياته الخاصة - بدأ العمدة الكلام، دون أن يكون قد فكر في نتيجة محددة: - وبجدية يا أبتاه، أنا لا أعرف ما الذي أستطيع عمله.

جلس الأب وراء منضدة العمل وقال: «عليك أن تعرف. فالأمر في نهاية المطاف ليس جديداً عليك». جال ببصره في أنحاء الحجرة، ثم قال بلهجة مختلفة:

- ويجب أن تفعل شيئاً قبل يوم الأحد.

- اليوم هو الخميس - قال العمدة موضحاً.

- إنني أولي الوقت اهتماماً - ردّ الأب، ثم أضاف بإشارة خفيفة: - وربما لا يكون الوقت قد تأخر على قيامك بواجبك.

حاول العمدة لمس عنق الزجاجة. ورآه الكاهن وهو يسير من جانب إلى آخر في الحجرة، هادئاً ونحيلاً، دون أية علامة تدل على نضجه الجسدي، فانتابه إحساس بالنقص. وقال مؤكداً:

ـ وكما ترى، فالأمر لا يحتاج لشيء استثنائي.

دقت ساعة البرج معلنة الحادية عشرة. وانتظر العمدة إلى أن تلاشت أصداء آخر دقة ثم انحنى أمام الأب، مسنداً يديه إلى المنضدة. كانت على وجهه ملامح القلق المقهور ذاتها التي سيكشف صوته عنها:

ـ انظر يا أبتاه، إن القرية تنعم بالاستقرار، والناس بدؤوا يولون السلطة ثقتهم. وسيكون اتخاذ أية إجراءات عنيفة في هذا الوقت مخاطرة كبيرة جداً في سبيل مسألة ليست ذات شأن.

وافق الأب بحركة من رأسه. وحاول أن يشرح وجهة نظره:

ـ ما أعنيه عموماً، هو اتخاذ بعض الإجراءات السلطوية.

وتابع العمدة دون أن يغير من وضعه:

ـ على أية حال، أنا آخذ النتائج بعين الاعتبار. وكما تعلم فإن لديَّ ستة من رجال الشرطة محبوسين في المركز، يتقاضون رواتبهم دون أن يقوموا بأي عمل. ولم أتمكن من استبدالهم بآخرين.

ـ أعرف ذلك ـ قال الأب ـ وأنا لا أحملك المسؤولية في شيء.

وتابع العمدة بحدة دون أن يهتم للمقاطعة:

ـ حالياً، لم يعد سراً أن ثلاثة منهم هم مجرمون عاديون، أُخرجوا من السجن وأُلبسوا زي الشرطة. ولن أخاطر في ظروف كهذه بإفلاتهم في الشوارع ليصطادوا شبحاً.

فتح الأب أنخل ذراعيه:

ـ طبعاً، طبعاً ـ ثم أضاف بحزم: ـ هذا خارج أي حساب بكل تأكيد. ولكن، لماذا لا تلجأ إلى المواطنين الصالحين مثلاً؟

شد العمدة ظهره وهو يجرع من الزجاجة بفتور. كان صدره وظهره مبللين بالعرق. وقال:

- إن المواطنين الصالحين الذين تتحدث عنهم، يموتون ضاحكين من قضية المنشورات.

- ليس الجميع.

- أضف إلى ذلك إنه ليس من العدل استنفار الناس من أجل مسألة لا تستحق مثل هذا العناء في نهاية الأمر. - وختم حديثه قائلاً بمزاج رائق: - بصراحة يا أبتاه، لم يخطر لي قبل هذه الليلة، أن هناك ما يعنينا، أنا وأنت، في هذه المسألة.

اتخذ الأب أنخل موقفاً أمومياً. «هذا صحيح إلى حد ما»، رد عليه وهو يبدأ عرض مسوغ اجتهد في إعداده وضمنه فقرات ناضجة من الموعظة التي باشر بتحضيرها في ذهنه منذ اليوم السابق ليوم الغداء عند الأرملة دي آسيس.

وانتهى قائلاً:

- إن المسألة، إذا صح التعبير، هي قضية إرهاب ضد النظام الأخلاقي.

ابتسم العمدة بسماحة، وقال بطريقة تكاد تكون مقاطعة لحديث الأب: «حسن، حسن، لكن هذا يستدعي فلسفة قضية هذه القصاصات يا أبتاه». ثم وضع الزجاجة على الطاولة دون أن يشربها كاملة، وتابع وهو على أفضل حال:

- إذا كنت تصور الأمور لي بهذا الحجم فلابد من التفكير بإجراء أقوم به.

شكره الأب أنخل. وكشف له أن الأمر لن يكون لطيفاً لو أنه صعد يوم الأحد القادم إلى المنبر وهو يحمل هموماً كهذه. وكان العمدة قد حاول تفهم وجهة نظره. لكنه انتبه إلى أن الوقت قد تأخر وأنه جعل الكاهن يطيل السهر.

عاد قارع الطبل للظهور كشبح من الماضي. لقد انبثق أمام صالة البلياردو في العاشرة صباحاً، وأمسك بالقرية كلها من مركز توازنها، إلى أن دوّت دقات الختام القوية الثلاث وانتشر القلق.

هتفت أرملة مونتيل، وهي ترى أبواباً ونوافذ تُفتح، وأناساً يخرجون من جميع الأنحاء صوب الساحة:

ـ الموت! لقد جاء الموت!

وكاستجابة للانطباع الأولي، فتحت ستائر الشرفة ورأت الحشد الملتف حول رجل الشرطة الذي كان يستعد لقراءة البلاغ الرسمي. كان يخيم على الساحة صمت شديد يقطعه صوت المنادي. ورغم الاهتمام الذي أبدته للاستماع، بوضع كفها وراء أذنها، فإن أرملة مونتيل لم تتمكن من فهم أكثر من كلمتين.

لم يستطع أحد ممن في البيت إعطاءها الخبر اليقين. لقد تمت قراءة البيان بالمراسم السلطوية نفسها التي ترافقه دائماً. إن نظاماً جديداً يسود الدنيا وهي لا تجد مَن فهم فحواه. غطى الشحوب وجه الطاهية:

ـ ماذا كان في البلاغ؟

ـ هذا ما أحاول الاستفسار عنه، ولكن ليس هناك من يعرف شيئاً ـ ثم أضافت الأرملة: ـ إنما المعروف، منذ أصبحت الدنيا دنيا أن البلاغ لا يحمل شيئاً طيباً.

حينئذ خرجت الطاهية إلى الشارع، وعادت بالتفاصيل. سيُفرض حظر التجوال اعتباراً من هذه الليلة وحتى انتفاء الأسباب التي دعت

إليه. لا أحد يستطيع الخروج إلى الشارع بعد الساعة الثامنة، وحتى الخامسة صباحاً، دون تصريح موقّع وممهور من العمدة. ولدى الشرطة تعليمات بطلب التوقف ثلاث مرات من أي شخص يتواجد في الشارع، وإذا لم يمتثل فإن لديهم أوامر بإطلاق النار. وسينظم العمدة دوريات من مدنيين يختارهم بنفسه ليتعاونوا مع الشرطة في الحراسة الليلية.

وبينما أرملة مونتيل تقضم أظافرها، تساءلت عن أسباب هذا الإجراء.

فأجابت الطاهية:

- لم يذكروها في البلاغ، لكن الجميع يقولون: المنشورات.

هتفت الأرملة مذعورة:

- لقد حدثني قلبي بذلك. إن الموت جاهز للانفلات في هذه البلدة.

بعثت في طلب السيد كارميتشيل، مستجيبة بذلك لدوافع قديمة وناضجة لديها أكثر من استجابتها لدافع آني. ثم أمرت بأن يُحضروا من المستودع إلى حجرتها الصندوق الجلدي ذا الأقفال النحاسية الذي اشتراه خوسيه مونتيل من أجل الرحلة الوحيدة التي قام بها، قبل وفاته بعام واحد. أخرجت من الخزانة بعض الفساتين والملابس الداخلية والأحذية، ورتبت كل ذلك في قاع الصندوق. وبينما هي تقوم بهذه المهمة بدأت تشعر بالراحة المطلقة التي طالما حلمت بها، متخيلة نفسها في مكان بعيد عن هذه القرية وهذا البيت، في حجرة فيها موقد وشرفة عليها صفائح تزرع فيها نبات الأوريغانو البري، حيث يكون لها وحدها الحق بتذكر خوسيه مونتيل، ويكون همها الوحيد هو انتظار أصيل أيام الاثنين لتقرأ رسائل بناتها.

كانت قد وضعت الملابس الضرورية، وقراب المقصات الجلدي، ولصقات الجروح، وزجاجة اليود وأدوات الخياطة، وبعد ذلك وضعت صندوق الأحذية والمسبحة وكتب الصلوات، وبدأت تقلقها فكرة أنها أخذت من الأمتعة أكثر مما يغفره لها الرب. حينئذ دست تمثال القديس رافائيل الجبسي في جراب ووضعته بتأن وسط مجموعة من الخرق وأقفلت الصندوق بالمفتاح.

عندما جاء السيد كارميتشيل وجدها ترتدي أكثر ملابسها تواضعاً. وكعلامة فارقة في ذلك اليوم، لم يكن السيد كارميتشيل يحمل مظلته. لكن الأرملة لم تتنبه لذلك. أخرجت من جيبها كل مفاتيح البيت، وقد عُلّقت بكل واحد منها قصاصة صغيرة من الورق المقوى مكتوب عليها بحروف الآلة الكاتبة التعليمات الخاصة بمكان استخدامه، وسلمته إياها قائلة:

- إني أضع بين يديك عالم خوسيه مونتيل الآثم. افعل به ما يحلو لك.

فقال مخمناً:

- أتعنين أنك تودين الذهاب إلى مكان آخر ريثما تنقضي هذه الأحداث؟

- إنني ذاهبة إلى الأبد.

وعرض عليها السيد كارميتشيل الوضع بإيجاز دون أن يبدي فزعه. إن ميراث خوسيه مونتيل لم تتم تصفيته بعد. وجزء كبير من الممتلكات التي اقتناها كيفما اتفق ودون أن يكون لديه الوقت الكافي لإتمام إجراءات تسجيلها مازالت في وضع قانوني مبهم. وما لم يُنظم هذا الإرث المضطرب، والذي لم يكن لدى خوسيه مونتيل نفسه في سنواته الأخيرة تصور تقريبي له، فإنه من المستحيل تصفية

التركة. فعلى ابنها الأكبر الذي يشغل منصباً قنصلياً في ألمانيا، وابنتيها المفتونتين بأسواق اللحم الخرافية في باريس، أن يعودوا أو أن يسموا وكلاء لهم لتقويم حقوقهم. ولا يمكن بيع أي شيء قبل ذلك.

إن هذه الإضاءة السريعة لتلك المتاهة التي تضيع فيها منذ سنتين، لم تؤثر هذه المرة في أرملة مونتيل. فقالت بإصرار:

ـ ليس مهماً. إن أولادي سعداء في أوروبا وليس لديهم ما يفعلونه في بلد المتوحشين هذا كما يقولون. وإذا شئت يا سيد كارميتشيل، فاصنع لفافة من كل ما تجده في هذا البيت وارم بها إلى الخنازير.

لم يعارضها السيد كارميتشيل. وبذريعة أنه لابد، على أية حال، من القيام ببعض الإجراءات للرحلة، خرج بحثاً عن الطبيب.

❖ ❖ ❖

ـ دعنا نر الآن يا غوارديولا مدى وطنيتك.

تعرف الحلاق وجماعة الرجال الذين كانوا يتحدثون في صالون الحلاقة على صوت العمدة قبل أن يروه عند الباب. «وطنيتكما أيضاً»، أضاف مشيراً إلى شخصين آخرين أكثر شباباً من بقية الحاضرين. «ستحصلون هذه الليلة على البنادق التي طالما تمنيتم الحصول عليها، وسنرى إن كنتم من البؤس بحيث تصوبونها نحونا». وكان من المستحيل إخطاء اللهجة الودودة لكلماته.

رد الحلاق:

ـ أفضل لو أنك تعطيني بارودة صيد لاصطياد الساحرات، فليس هنالك من بندقية أفضل من بارودة الصيد.

لم يتكرم حتى بالنظر إليه. كان يحلق رقبة الزبون الأول هذا الصباح، ولم يأخذ أقوال العمدة مأخذ الجد. وعندما رآه يدقق فيمن هم من جنود الاحتياط بين جماعة الرجال الذين في المحل، والقادرين

بالتالي على استخدام البنادق، أدرك الحلاق أنه واحد من المختارين لهذه المهمة فعلاً. فسأل:

ـ هل صحيح انك ستشركنا في هذه العملية أيها الملازم؟

ـ آه، اللعنة ـ أجاب العمدة ـ. تقضون حياتكم وأنتم تتهامسون من أجل بندقية، وعندما تصبح الآن في متناول يدكم لا تصدقون.

وقف وراء الحلاق، حيث يستطيع رؤية جماعة الرجال كلها من خلال المرآة، وقال مستبدلاً نبرة صوته إلى وتيرة أكثر تسلطاً: «الأمر جديّ. وعلى جميع الاحتياطيين من الفئة الأولى الحضور إلى الثكنة في الساعة السادسة من مساء اليوم».

واجهه الحلاق من خلال المرآة سائلاً:

ـ وإذا ما أُصبت بنزلة رئوية؟

ـ سنشفيك منها بالسجن ـ أجابه العمدة.

كان فونوغراف صالة البليادرو يجتر أغنية عاطفية. وكانت الصالة خاوية، لكن بعض الزجاجات والكؤوس التي شُربت حتى نصفها كانت موجودة على بعض الطاولات.

قال دون روكي وهو يرى العمدة داخلاً:

ـ الآن وقد فرضت هذا الأمر، صار علينا إغلاق المحل في السابعة.

تابع العمدة سيره إلى صدر الصالة مباشرة، حيث كانت موائد لعب الورق خاوية كذلك. فتح باب المرحاض، وألقى نظرة على المستودع، ثم رجع إلى الكونتوار. وبينما هو يمر إلى جانب منضدة البليادرو، رفع الغطاء القماشي الذي فوقها بشكل مفاجئ وهو يقول:

ـ حسن، لا تكونوا جبناء هكذا.

وخرج شابان من تحت المنضدة وهما ينفضان الغبار عن ملابسهما. كان أحدهما شاحباً. أما الآخر، وهو الأصغر سناً، فقد كانت أذناه تتقدان. دفعهما العمدة برفق نحو المنضدة التي عند المدخل، وقال لهما:

ـ أنتما تعلمان إذن. الساعة السادسة في الثكنة.

وقال دون روكي وهو لا يزال وراء الكونتوار:

ـ بهذه الطريقة سيتجه المرء لاحتراف التهريب.

ـ لن يستمر هذا الوضع إلا ليومين أو ثلاثة أيام فقط ـ قال العمدة.

لحق به صاحب دار السينما وهو عند المنعطف، وصاح: «هذا هو الشيء الوحيد الذي كان ينقصني. بعد قرعات الأجراس الاثنتي عشرة، يأتي بوق حظر التجوال». ربت العمدة على كتفه وحاول متابعة طريقه قائلاً:

ـ سأنتزع منك ملكية الصالة.

فرد صاحب السينما:

ـ لا تستطيع. فالسينما ليست من الخدمات العامة.

ـ في حالة الطوارئ يمكن اعتبار حتى صالة السينما مرفق خدمات عامة ـ قال العمدة.

عندئذ فقط توقف عن الابتسام. قفز صاعداً درجات مركز الشرطة مثنى مثنى. وحين وصل إلى الطابق الأول فتح ذراعيه وعاد للضحك.

ـ اللعنة! ـ هتف ـ أنت أيضاً؟

كان صاحب السيرك يجلس باسترخاء ملك شرقي على كرسي من تلك التي تُطوى. وكان يدخن وهو ساهٍ غليوناً له هيئة ذئب البحر. وكما لو أنه في بيته، أشار للعمدة بأن يجلس.

ـ فلنتكلم بأمور الشغل أيها الملازم.

سحب العمدة كرسياً وجلس قبالته. فأشار صاحب السيرك بحركة غامضة وهو يحمل الغليون بيده الموشومة.

ـ هل يمكننا الحديث هنا بثقة كاملة؟

أومأ العمدة بأن ذلك ممكن.

فقال صاحب السيرك:

ـ لقد عرفتك مذ رأيتك وأنت تحلق ذقنك. حسن... فأنا الذي اعتدت معرفة الناس، أعرف أن حظر التجوال هذا، بالنسبة لك...

كان العمدة يتأمله بنية ظاهرة في المداعبة.

ـ ... أما بالنسبة لي، بعد أن تكلفت نفقات إقامة السيرك وعليّ أن أطعم سبعة عشر شخصاً وتسعة حيوانات مفترسة، فإنه بكل بساطة يعني الكارثة.

ـ إذاً؟

فأجاب صاحب السيرك:

ـ أقترح عليك أن تبدأ حظر التجوال في الساعة الحادية عشرة ونقتسم أرباح العروض الليلية فيما بيننا.

واصل العمدة الابتسام دون أن يبدل وضعه على الكرسي، وقال:

ـ أظن أن العثور على من يقول لك إني لست سوى مجرد لص لم يكلفك جهداً كبيراً.

فقال صاحب السيرك محتجاً:

ـ هذه صفقة قانونية.

ولم ينتبه إلى اللحظة التي اتخذ فيها العمدة مظهراً وقوراً.

ـ فلنتكلم بهذا الشأن يوم الاثنين القادم ـ قال الملازم بلهجة مبهمة.

فرد صاحب السيرك:

ـ من الآن حتى يوم الاثنين أكون قد رهنت جلدي. إننا فقراء جداً.

قاده العمدة حتى السلم وهو يربت برفق على ظهره قائلاً: «لا تقل هذا لي، فأنا أعرف الشغل». وعند السلم قال بلهجة مواسية:

ـ ابعث إليّ كاساندرا هذه الليلة.

حاول صاحب السيرك الرجوع، لكن اليد التي على ظهره كانت تضغط بحزم. فقال:

ـ هذا يدخل في الحسم طبعاً.

ـ ابعثها إليّ ـ ألح العمدة ـ، وسنتحدث غداً.

❖ ❖ ❖

دفع السيد بنجامين الباب الشبكي بأطراف أصابعه، لكنه لم يدخل إلى البيت. بل صاح بغيظ مكتوم:

ـ النوافذ يا نورا.

كانت نورا دي خاكوب ـ الناضجة الضخمة ـ بشعرها المقصوص كشعر رجل، ترقد قبالة المروحة الكهربائية في الصالة المظلمة. إنها تنتظر السيد بنجامين لتناول الغداء. وما إن سمعت النداء حتى نهضت بمشقة وفتحت النوافذ الأربع التي تطل على الشارع. دخلت دفقة من الحر إلى الصالة ذات البلاط الذي تحمل كل بلاطة منه رسم ديك رومي مائل... رسوم ديوك رومية لا نهائية متشابهة، وأثاث مغلف بقماش مزين برسوم أزهار. في كل جزء من أجزاء الصالة كانت تظهر علامة من علائم الفخامة البائسة.

ـ وما هو الصحيح في ما يقوله الناس؟ ـ سألت.

ـ إنهم يقولون أشياء كثيرة.

فقالت نورا دي خاكوب محددة:

ـ يقولون عن أرملة مونيل إنها أصيبت بالجنون.

ـ إنها بالنسبة لي مجنونة منذ زمن بعيد ـ قال السيد بنجامين. ثم أضاف بشيء من خيبة الأمل: ـ إنها كذلك. لقد حاولت أن تلقي بنفسها من الشرفة هذا الصباح.

كانت المائدة، المرئية بكاملها من الشارع، مجهزة بطبق وأدوات طعام في كل طرف من طرفيها. «إنه عقاب الرب»، قالت نورا دي خاكوب وهي تفرك راحتيها لسكب الغداء. ثم حملت المروحة الكهربائية إلى غرفة الطعام.

ـ بيتها يغص بالناس منذ الصباح ـ قال السيد بنجامين.

وردت نورا دي خاكوب:

ـ إنها فرصة مناسبة لرؤية البيت من الداخل.

حملت صبية زنجية، رأسها مغطى بعُقد ملونة، الحساء الساخن إلى المائدة. وطغت رائحة الفروج على جو غرفة الطعام، وصار الحر لا يطاق. ثبت السيد بنجامين الفوطة على عنقه قائلاً: «صحة». وحاول أن يتناول الحساء الساخن بالملعقة.

فقالت له وقد فقدت صبرها:

ـ انفخ على الحساء ولا تكن بليداً. ثم عليك أن تخلع الجاكيت أيضاً. إن امتناعك عن دخول البيت إلا والنوافذ مغلقة سيجعل الحر يقضي علينا.

ـ أرى أن هذا ضروري الآن أكثر منه في أي وقت مضى ـ قال ـ. فلا أحد يستطيع الإدعاء أنه لم يرَ من الشارع جميع تحركاتي وأنا هنا في البيت.

اكتشفت ابتسامته الرائعة، ولثته التي كالشمع الأحمر المستخدم

في ختم الوثائق، وهتفت: «لا تكن مضحكاً، يستطيعون أن يقولوا عني ما يحلو لهم». وعندما تمكنت من تناول ملعقة الحساء، تابعت حديثها المتقطع:

ـ من الممكن أن يضايقني ما قد يقولونه عن مونيكا، هذا صحيح ـ وكانت تشير بذلك إلى ابنتها ذات الخمسة عشر عاماً، والتي لم تأت في إجازة مذ ذهبت إلى المدرسة الداخلية لأول مرة: ـ أما عني فلن يقولوا شيئاً أكثر مما يعرفه الجميع.

لم يوجه إليها السيد بنجامين هذه المرة نظرة الاستنكار المعهودة. كانا يتناولان الحساء بصمت، تفصل بينهما مسافة مترين هي طول المائدة، وهي أقصر مسافة يسمح بأن تفصل بينهما، خاصة أمام الناس. لقد كان يكتب لها منذ عشرين سنة، حين كانت تلميذة في المدرسة، رسائل طويلة روتينية، فترد عليها بقصاصات عاطفية ملتهبة. وفي إحدى الإجازات المدرسية، أثناء نزهة ريفية، شدها نيستور خاكوب، وهو مخمور تماماً، من شعرها إلى أحد أركان خم الدجاج وقال دون أن يترك لها خياراً آخر: «إذا لم تتزوجيني فسأرميك بالرصاص». تزوجا عند انتهاء العطلة. وبعد عشر سنوات انفصلا عن بعضهما.

قال السيد بنجامين:

ـ على كل حال، يجب ألا نستثير خيال الناس بإغلاقنا الأبواب.

انتصب واقفاً بعد الانتهاء من تناول القهوة. وقال: «سأذهب. لا بد أن مينا تنتظر بيأس» ثم هتف وهو يعتمر قبعته عند الباب:

ـ إن هذا البيت يتقد.

ـ هذا ما كنت أقوله لك ـ قالت.

انتظرت إلى أن رآته يودعها بحركة كحركات المباركة، من

خلال النافذة الأخيرة. بعد ذلك حملت المروحة إلى حجرة النوم، ثم أغلقت الباب وتعرت تماماً. وأخيراً، مضت إلى الحمام الملحق بغرفة النوم مثلما تفعل كل يوم، وجلست على كرسي المرحاض، وحيدة مع سرها.

لقد كانت ترى نيستور خاكوب أربع مرات في اليوم قبالة بيتها. وكان الجميع يعرفون انه يقيم مع امرأة أخرى، وأن له أربعة أبناء منها يعتبرونه أباً مثالياً. وقد مرَّ خلال السنوات الأخيرة مراراً أمام البيت وهو برفقة الأولاد، لكنه لم يفعل ذلك قطّ وهو برفقة امرأته. لقد رأته وهو ينحل، ويصبح هرماً وشاحباً ويتحول إلى شخص غريب عنها، بينما علاقته التي كانت حميمة في زمن مضى تصير أمراً لا يمكن تصوره. وخلال قيلولتها المتوحدة أحياناً، كانت تشتهيه بصورة قاهرة، ليس وهو في الحالة التي يمر بها أمام البيت، وإنما كما في الفترة التي سبقت ميلاد مونيكا، عندما لم يكن حبه الروتيني العابر قد تحول إلى شيء لا يُطاق بالنسبة إليها.

❖ ❖ ❖

نام القاضي أركاديو حتى منتصف النهار. وهكذا لم يعلم بأمر البلاغ إلى أن جاء إلى المكتب. أما سكرتيره، فقد كان مستنفراً منذ الساعة الثامنة، حين طلب منه العمدة كتابة البلاغ.

وبعد أن عرف القاضي أركاديو جميع التفاصيل، علّق قائلاً:

ـ إن البلاغ مليء بعبارات شديدة الحسم على كل حال. وهذا ليس ضرورياً.

ـ إنه النص نفسه الذي يستخدم دائماً.

فقال القاضي موافقاً:

ـ أجل إنه كذلك. لكن الأمور تغيرت، ولابد من استبدال المصطلحات. لا شك أن الناس خائفون الآن.

ومع ذلك، لم يكن الخوف هو الشعور السائد، حسبما تأكد له في ما بعد وهو يلعب الورق في صالة البلياردو، بل كان هناك إحساس جماعي بالنصر، بسبب اليقين الذي ترسخ في وعي الجميع بأن الأمور لم تتغير. ولم يستطع القاضي أركاديو تجنب العمدة وهو يغادر صالة البلياردو. فقال له:

ـ المنشورات لا تستحق كل هذا العناء كما ترى. إن الناس سعداء.

أمسكه العمدة من ذراعه، وقال: «نحن لا نفعل شيئاً ضد الناس. إنها مسألة روتينية». كان القاضي أركاديو يائساً من جدوى هذه المحادثة الجوالة، بينما العمدة يمشي بخطوات حاسمة، وكأنه ماضٍ في مهمة مستعجلة. وبعد مسيرة طويلة أدرك أنه لا يود الذهاب إلى جهة معينة. فقال مكملاً كلامه:

ـ لن يستمر هذا الوضع إلى الأبد. فمن الآن حتى يوم الأحد سنكون قد أودعنا ظرف المنشورات في القفص. ولست أدري لماذا تريد إقناعي بأن الفاعل هو امرأة.

لم يكن القاضي يعتقد ذلك. ورغم اللامبالاة التي كان يتلقى بها المعلومات المقدمة من سكرتيره، فإنه توصل إلى نتيجة عامة: ليس المنشورات من فعل شخص واحد. ولا يبدو أنها تخضع لخطة مدروسة. فقد ظهر في الأيام الأخيرة نوع مختلف من المنشورات: كانت عبارة عن رسوم.

فأجمل القاضي أركاديو أفكاره قائلاً:

ـ قد لا يكون الفاعل رجلاً ولا امرأة. ربما هم جماعة رجال ونساء، يعمل كل منهم بمفرده.

فقال العمدة:

ـ لا تُعَقِّد لي الأمور أيها القاضي ـ قال العمدة ـ عليك أن تعلم أن هناك مذنب واحد في كل قضية، حتى لو تدخل فيها عدة أشخاص.

ورد القاضي أركاديو:

ـ هذا كلام قاله أرسطو أيها الملازم ـ ثم أردف قائلاً بقناعة:

ـ يبدو لي أن الإجراء المتخذ غير ذي جدوى على كل حال. فمن يعلقون المنشورات سينتظرون، ببساطة، حتى انتهاء حظر التجوال.

ـ ليس مهماً ـ قال العمدة ـ فالمسألة أولاً وأخيراً هي وجوب صيانة مبدأ وجود السلطة.

كان المجندون قد بدؤوا بالتجمع في مركز الشرطة. وكان الفناء الضيق المحاط بجدران مرتفعة ملطخة بدماء جافة وعليها آثار رصاص، يُذكِّر بالزمن الماضي، عندما لم تكن الزنازين تكفي، فكان يتم جمع المعتقلين في العراء. وكان رجال الشرطة العزل يتمشون مساء ذلك اليوم في الممرات وهم بسراويلهم الداخلية.

صاح العمدة من المدخل:

ـ روفيرا. أحضر لهؤلاء الشبان شيئاً يشربونه.

بدأ الشرطي بارتداء ملابسه، وسأل قائلاً:

ـ روم؟

فصرخ العمدة وهو متجه نحو المكتب المصفح:

ـ لا تكن غبياً. أحضر لهم شيئاً بارداً.

كان المجندون يدخنون وهم جالسون حول الفناء. تفحصهم القاضي أركاديو من شرفة الطابق الثاني، وسأل:

ـ هل هم متطوعون؟

فقال العمدة:

ـ تصور. كان عليّ أن أسحبهم من تحت الأسرّة ليأتوا إلى المركز.

ولم يجد القاضي بينهم وجهاً غير معروف. فقال:

ـ يبدو كأن المعارضة هي التي جندتهم.

ساد المكان جو جليدي عندما فُتحت أبواب المكتب الثقيلة المصنوعة من الرصاص. «تعني أنهم صالحون للقتال»، قال العمدة مبتسماً بعد أن أضاء أنوار حصنه الخاص. كان يوجد في أحد الأركان سرير عسكري، وإبريق ماء زجاجي مع كأس فوق أحد المقاعد، ومبولة تحت السرير. وكانت هناك مجموعة من البنادق والرشاشات اليدوية مسندة إلى الجدران العارية. ولم يكن في الحجرة أي منفذ للتهوية باستثناء الكُوى الضيقة العالية التي تشرف على الميناء والشوارع الرئيسية. وفي الجانب الآخر من الحجرة، كانت منضدة المكتب إلى جانب صندوق الخزنة الحديدي.

أدار العمدة أرقام فتح الخزنة الحديدة وهو يقول:

ـ وليس هذا هو كل شيء، إذ أنني سأعطيهم أسلحة.

دخل الشرطي في إثرهما. وأعطاه العمدة عدة أوراق نقدية قائلاً: «أحضر لكل منهم علبتي سجائر أيضاً». وعندما بقيا وحدهما، اتجه العمدة مجدداً إلى القاضي أركاديو:

ـ كيف ترى هذه العملية؟

ـ مخاطرة لا طائل منها ـ أجاب القاضي وهو ساهم.

قال العمدة:

ـ سيفغر الناس أفواههم من الدهشة. ويبدو لي كذلك أن هؤلاء الفتية المساكين لن يعرفوا ما الذي يفعلونه بالبنادق.

فقال القاضي موافقاً:

ـ ربما كانوا مضطربين، لكن هذا لن يدوم إلا قليلاً.

ثم اجتهد ليقهر الإحساس بالخواء في معدته، وقال ساهماً:

«كن حذراً أيها الملازم. لا تضيِّع كل شيء». قاده العمدة من المكتب بإشارة غامضة، وهمس في أذنه:

- لا تكن رعديداً أيها القاضي. لن يكون معهم سوى رصاص خُلَّبي.

عندما نزلا إلى الفناء كانت الأنوار مضاءة. وكان المجندون يتناولون المرطبات تحت المصابيح الكهربائية المتسخة التي يحوم الذباب تحتها، وبينما هو يتمشى من جانب إلى آخر في الفناء، حيث مازالت بعض برك مياه الأمطار، شرح لهم العمدة بلهجة أبوية مهمتهم لهذه الليلة: سيرابط كل اثنين منهم في إحدى الزوايا الرئيسية في البلدة، وسيكونون مخولين بإطلاق النار على أي شخص، سواء أكان رجلاً أم امرأة، لا يمتثل لنداءات التوقف الثلاثة. وأوصاهم بالشجاعة والتبصر. وقال إنه سيبعث إليهم بالطعام بعد منتصف الليل، وإنه ينتظر بعون الله، أن يسير كل شيء دون عقبات، وأن تعرف القرية كيف تقدر هذا الجهد الذي تبذله السلطات في سبيل الأمن الاجتماعي.

❖ ❖ ❖

نهض الأب أنخل عن الطاولة عندما دقت ساعة البرج معلنة الثامنة. أطفأ ضوء الفناء، وأغلق الباب بالمزلاج، ثم رسم إشارة الصليب فوق كتاب الصلوات: «باسم الرب». وصدح صوت كروان في فناء بعيد. وبينما كانت الأرملة دي آسيس تحاول النوم في برود الممر قريباً من الأقفاص المغطاة بقطع قماش قاتمة، سمعت الدقة الثانية المنبعثة من ساعة البرج، فسألت دون أن تفتح عينيها: «هل دخل روبرتو إلى البيت؟» وردت عليها خادمة كانت تنزوي قرب الباب بأنه قد نام منذ الساعة السابعة. وقبيل ذلك كانت نورا دي خاكوب قد

أخفضت صوت المذياع وغابت في موسيقى خافتة تبدو كأنها آتية من مكان مريح ونظيف. وصاح صوتٌ منادياً اسماً ما في الأفق من مكان بعيد بعداً جعل الصوت يبدو غير واقعي، وبدأت الكلاب تنبح.

لم يكن طبيب الأسنان قد انتهى من سماع نشرة الأخبار عندما تذكر أن ابنته أنخيلا كانت تحل كلمات متقاطعة تحت مصباح الفناء، فأمرها دون أن ينظر إليها: «أغلقي الباب الخارجي واذهبي إلى الغرفة لإنهاء هذا الذي تفعلين». واستيقظت زوجته وهي ترتعد فزعاً.

وروبرتو آسيس الذي كان قد نام فعلاً في الساعة السابعة، نهض ليتأمل الساحة من خلال النافذة المفتوحة قليلاً، ولم ير سوى أشجار اللوز القاتمة والضوء الأخير الذي ينطفئ في شرفة أرملة مونتيل. وعندها أشعلت زوجته الشمعدان وأجبرته على النوم بهمسة مخنوقة، بينما تابع كلب منفرد نباحه إلى أن تلاشى صوت الدقة الخامسة المنبعثة من ساعة البرج.

وفي حر الغرفة الملحقة بالصيدلية والمليئة بالعلب الفارغة والقوارير المغبرة، كان دون لالو موسكوتي يشخر وهو يُغطي بطنه ونظارته بالجريدة، بينما زوجته المقعدة التي تهزها من الأعماق ذكرى ليالٍ أُخر مثل هذا الليلة، تقوم بهش الذباب بخرقة قماشية وهي تعد الساعات في ذهنها. وبعد الصراخ النائي، ونباح الكلاب، والركض الرشيق، ساد الصمت.

ـ تذكري الكورامين.

أوصى الدكتور خيرالدو زوجته التي كانت تضع مسكنات الإسعاف السريع في الحقيبة قبل أن تأوي إلى فراشها، وكلاهما كان يفكر بأرملة مونتيل، المتصلبة مثل جثة تحت وقع شحن الضوء

الأخيرة. وحده دون ساباس، وبعد حديث طويل مع السيد كارميتشيل، كان قد نسي حساب الوقت. وكان لا يزال في مكتبه يزن بالميزان الفطور الذي سيتناوله في صباح اليوم التالي، عندما دوت الدقة السابعة وخرجت زوجته من غرفة النوم مشعثة الشعر. توقف النهر عن التدفق. وهمس أحدهم في الظلام: «*في ليلة كهذه الليلة*»، في اللحظة نفسها التي انطلقت فيها الدقة الثامنة، عميقة وحاسمة، وعندها انطفأ تماماً شيء كان ينبض بالحياة منذ خمس عشرة ثانية.

أغلق الدكتور خيرالدو الكتاب إلى أن تلاشت ذبذبة الدقة الأخيرة. ووضعت زوجته الحقيبة على الكوميدينو، ثم اضطجعت ووجهها إلى الجدار وأطفأت المصباح. أعاد الطبيب فتح الكتاب، لكنه لم يقرأ شيئاً. كلاهما كان يتنفس تنفساً متقطعاً، وحيدين في قرية اختزلها الصمت المطبق إلى مقاس حجرة النوم.

- بم تفكر؟

- لا شيء - أجابها الطبيب.

ولم يستعد تركيزه حتى الساعة الحادية عشرة، عندما رجع إلى الصفحة نفسها التي كان يقرأ فيها حين دقت الساعة معلنة الثامنة. فطوى زاوية الورقة، ووضع الكتاب على الكوميدينو. لقد كانت زوجته نائمة. وتذكر أنهما كانا يسهران معاً حتى الصباح في زمن آخر مضى، محاولين تحديد مكان واتجاه الأعيرة النارية التي تنطلق. وكان وقع الأحذية العسكرية وقعقعة السلاح يصلان في أحيانٍ كثيرة حتى باب بيتهما بينما هما يجلسان في السرير ينتظران زخة الرصاص التي ستهشم الباب. وقد سهرا ليالي كثيرة، بعد أن تعلما تمييز ألوان الرعب المتعددة، ورأساهما مستندان إلى الوسادة المليئة

بالنشرات السرية التي سيوزعانها. وفي فجر أحد الأيام سمعا أمام باب العيادة حركة الاستعدادات السريعة التي تسبق عمليات الاقتحام الليلية، ثم سمعا صوت العمدة المرهق وهو يقول: «آه، لا. هذا لا يتدخل في شيء». أطفأ الدكتور خيرالدو المصباح وحاول النوم.

بدأ المطر بالهطول بعيد منتصف الليل. فترك الحلاق ومجند آخر موقعهما عند تقاطع الميناء، واحتميا من المطر تحت مظلة دكان السيد بنجامين. أشعل الحلاق سيجارة ثم تفحص البندقية على ضوء عود الثقاب. كان السلاح جديداً. وقال:

ـ إنها من صنع U.S.A.

أشعل زميله عدداً من عيدان الثقاب ليبحث عن طراز بندقيته، لكنه لم يستطع العثور عليه. وانصب مزراب من مظلة الدكان على أخمص البندقية محدثاً صدمة جوفاء. فدمدم «يا للغرابة»، ثم تابع وهو يمسح الماء بكمه: «إننا نبتل هنا وفي يد كل منا بندقية». ولم يكن يُسمع في القرية المطفأة سوى صوت ارتطام ماء المطر بالمظلة.

قال الحلاق:

ـ نحن تسعة.. وهم ستة، بمن فيهم العمدة، لكن ثلاثة منهم محتجزون في المركز.

ـ هذا ما كنت أفكر فيه منذ هنيهة ـ قال الآخر.

كشفهما مصباح العمدة اليدوي وهما ملتصقان بالجدار، يحاولان حماية سلاحهما من قطرات المطر التي تصطدم بحذائيهما كالحصى. وتعرفا عليه حين أطفأ المصباح ودخل تحت المظلة. كان يرتدي رداء واقياً من المطر ويحمل رشاشاً يدوياً ينوس في كتفه. كان برفقته أحد رجال الشرطة. وبعد أن نظر إلى الساعة، التي يضعها في معصم يده اليمنى، أمر الشرطي قائلاً:

ـ اذهب إلى المركز وانظر ما حدث بشأن الطعام.

قال ذلك بالحماسة نفسها التي كان سيطلق بها أمر بدء الحرب. عندئذ انصرف الشرطي متوارياً عن الأنظار، وجلس العمدة على الأرض إلى جانب المجندين. سألهما:

ـ ما الأخبار؟

ـ لا شيء ـ أجاب الحلاق.

وقدم الآخر سيجارة للعمدة قبل أن يشعل سيجارته. فرفضها العمدة.

ـ إلى متى ستبقينا في هذه المهمة أيها الملازم؟

ـ لست أدري ـ رد العمدة ـ ولكنني أستطيع أن أقول: إلى أن ينتهي حظر التجوال. وغدا سنرى ما الذي سنفعله.

ـ حتى الساعة الخامسة! ـ صاح الحلاق.

وقال الآخر:

ـ تصور. وأنا الذي اقف على قدمي منذ الرابعة صباحاً.

ومن خلال همس المطر، وصلت إلى مسامعهم أصوات كلاب تنبح. انتظر العمدة إلى أن خمدت الضجة، ولم يبق سوى نباح منفرد، فالتفت إلى المجند بضيق وقال:

ـ أتقول هذا لي، أنا الذي أمضيت نصف حياتي في هذا العمل. إنني أكاد أنهار من النعاس.

ـ في سبيل لا شيء ـ قال الحلاق ـ فليس لهذا التصرف أساس ولا رأس. إنه كأعمال النساء.

تنهد العمدة وقال:

ـ وأنا بدأت أظن ذلك أيضاً.

رجع الشرطي ليخبرهم بأن زملاءه الذين في المركز ينتظرون توقف المطر ليقوموا بتوزيع الطعام. ثم أدلى بمعلومات أخرى: هناك

امرأة، أُلقي القبض عليها لأنها لا تحمل تصريحاً، وهي تنتظر العمدة في المركز.

إنها كاساندرا. كانت تغفو على كرسي، متدثرة بعباءة من المشمع، في الصالة الصغيرة المضاءة بمصباح الشرفة الكئيب. ضغط العمدة على أنفها بإبهامه وسبابته، فتأوهت وانتفضت في حركة يائسة، ثم فتحت عينيها وقالت:

ـ لقد كنت أحلم.

أضاء العمدة نور الصالة. فتلوت المرأة متأوهة وهي تغطي عينيها بيديها، وعانى هو هنيهة من رؤية أظافرها الملونة بطلاء فضي وإبطيها الحليقين.

ـ يا لك من بارد. إنني هنا منذ الساعة الحادية عشرة ـ قالت.

فاعتذر العمدة:

ـ كنت أظن أني سألتقيك في غرفتي.

ـ لم أكن أحمل تصريحاً.

شعرها الذي كان لونه نحاسياً قبل ليلتين، أصبح الآن رمادياً مفضضاً.

ابتسم العمدة قائلاً: «لقد نسيت مسألة التصريح»، وبعد أن نزع رداءه المطري، جلس على كرسي قريب منها «أرجو الا يكونوا قد ظنوا بأنك من يعلق المنشورات». كانت المرأة قد استعادت بساطتها، فردت قائلة:

ـ ليتهم فعلوا. فأنا مولعة بالانفعالات القوية.

وفجأة، بدا العمدة كالتائه في الصالة، ودمدم وهو يفرقع مفاصل أصابعه بشعور من الاستسلام: «إنني محتاج إليك في خدمة». فأمعنت النظر فيه، بينما تابع هو:

ـ على أن يبقى الأمر بيننا. أريدك أن تضربي بالورق لنرى إن كان ممكناً معرفة من الذي يعلق المنشورات.

مالت بوجهها إلى الجهة الأخرى، وقالت: «فهمت». وبعد صمت قصير، حثها العمدة قائلاً:

ـ إنني أفعل هذا من أجلكم قبل أي شيء آخر.

فهزت رأسها موافقة وقالت:

ـ لقد فعلت ذلك.

لم يستطع العمدة كبح تشوقه لمعرفة النتيجة، وتابعت كاساندرا بميلودرامية محسوبة: «إنه لأمر غريب. لقد كانت الإشارات واضحة لدرجة أنها أفزعتني عندما رأيتها فوق المنضدة». حتى تنفسها أصبح مثيراً. فسألها العمدة:

ـ ومن هو؟

ـ إنه كل من في القرية، وهو في الوقت ذاته لا أحد.

جاء أبناء الأرملة دي آسيس إلى القداس يوم الأحد. كان عددهم سبعة، إضافة إلى روبرتو آسيس. وكانوا جميعهم وكأنهم قد سُكبوا في القالب نفسه. فهم ضخام الأجساد، خشنون، وفي إرادتهم على تحتمل الأعمال الشاقة شيء من طبع البغال، رغم رقتهم في معاملة أمهم، وطاعتهم لها طاعة عمياء. ولم يكن روبرتو آسيس، أصغر الأخوة والمتزوج الوحيد بينهم، يشبه إخوته إلا بالعقدة التي في عظمة أنفه. وقد جعله اعتلال صحته وكذلك عاداته الاجتماعية، أشبه بجائزة ترضية بديلة عن البنت التي طالما انتظرتها الأرملة دي آسيس دون جدوى.

كانت الأرملة تجول في المطبخ، حيث أفرغ أبناء دي آسيس السبعة أحمال البهائم، معطية تعليماتها للخادمات وسط زغب الفراخ المقيدة والخضروات والجبن وقوالب الحلوى القاتمة وقطع اللحم المقدد. وبعد الانتهاء من تنظيف المطبخ، أمرت بانتقاء حصة من كل شيء لإرسالها إلى الأب أنخل.

كان الكاهن يحلق ذقنه. وكان يمد يده بين الحين والآخر إلى الفناء ليبلل ذقنه بماء المطر. وكان يوشك على الانتهاء من الحلاقة عندما دفعت الباب طفلتان حافيتان دون أن تطرقاه، ووضعتا أمامه عدداً من ثمار الأناناس الناضجة، والموز شبه الناضج، وقوالب الحلوى، والجبن، وسلة من الخضروات والبيض الطازج.

غمزهما الأب بإحدى عينيه وقال: «إن هذا يشبه حلم العم أرنب».

أشارت الصغرى منهما بإصبعها وقالت وهي تفتح عينيها على اتساعهما:

ـ أيحلق الكهنة ذقونهم أيضاً!

جذبتها زميلتها باتجاه الباب، وابتسم الكاهن قائلاً: «ماذا تظنين إذاً؟» ثم أضاف بجدية: «نحن بشر أيضاً». وألقى نظرة على المؤن المبعثرة على الأرض، وأدرك أن آل آسيس وحدهم هم القادرون على مثل هذا الإسراف.

قال بصوت يكاد يكون صارخاً:

ـ أخبرا الشبان أنني أرجو الله أن يعوضهم بالصحة.

أعاد الأب أنخل ـ الذي لم يتعلم، بعد أربعين سنة من حياة الرهبنة، كيف يسيطر على القلق الذي يعتريه قُبيل الأعمال الجليلة ـ الأدوات إلى مكانها دون أن ينتهي من الحلاقة. ثم جمع المؤن، ووضعها إلى جوار خابية الماء ودخل حجرة المقدسات وهو ينظف يده بمسوحه الكهنوتي.

كانت الكنيسة تغص بالمصلين. وعلى مقعدين مجاورين للمذبح، كانوا قد وهبوهما للكنيسة، وحفروا أسماءهم على لوحات نحاسية مثبتة عليهما، جلس آل آسيس مع أمهم وزوجة أخيهم. عند وصولهم إلى المعبد معاً للمرة الأولى منذ عدة شهور، كان يمكن الاعتقاد أنهم قد دخلوا على صهوات جيادهم، فكريستوبال آسيس، أكبرهم سناً، والذي كان قد وصل من المرعى قبل نصف ساعة من موعد القداس، لم يجد متسعاً من الوقت ليحلق ذقنه، وكان يلبس جزمة ركوب الخيل والمهاميز مثبتة بها. وكان مرأى ذلك المارد الفظ يدفع إلى الظن بصحة الرواية الشائعة التي لم تتأكد أبداً، والقائلة أن ثيسر مونتيرو كان ابناً غير شرعي للشيخ أدالبيرتو آسيس.

كان الأب أنخل في حجرة المقدسات يعاني حالة من التناقض الداخلي. فرداء القداس لم يكن في موضعه. وقد وجده الشماس في الداخل ذاهلاً يقلب الأدراج وهو يحاور نفسه بألفاظ مبهمة.

قال له الأب آمراً:

- استدع ترينيداد، واسألها أين وضعت رداء القداس.

لقد نسي أن ترينيداد كانت مريضة منذ يوم السبت. وأعرب الشماس عن اعتقاده بأنها كانت قد أخذت معها بعض الأشياء لإصلاحها. وعندئذ ارتدى الأب أنخل الملابس المخصصة للطقوس الجنائزية. لم يكن قادراً على التركيز. وعند صعوده إلى المنبر، جزعاً وهائج الأنفاس، أدرك أن العبارات التي أعدها في الأيام الماضية لا تتمتع بقوة الإقناع التي كانت تتمتع بها عندما كان يعدها وهو وحيد في غرفته.

تكلم لعشر دقائق، متعثراً بالكلمات. فوجئ بازدحام الأفكار التي لا تتسع لها القوالب اللفظية الجاهزة، ورأى الأرملة دي آسيس، محاطة بأبنائها، فأحس كما لو أنه يراهم بعد مرور قرون طويلة، في صورة عائلية ممحوة المعالم، وبدت له ريبيكا دي آسيس وحدها إنسانية ومعاصرة بمروحة الصندل التي في يدها. أنهى الأب أنخل موعظته دون أن يشير مباشرة إلى قضية المنشورات.

ظلت الأرملة دي آسيس متيبسة في مكانها للحظات وهي تنتزع خاتم زواجها وتعيد وضعه في إصبعها بغيظ خفي، بينما الكاهن يتابع طقوس القداس. بعد ذلك رسمت شارة الصليب ونهضت واقفة، ثم غادرت المعبد من الممر الرئيسي، يتبعها أولادها بحركة صاخبة.

❖ ❖ ❖

في صباح يوم كهذا، أدرك الدكتور خيرالدو كنه الآلية الداخلية للانتحار. كان المطر يهطل دون ضجة، بينما طائر توربيال يغرد في البيت المجاور، وكانت زوجته تتكلم وهو ينظف أسنانه.

قالت وهي تُعدُّ المائدة للفطور:

ـ إن أيام الآحاد غريبة. فهي تبدو كأنها تتدلى مسلوخة... لها رائحة كرائحة حيوان نيء.

جهز الطبيب ماكينة الحلاقة وبدأ بحلاقة ذقنه. كانت عيناه متعبتين وجفونه متورمة. قالت له زوجته: «إنك لا تنام إلا قليلاً». ثم أضافت بمرارة ناعمة: «ستستيقظ وتجد نفسك شيخاً هرماً في يوم من أيام الآحاد هذه». كانت ترتدي ثوباً بالياً وتغطي رأسها بلفافات شعر.

ـ اصمتي من فضلك ـ قال لها.

مضت إلى المطبخ، ووضعت إبريق القهوة على الموقد وانتظرت أن يغلي، مصغية أول الأمر إلى تغريد طائر التوربيال، ثم بعد ذلك إلى صوت ماء الدوش في الحمام. ذهبت حينئذ إلى غرفة النوم كي يجد زوجها ملابسه جاهزة عند خروجه من الحمام. وعندما حملت طعام الفطور إلى الطاولة، وجدته يستعد للخروج، وبدا لها أكثر شباباً بسرواله الخاكي وقميصه الرياضي.

تناولا فطورهما بصمت، وقُبيل الانتهاء من الطعام، تفحصها باهتمام ودود. كانت تتناول القهوة ورأسها مائل، وبها ارتعاشة ضئيلة مبعثها الاستياء.

ـ إنه الكبد ـ قال لها.

ـ لا شيء يبرر عجرفتك ـ ردت عليه دون أن ترفع رأسها.

ـ لابد أنني متسمم ـ قال ـ فمرض الكبد يتفاقم في هذا الجو الماطر.

ـ أنت دائماً تردد الكلام نفسه، لذلك لا تفعل شيئاً ـ قالت موضحة، ثم أضافت: ـ إذا لم تفتح عينيك فسوف تدمر نفسك بنفسك.

وبدا أنه مقتنع تماماً بما قالته. فقال لها: «سنذهب في كانون الأول إلى البحر، وسنُمضي هناك خمسة عشر يوماً». وراح يراقب المطر من خلال الفراغات الهندسية التي في الحاجز الفاصل بين صالة الطعام والفناء الكئيب بفعل إلحاح تشرين، وأضاف: «وهكذا لن يكون هنالك يوم أحد كهذا خلال أربعة أشهر على الأقل». وضعت الأطباق فوق بعضها بعضاً قبل أن تحملها إلى المطبخ. وعندما عادت إلى صالة الطعام وجدته يجهز حقيبته وقد وضع على رأسه قبعة من السعف المجدول. قال لها:

ـ لقد عادت الأرملة دي آسيس لمغادرة الكنيسة إذاً.

كانت زوجته قد روت له ذلك قبل أن يبدأ بتنظيف أسنانه، لكنه لم يهتم بما قالته حينئذ.

فأكدت:

ـ لقد غادرت الكنيسة مع أولادها ثلاث مرات هذه السنة. ويبدو أنها لم تجد ما هو أفضل لتشغل وقتها فيه.

أظهر الطبيب أسنانه الدقيقة قائلاً:

ـ لقد أصيب الأغنياء بالجنون.

كان عدد من النساء قد دخلن، لدى عودتهن من الكنيسة، لزيارة أرملة مونتيل. فحيا الطبيب جماعة النساء اللواتي كن في الصالة، ولاحقته ضحكات مكتومة إلى أن وصل إلى حجرة الأرملة. وقبل أن يقرع الباب، انتبه إلى وجود نساء أخريات في حجرة النوم. وناداه صوت طالباً منه الدخول.

كانت أرملة مونتيل تجلس محلولة الشعر، وتمسك بيدها طرف الملاءة لتغطي بها صدرها. وكان في حضنها مشط من العظم ومرآة.

ـ انت أيضاً قررت الذهاب إلى الحفلة إذاً ـ قال لها الطبيب.

فقالت إحدى النسوة:

- إنها تحتفل بسنوات عمرها الخمس عشرة.

فصححت الأرملة مونتيل بابتسامة حزينة:

- ثماني عشرة.

وبعد أن تمددت في سريرها، غطت جسمها حتى العنق. وأضافت مازحة:

- ليس هناك من رجال مدعوين. وخصوصاً أنت أيها الدكتور... لأنك فال شؤم.

وضع الطبيب قبعته المبتلة على الكوميدينو، وقال وهو يراقب المريضة بتواطؤ ذاهل: «أحسنت صنعاً. وهاأنذا أدرك الآن أنه ليس لدي ما أفعله هنا». ثم توجه إلى جماعة النساء وقال معتذراً:

- أتسمحن لي؟

عندما أصبحت وإياه على انفراد، استعادت أرملة مونتيل ملامح المرض المنهكة، لكن الطبيب لم ينتبه إلى ذلك على ما يبدو، وتابع الحديث باللهجة الاحتفالية نفسها بينما هو يضع على الكوميدينو الأدوات التي يخرجها من الحقيبة.

رجته الأرملة:

- أرجوك يا دكتور، لا أريد مزيداً من الحقن. لقد أصبحت كالمصفاة. فابتسم الطبيب:

- إن الحقن أعظم اختراع تم التوصل إليه لتأمين مورد رزق للأطباء.

وابتسمت هي أيضاً، ثم قالت وهي تلامس إليتيها من فوق ملاءة السرير:

- صدقني. أشعر بها متورمة. لا أستطيع حتى ملامستها.

ـ لا تلمسيها إذاً ـ قال الطبيب.

عندئذ ابتسمت ابتسامة صريحة:

ـ فليكن حديثك جدياً ولو في أيام الآحاد فقط أيها الدكتور.

كشف الطبيب عن ذراعها ليقيس ضغطها الشرياني، وقال:

ـ لقد منعني الطبيب عن ذلك، فهو سيء لمرض الكبد.

وبينما هو يقيس ضغطها، تأملت الأرملة ساعة مقياس الضغط بفضول طفولي. وقالت: «هذه أغرب ساعة رأيتها في حياتي». واصل الطبيب تركيزه على المؤشر إلى أن انتهى من ضغط الإجاصة، وقال:

ـ إنها الساعة الوحيدة التي تشير بدقة إلى موعد النهوض.

عندما انتهى، وبينما هو يلف أنابيب مقياس الضغط، تفحص وجه المريضة بتمعن. ووضع فوق المنضدة الصغيرة أقراصاً بيضاء اللون مشيراً عليها أن تتناول قرصاً منها كل اثنتي عشر ساعة. وقال: «إذا كنت لا تريدين حُقَني، فلن أعطيك مزيداً من الحقن. إنك الآن أحسن حالاً مني». قامت الأرملة بحركة تنم عن الضجر وقالت:

ـ لم أكن مصابة بشيء في يوم من الأيام.

ـ إني أصدق ذلك ـ ردّ الطبيب ـ، ولكن كان لابد لي من اختراع شيء لتبرير الأتعاب التي أتقاضاها.

فسألته الأرملة وهي تتحاشى التعقيب:

ـ هل عليَّ أن أبقى مضطجعة في الفراش؟

ـ على العكس ـ قال الطبيب ـ، إني أمنعك من ذلك منعاً باتاً. انزلي إلى الصالة واستقبلي ضيوفك كما يجب ـ ثم أضاف بلهجة ماكرة: ـ ثم إن هناك أشياء كثيرة تستحق الحديث عنها.

ـ أحلفك بالله يا دكتور الا تكون نماماً ـ هتفت ـ. يجب أن تكون أنت من يعلق المنشورات.

احتفل الدكتور خيرالدو بالفكرة. ولدى خروجه، ألقى نظرة مختلسة على الصندوق الجلدي ذي المسامير النحاسية المعد للسفر في أحد أركان حجرة النوم، فصاح وهو عند الباب: «وأحضري لي شيئاً حين ترجعين من جولتك حول العالم». كانت الأرملة قد استأنفت بأناة مهمة حل شعرها.

ـ طبعاً يا دكتور.

لم تنزل إلى الصالة. وبقيت في السرير إلى أن انصرفت آخر ضيفاتها، وعندئذ ارتدت ملابسها. وجدها السيد كارميتشيل تتناول الطعام مقابل الشرفة المفتوحة.

ردت على تحيته دون أن ترفع بصرها عن الشرفة. وقالت: «إنني أحب هذه المرأة من أعماقي، لأنها شجاعة». تطلع السيد كارميتشيل نحو بيت الأرملة دي آسيس الذي لم تكن أبوابه ونوافذه قد فتحت في الحادية عشرة.

ـ هذا طبيعي، فبأحشاء كأحشائها، مخلوقة لإنجاب الذكور فقط، لا يمكنها إلا أن تكون شجاعة. ـ قال، ثم أضاف متجهاً باهتمامه نحو أرملة مونتيل: ـ وأنت أيضاً تبدين مثل وردة.

بدت وكأنها تؤكد ذلك ببرودة ابتسامتها، وسألت: «أتعرف الورد؟». وأمام ارتباك السيد كارميتشيل، سارعت بالرد:

ـ الدكتور خيرالدو مقتنع بأنني مجنونة.

ـ ماذا تقولين!

أكدت الأرملة بحركة من رأسها. وواصلت: «لا أستغرب أن يكون قد تحدث معك لإرسالي إلى مشفى المجاذيب». لم يعرف السيد كارميتشيل كيف يتخلص من هذه الورطة. فقال:

ـ لم أخرج من بيتي منذ الصباح.

وألقى بنفسه على كرسي الجلد الوثير الموضوع إلى جانب السرير. فتذكرت الأرملة خوسيه مونتيل الذي كان يجلس على ذلك الكرسي، معانياً الاحتقان الدماغي قبل وفاته بخمس عشرة دقيقة. فقالت نافضة عنها الذكرى المشؤومة: «إذا كان الأمر كذلك فقد يستدعيك مساء اليوم». ثم استبدلت الحديث بابتسامة نقية:

ـ هل تحدثت إلى صديقي ساباس؟

قال السيد كارميتشيل نعم بحركة من رأسه.

الحقيقة أنه حاول خلال يومي الجمعة والسبت سبر آراء دون ساباس، ليعرف كيف سيكون رد فعله إذا ما عُرض ميراث خوسيه مونتيل للبيع. كان يبدو على دون ساباس ـ كما افترض السيد كارميتشيل ـ أنه مستعد للشراء. واستمعت الأرملة إليه دون أن تبدو عليها أمارات فقدان الصبر. وأقرت بتصميم رصين أنه إذا لم تغادر البلدة يوم الأربعاء القادم، فستفعل ذلك يوم الأربعاء من الأسبوع التالي. لقد كانت مستعدة لمغادرة القرية في جميع الأحوال قبل أن ينتهي شهر تشرين الأول.

❖ ❖ ❖

سحب العمدة مسدسه من قرابه بحركة مباغتة من يده اليسرى، وكانت كل عضلة في جسده متأهبة لإطلاق النار عندما صحا تماماً وتعرف على القاضي أركاديو:

ـ خراء!

وقف القاضي أركاديو مدهوشاً. وقال العمدة وهو يخبئ المسدس:

ـ لا تعد لعمل مثل هذه الفعلة. ـ وتهاوى ثانية على الكرسي القماشي: ـ إن مسمعي يعمل بصورة أفضل حين أكون نائماً.

ـ لقد وجدت الباب مفتوحاً ـ قال القاضي أركاديو.

كان العمدة قد نسي إغلاقه عند الفجر، فقد كان مرهقاً إلى الحد الذي جعله ينهار على الكرسي ويغفو في الحال.

ـ كم الساعة؟

ـ توشك أن تكون الثانية عشرة ـ قال القاضي أركاديو، وكان لا يزال في صوته وتر مرتعش.

ـ النعاس يقتلني ـ قال العمدة.

أحس وهو يتلوى في تثاؤبه الطويل بأن الزمن قد توقف. فبالرغم من مساعيه، ولياليه التي يمضيها صاحياً؛ كانت المنشورات تتوالى. وقد وجد في صباح ذلك اليوم ورقة ملصقة على باب حجرة نومه: «لا تستهلك باروداً على طيور الرخمة أيها الملازم». وكان يقال في الشارع، وبصوت عال، أن الدوريات هي التي تعلق المنشورات لتتخلص من ضجر نوبات الحراسة. وفكر العمدة في أن القرية تكاد تموت من الضحك.

قال القاضي أركاديو:

ـ انفض نفسك وهلم بنا لنأكل شيئاً.

لكنه لم يكن يحس بالجوع. أراد أن ينام ساعة أخرى من الزمن ويستحم قبل أن يخرج. أما القاضي أركاديو، النظيف الحيوي، فكان يريد الرجوع إلى البيت لتناول الغداء. وبما أنه وجد الباب مفتوحاً لدى مروره أمام حجرة النوم، فقد دخل ليطلب من العمدة تصريحاً له بالمرور أثناء حظر التجوال.

قال الملازم ببساطة: «لا». ثم برر قوله بذريعة أبوية:

ـ من الأفضل لك أن تبقى مستريحاً في بيتك.

أشعل القاضي أركاديو سيجارة، وبقي يتأمل لهب عود الثقاب ريثما يزول حقده، لكنه لم يجد ما يقوله.

وأضاف العمدة:

ـ لا تحمل الأمر محمل السوء. صدقني إني اتمنى ان أكون مكانك، وأن أنام في الثامنة ليلاً وأستيقظ عندما أشاء.

ـ كيف لا. ـ قال القاضي، ثم أضاف بسخرية ظاهرة: ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي كان ينقصني: أب جديد وأنا في الخامسة والثلاثين من العمر.

أدار له العمدة ظهره وبدا كأنه يتأمل السماء المشحونة بالمطر من الشرفة. صمت العمدة صمتاً صارماً. ثم قال بعد ذلك بلهجة حاسمة:

ـ أيها القاضي. ـ فالتفت القاضي نحوه ونظر كل منهما في عيني الآخر.

ـ لن أعطيك تصريح المرور. أتفهم؟

عض القاضي السيجارة وبدأ بقول شيء ما، لكنه كبح نفسه ولم يقل شيئاً. وسمعه العمدة وهو ينزل السلم ببطء، فانحنى فجأة وصاح:

ـ أيها القاضي!

لم يتلق جواباً.

ـ فلنبق أصدقاء ـ صاح العمدة ثانية.

ولم يتلق هذه المرة أي جواب أيضاً.

بقي منحنياً، بانتظار رد القاضي أركاديو، إلى أن أُغلق الباب، وظل وحيداً مع ذكرياته من جديد. لم يحاول إجبار نفسه على النوم. لقد كان مؤرقاً في وضح النهار، متورطاً في قرية مازالت عصية على النفاذ إليها وغريبة عنه، على الرغم من مرور سنوات طويلة على توليه مقاليد قدرها. ففي فجر اليوم الذي نزل فيه إليها خفية،

حاملاً حقيبة قديمة من الورق المقوى مربوطة بحبال، ومزوداً بأوامر لإخضاع القرية بأي ثمن، كان هو من أحس بالرعب. وكانت الورقة الوحيدة التي في يده هي وجود شخص غامض مؤيد للحكومة عليه أن يلتقي به في اليوم التالي جالساً بسرواله الداخلي أمام باب مقشرة الأرز. وبفضل المعلومات التي قدمها هذا الأخير، وقسوة ثلاثة قتلة مأجورين من مرافقيه، استطاع إنجاز مهمته. ومع ذلك، ففي هذا المساء، وبينما هو غير مدرك تماماً لشبكة العنكبوت اللامرئية التي راح الزمن يحوكها من حوله، كانت تكفيه لحظة تبصر واحدة ليسأل نفسه من هو الذي يُخضع الآخر.

حلم بعينين مفتوحتين وهو مقابل الشرفة التي يصفعها المطر، إلى ما بعد الرابعة بقليل. بعد ذلك استحم، وارتدى زي الميدان ونزل إلى الفندق ليتناول الفطور. قام بتفتيش روتيني على الثكنة، ووجد نفسه يقف فجأة في أحد الأركان ويداه في جيبه دون أن يدري ما الذي سيفعله.

رآه صاحب صالة البلياردو وهو يدخل إلى المحل عند الغروب، وكانت يداه لا تزالان في جيبيه. فحياه من آخر المحل المقفر، لكن العمدة لم يرد عليه.

ـ أعطني زجاجة مياه معدنية ـ قال.

أثارت الزجاجات قعقعة لدى تحريكها في الصندوق المعدني. وقال صاحب المحل:

ـ لابد انهم سيجرون لك جراحة في أحد الأيام، وسيجدون كبدك حينئذ ممتلئة بالفقاقيع.

تفحص العمدة الكأس. وتناول جرعة منها، ثم تجشأ. كان يستند بمرفقيه على الكونتوار ونظره مصوب إلى الكأس. تجشأ ثانية. وكانت الساحة خاوية تماماً.

- حسن. ما الذي جرى؟ - قال العمدة.

- اليوم هو الأحد - قال صاحب المحل.

- آه!

وضع قطعة نقود على المنضدة وخرج دون تحية وداع. وعند مفترق الساحة، قال له شخص يسير كأنه يجر ذيلاً طويلاً كلاماً لم يفهمه. وبعد قليل فكر في الأمر، وأدرك مضطرباً أن ثمة شيئاً يحدث، فاتجه إلى الثكنة. صعد السلالم قافزاً دون أن يهتم بالجماعات التي كانت تحتشد أمام الباب. خرج أحد رجال الشرطة للقائه، وناوله ورقة لم يكن بحاجة لإلقاء أكثر من نظرة عليها ليعرف ما هي.

قال الشرطي:

- كان يوزعها في ملعب مصارعة الديكة.

أسرع العمدة في الممر. وفتح باب الزنزانة الأولى ووقف ويده على قبضة الباب، ممعناً النظر في العتمة، إلى أن تمكن من الرؤية: كان شاباً في نحو العشرين من العمر، وجهه ضامر وعابس، وفيه آثار الجدري، وكان يضع على رأسه قبعة بيسبول وعلى عينيه نظارة زجاجها غبش.

- ما اسمك؟

- بيبي.

- بيبي ماذا؟

- بيبي أمادور.

تأمله العمدة لحظة واجتهد في أن يتذكر. كان الفتى جالساً على المصطبة الاسمنتية التي ينام السجناء عليها. وكان يبدو هادئاً. نزع نظارته ومسحها بطرف قميصه، ونظر إلى العمدة برموشه المتغضنة.

ـ أين التقينا من قبل؟ ـ سأله العمدة.

ـ في هذه الأنحاء ـ قال بيبي امادور.

لم يتقدم العمدة خطوة واحدة داخل الزنزانة. وواصل النظر إلى السجين وهو ساهم، ثم بدأ بإغلاق الباب وقال:

ـ حسناً يا بيبي، أظنك أوقعت نفسك في ورطة.

أقفل الباب، ووضع المفتاح في جيبه، ومضى إلى الصالة ليقرأ الورقة السرية ويعيد قراءتها عدة مرات.

جلس قبالة الشرفة المفتوحة، وراح يقتل البعوض بضربات من كفه، بينما كانت الأنوار تُضاء في الشوارع المقفرة. لقد كان يعرف ذلك السلام الغسقي. ففي زمن آخر، وأثناء غروب كهذا الغروب، أحس بانفعالات السلطة بكل أبعادها.

ـ إنها تعود إذاً ـ قال بصوت مسموع.

لقد عادت. وكانت كالسابق، مطبوعة على الآلة الكاتبة على الوجهين. وكان بالإمكان التعرف عليها في أي مكان وأي زمان، لمسحة الغموض القلقة التي تطبعها بطابع السرية.

فكر طويلاً في العتمة وهو يطوي الورقة ويعيد فتحها، قبل أن يتخذ قراراً. وأخيراً خبأها في جيبه وتلمس مفاتيح الزنزانة في الجيب نفسه، ونادى:

ـ روفيرا.

برز الشرطي الذي يوليه ثقته من الظلام. أعطاه العمدة المفاتيح:

ـ تولَّ أمر هذا الفتى ـ قال له ـ. حاول أن تقنعه بأن يبوح لك بأسماء من يأتون بالدعاية السرية إلى القرية. وإذا لم تتوصل إلى ذلك بالحسنى ـ قال محدداً ـ، فحاول أن تجعله يتكلم بشتى السبل.

ذكره الشرطي بأنه مناوب في الدورية هذه الليلة.

ـ انس ذلك. لا تهتم بشيء آخر حتى أصدر لك أوامر أخرى. ـ قال العمدة ثم أضاف، وكأنه منقاد لإلهام: ـ هناك أمر آخر... اصرف هؤلاء الرجال الذين في الفناء. لن نقوم بدوريات هذه الليلة.

استدعى إلى المكتب المصفح الشرطيين الثلاثة الذين يبقون في الثكنة ولا يقومون بمهمات، بناء على تعليماته. وجعلهم يرتدون الزي العسكري الذي يحتفظ به في خزانة مقفلة. وبينما هم يفعلون ذلك، التقط عن المنضدة الرصاصات الخلبيّة التي وزعها على رجال الدوريات في الليلة السابقة، وأخرج من الصندوق المعدني حفنة من الطلقات الحقيقية.

«أنتم من سيقوم بالدورية هذه الليلة»، قال لهم وهو يتفحص البنادق ليقدم لهم أفضلها. «ليس عليكم عمل أي شيء سوى أن تجعلوا الناس يلاحظون أنكم أنتم بالذات من يقوم بالدورية في الشارع». وعندما تسلم كل منهم سلاحه وزع عليهم الذخائر ووقف أمامهم ليقول محذراً:

ـ ولكن اسمعوا جيداً ما سأقوله: أول من سيطلق النار منكم، سأعدمه على جدار الفناء. ـ وانتظر منهم جواباً لم يصله: ـ مفهوم؟

كان اثنان من الرجال الثلاثة يشبهان الهنود، ولهما ملامح عادية. أما الثالث فهو أشقر مربوع، لعينيه لون أزرق شفاف. وقد استمعوا إلى الكلمات الأخيرة وهم يصفون الطلقات في أحزمة الخرطوش.

وقفوا ثلاثتهم بتأهب:

ـ مفهوم، سيدي الملازم.

وقال العمدة بنبرة أقل صرامة:

ـ الأخوة آسيس موجودون في البلدة، وليس مستبعداً أن تلتقوا هذه الليلة بأحدهم وهو مخمور وراغب في البحث عن مشاجرة،

ولكن إياكم أن تتورطوا معه مهما حدث ـ ولم يتلق الرد المطلوب هذه المرة أيضاً: ـ مفهوم؟

ـ مفهوم يا سيدي الملازم.

فاختتم العمدة:

ـ انتم تعلمون إذاً. فلتضعوا حواسكم الخمس في أماكنها.

❖ ❖ ❖

عند إقفال الكنيسة، بعد القداس الذي تقدم موعده ساعة بسبب حظر التجوال، أحس الأب أنخل برائحة عفونة. كانت رائحة عابرة لم يتمكن من تحديد كنهها. ولكن فيما بعد، وبينما هو يقلي شرائح الموز الأخضر ويغلي الحليب ليتناول طعامه، اكتشف سبب الرائحة، فترينيداد المريضة منذ يوم السبت، لم تقم برمي الفئران الميتة. وحينئذ رجع إلى المعبد، فتح المصايد ونظفها، ثم مضى إلى حيث تعيش مينا، على بعد كوادرتين عن الكنيسة.

فتح له الباب توتو فيسبال بنفسه. وفي الصالة المعتمة، حيث توجد بضعة كراسٍ جلدية بلا مساند موزعة دون انتظام، وصور معلقة على الجدران، كانت والدة مينا وجدَّتها الضريرة تشربان شراباً ساخناً في فناجين. وكانت مينا تصنع أزهاراً اصطناعية.

قالت العمياء:

ـ منذ خمس عشرة سنة لم نرك في هذا البيت يا أبتاه.

كان قولها صحيحاً. فهو يمر مساء كل يوم قبالة النافذة، حيث تجلس مينا لتصنع الأزهار الورقية، لكنه لم يكن يدخل إلى البيت.

ـ إن الزمن يمضي بهدوء. ـ قال، ثم حاول إفهامهم أنه على عجلة من أمره، فتوجه إلى توتو فيسبال قائلاً: ـ لقد اتيت لأرجوك أن تسمح لمينا بأن تتولى أمر المصائد منذ الغد ـ وأوضح الأمر لمينا: ـ إن ترينيداد مريضة منذ يوم السبت.

أبدى توتو فيسبال موافقته.

وتدخلت العمياء:

- ما هذا إلا تبديد للوقت. فالعالم سينتهي هذا العام.

وضعت أم مينا يدها على ركبة الجدة مشيرة إليها بذلك أن تلزم الصمت. فأزاحت العمياء يدها.

- الرب يعاقب على الإيمان بالخرافات - قال الكاهن.

فقالت العمياء:

- إنه مقدر ومكتوب: الدم سيسيل في الشوارع، ولن تكون هناك قوة إنسانية قادرة على وقفه.

وجه إليها الأب نظرة حانية. كانت هرمة جداً، مفرطة الشحوب وعيناها الميتتان تبدوان كأنهما تنفذان إلى سرّ الأشياء.

- سنستحم في الدم إذن - قالت مينا ساخرة.

التفت الأب أنخل نحوها حينئذ، ورآها تتبثق، بشعر أسود قاتم وشحوب كشحوب العجوز العمياء، من وسط غمامة متشابكة من الشرائط والأوراق الملونة. كانت تبدو كلوحة رمزية في حفلة مدرسية.

- وأنت تشتغلين في يوم الأحد - قال لها.

فتدخلت العمياء:

- لقد قلت لكم. ستمطر رماداً متقداً فوق رأسها.

وابتسمت مينا:

- إن للحاجة وجه كلب.

وبما أن الكاهن مازال واقفاً، فقد دفع إليه توتو فيسبال كرسياً ودعاه ثانية للجلوس. كان رجلاً ضعيفاً، حركاته مضطربة بفعل الخجل.

أعرض الأب أنخل عن الجلوس قائلاً:

ـ شكراً. سيدركني حظر التجوال وأنا في الشارع ـ وأصغى إلى الصمت العميق المخيم على القرية وعلق: ـ يبدو وكأن الساعة قد تجاوزت الثامنة.

وحينئذ أدرك حقيقة الأمر، فبعد سنتين من الزنازين الفارغة، هاهو ذا بيبي أمادور في السجن، وهاهي البلدة كلها تحت رحمة ثلاثة مجرمين. لقد أوى الناس إلى بيوتهم منذ الساعة السادسة.

بدا على الأب أنخل أنه يحدث نفسه:

ـ هذا غريب. إن شيئاً كهذا يبدو غير معقول.

فقال توتو فيسبال:

ـ كان لا بد من حدوث ذلك عاجلاً أو آجلاً ـ قال توتو فيسبال ـ. فالبلاد بأسرها مرقّعة بخيوط العنكبوت.

لحق بالأب حتى الباب:

ـ ألم تر الأوراق السرية؟

توقف الأب أنخل حائراً:

ـ ثانية؟

وتدخلت العمياء:

ـ في آب ستبدأ أيام الظلام الدامس الثلاثة.

شدّتها مينا على ذراعها ووضعت لها في يدها زهرة كانت قد بدأت بصنعها، وقالت لها:

ـ «اصمتي، واكملي هذا». تعرفت الضريرة على الزهرة باللمس.

ـ لقد عادت الأوراق إذاً ـ قال الأب.

فقال توتو فيسبال:

ـ منذ نحو أسبوع. كانت واحدة منها هنا، دون أن يعرف أحد من هو الذي جاء بها. أنت تعرف كيف هي المسألة.

وافق الكاهن بحركة من رأسه. وتابع توتو فيسبال:

ـ يقولون إن كل شيء مازال على سابق عهده. لقد تبدلت الحكومة، ووعدت بالسلام والأمن، وصدق الجميع ذلك أول الأمر. لكن الموظفين مازالوا هم أنفسهم.

ـ وهذا صحيح. فها نحن في حظر التجوال ثانية، بينما هؤلاء المجرمون الثلاثة مفلتون في الشارع.

قال توتو فيسبال:

ـ ولكن هنالك أمر جديد... يقال الآن إن حرب عصابات معادية للحكومة تتشكل ثانية في الأقاليم الداخلية من البلاد.

ـ كل هذا مقدر ومكتوب ـ قالت العمياء.

فقال الكاهن وهو ساهم:

ـ هذا غير معقول. يجب الاعتراف بأن الوضع قد تغير. ـ ثم أضاف مستدركاً: ـ أو انه تغير حتى هذه الليلة على الأقل.

بعد ساعات من ذلك، وبينما هو مؤرق في حر الكلّة، تساءل بالرغم من ذلك، إذا كان الزمن حقاً قد مضى خلال الأعوام التسعة عشر التي قضاها على رأس الأبرشية. وسمع قبالة بيته تماماً جلبة الأحذية العسكرية والأسلحة التي كانت تسبق في حقبة أخرى صليات رصاص الإعدام. غير أن الأحذية ما لبثت هذه المرة أن ابتعدت، ثم عادت تمر بعد ساعة من الزمن، وابتعدت ثانية، دون أن يلعلع صوت الرصاص. وبعد ذلك بقليل، تنبه وهو يعاني من إرهاق الأرق والحر، إلى أن الديكة قد بدأت بالصياح منذ حين.

حاول ماتيو آسيس تقدير الوقت اعتماداً على حالة الديوك. وخرج أخيراً طافياً إلى الواقع.

ـ كم الساعة؟

مدت نورا دي خاكوب ذراعها في الظلام وتناولت الساعة ذات الأرقام الفوسفورية عن الكوميدينو. وأيقظها تماماً الجواب الذي لم تنطق به بعد.

ـ إنها الرابعة والنصف ـ قالت.

ـ خراء!

قفز ماتيو آسيس من السرير. لكن ألم الرأس، ثم القلح المعدني في الفم، أجبراه على الحد من اندفاعه. بحث عن حذائه بقدميه في الظلام.

ـ كاد النهار يدركني ـ قال.

ـ هذا رائع ـ قالت، ثم أضاءت المصباح ورأت عقد عموده الفقري واليتيه الشاحبتين ـ كنت ستضطر للبقاء محبوساً هنا حتى الغد.

كانت عارية تماماً، ولا تكاد تغطي بالملاءة سوى أعضائها التناسلية. ولكن بعد إشعال الضوء، فقد كل شيء بذاءته الدافئة بما في ذلك صوتها.

انتعل ماتيو آسيس حذاءه. لقد كان طويلاً ومتيناً، وأحست نورا دي خاكوب، التي كانت تستقبله في المناسبات منذ نحو سنتين، بخيبة الأمل أمام نكبة امتلاكها سرّ رجل كان يبدو لها أنه خلق لتحكي عنه امرأة.

ـ إذا لم تعتن بنفسك ستصيبك البدانة ـ قالت.

فرد عليها محاولاً إخفاء قلقه:

ـ إنها الحياة الرغيدة. ـ وأضاف مبتسماً: ـ لابد أنني حبلى.

ـ أرجو ذلك ـ قالت ـ. لأن الرجال سيصبحون أقل طيشاً إذا ما حبلوا وأنجبوا.

التقط ماتيو آسيس الواقي الذكري المطاطي عن الأرض مستخدماً في ذلك السروال الداخلي، وذهب إلى الحمام، وألقى به في فتحة المرحاض. استحم وهو يحاول عدم الاستنشاق بعمق، فأي رائحة، في الفجر، هي رائحة منها. عندما رجع إلى الغرفة وجدها جالسة على السرير.

قالت نورا دي خاكوب:

ـ سأضيق ذرعاً بهذا التستر في يوم من الأيام، وسأروي كل شيء للجميع.

لم ينظر إليها إلى أن أكمل لبس ثيابه تماماً. وانتبهت إلى نهديها الضامرين، فغطت جسدها حتى العنق بالملاءة دون أن تتوقف عن الكلام، إذ تابعت قائلة:

ـ إنني أتلهف للساعة التي سنتناول فيها الفطور في السرير معاً ونبقى هنا حتى المساء. أنا نفسي سأعلق منشوراً عن علاقتنا.

ضحك بانفتاح وقال:

ـ سيموت بنجامين الصغير. وكيف هي هذه الشؤون معه؟

ـ تصور... إنه ينتظر موت نيستور خاكوب ـ قالت.

رأته وهو يودعها من الباب بإشارة من يده. «حاول المجيء في ليلة الميلاد»، قالت له. فوعدها بذلك. اجتاز الفناء على رؤوس أصابعه وخرج إلى الشارع من البوابة الخارجية. كان يهطل رذاذ مثلج يكاد لا

يرطب بشرته. ولدى وصوله إلى الساحة انطلقت صرخة في مواجهته:

ـ قف!

أُضيئ مصباح يدوي أمام عينيه. فأزاح وجهه.

قال العمدة غير المرئي وراء الضوء:

ـ آي، اللعنة! انظر من الذي وجدناه. أأنت ذاهب أم قادم؟

أطفأ المصباح، ورآه ماتيو آسيس، برفقة ثلاثة رجال شرطة. كان وجهه منتعشاً ومغسولاً، والمسدس الرشاش يتأرجح معلقاً على كتفه.

ـ إنني قادم ـ قال ماتيو آسيس.

اقترب العمدة ليرى الساعة على ضوء عمود النور. كانت الخامسة إلا عشر دقائق. وبإشارة موجهة إلى رجاله، أمر بوضع حد لمنع التجوال. وبقي حائراً إلى أن انتهى عزف البوق، الذي أضفى لمسة حزينة على الفجر. بعد ذلك ودع رجال الشرطة ورافق ماتيو آسيس عبر الساحة.

ـ لقد انتهى أمر هذه المنشورات ـ قال.

وكان صوته ينم عن الإرهاق أكثر منه عن الرضا.

ـ أألقيتم القبض على من يعلقها؟

ـ ليس بعد ـ قال العمدة ـ لكنني انتهيت لتوي من الجولة الأخيرة واستطيع اليوم أن أؤكد، للمرة الأولى، أن هذا الصباح لم يطلع على أي منشور. لقد كانت المسألة كلها هي إبداء الحزم.

لدى وصولهما عند بوابة البيت، تقدمه ماتيو آسيس ليقيد الكلاب. كانت نساء الخدمة يتمطين في المطبخ. وعندما دخل العمدة، استقبله نباح الكلاب المقيدة الذي ما لبث أن تحول بعد هنيهة إلى خطوات ولهثات حيوانات مسالمة. وجدتهما الأرملة دي

آسيس وهما جالسان يتناولان القهوة في شرفة المطبخ. وكان الصباح قد اتضح.

ـ الرجل المبكر هو زوج جيد، لكنه بعل سيء ـ قالت الأرملة.

ورغم طيب مزاجها، فقد كان وجهها يكشف عن عذاب سهر مضن. رد العمدة على تحيتها. ثم التقط المسدس الرشاش عن الأرض وعلقه بكتفه.

ـ تناول ما تشاء من القهوة أيها الملازم ـ قالت الأرملة ـ، ولكن لا تجئ بأسلحة إلى بيتي.

ـ بالعكس ـ ابتسم ماتيو آسيس ـ، عليك أن تستعيري السلاح منه للذهاب إلى القداس. ألا ترين ذلك؟

ـ لست بحاجة إلى هذه الأدوات للدفاع عن نفسي. فالعناية الإلهية إلى جانبنا. ـ ردت الأرملة، ثم أضافت بجدية: ـ لقد كنا نحن آل آسيس من أهل الرب قبل زمن طويل من وجود أي راهب على بعد فراسخ كثيرة من حولنا.

ودعهما العمدة، وقال: «لابد من النوم. فهذه الحياة ليست حياة مسيحي». شق طريقه بين الدجاج والبط والديوك الحبشية التي بدأت تغزو البيت. أفزعت الأرملة الطيور لتبتعد عن الطريق، ومضى ماتيو آسيس إلى غرفة نومه حيث استحم واستبدل ملابسه وخرج ثانية ليسرج البغلة. كان أخوته قد ذهبوا عند الفجر.

كانت الأرملة تعتني بالأقفاص عندما ظهر ابنها في الفناء. قالت له:

ـ تذكر أن حماية النفس شيء، ومعرفة البقاء بعيداً عن المشاكل شيء آخر.

وقال ماتيو آسيس:

- لقد دخل بيتنا ليتناول قليلاً من القهوة وحسب. جئنا ونحن نتبادل الحديث، ولم نكد ننتبه لوصولنا.

كان يقف في طرف الممر، ناظراً نحو أمه. لكنها لم تلتفت إليه وهي تحدثه. كانت تبدو كأنها تكلم العصافير. ردت عليه: «لن أقول لك شيئاً آخر. لا تأتني بقتلة إلى البيت». وعندما انتهت من الأقفاص، أولت كامل اهتمامها لابنها:

- وأين كنت أنت؟

❖ ❖ ❖

في صباح ذلك اليوم ظن القاضي أركاديو أنه اكتشف أمارات شؤم في الأحداث الصغيرة التي تصنع الحياة اليومية. «وجع رأس»، قال محاولاً أن يفسر ارتيابه وتردده لامرأته. كان صباحاً مشمساً. وكان النهر قد فقد، للمرة الأولى منذ عدة أسابيع، مظهره المتوعد ورائحته التي تشبه رائحة جلود نيئة. مضى القاضي أركاديو إلى صالون الحلاقة حيث استقبله الحلاق قائلاً:

- العدالة عرجاء، لكنها تصل.

كانت الأرضية ملمعة بالبترول، والمرايا ملوثة بلطخات اسبيداج أبيض. بدأ الحلاق بتلميعها بخرقة قماشية بينما القاضي أركاديو يأخذ مكانه على الكرسي.

- يجب ألا توجد أيام الاثنين - قال القاضي.

كان الحلاق قد باشر بقص شعره. قال:

- المسؤولية تقع على يوم الأحد. — ثم أوضح محدداً: - فلولا وجود الأحد لما وجدت أيام الاثنين.

أغمض القاضي أركاديو عينيه. فبعد عشر ساعات من النوم، وبعد ممارسة حب صاخب وحمام دام طويلاً، لم يكن يجد هذه المرة

مبرراً للوم يوم الأحد. لكنه كان يوم اثنين زخماً. وعندما دقت ساعة البرج معلنة التاسعة، وطغى على دقاتها أزيز ماكينة خياطة في البيت المجاور، هزت القاضي علامة أخرى: صمت الشوارع. فقال:

ـ إنها قرية شبحية.

ـ أنتم الذين جعلتموها هكذا ـ قال الحلاق ـ. فقد كنت في ما مضى أقص شعر مئة شخص حتى هذه الساعة من يوم الاثنين. بينما أنا لم أستفتح اليوم إلا بك.

فتح القاضي أركاديو عينيه وتأمل النهر لحظة من خلال المرآة، وكرر «أنتم». ثم سأل:

ـ من تعني بنا نحن؟

فتردد الحلاق:

ـ أنتم. فقبلكم كانت هذه القرية خراء، مثل جميع القرى الأخرى. اما الآن فهي أسوأ الجميع.

ـ إن كنت تقول لي هذا فلأنك تعلم أنه لا علاقة لي بهم. ـ ردّ القاضي، ثم سأله دون عدوانية: ـ هل تتجرأ على قول هذا الكلام للملازم؟

وافق الحلاق بأنه لا يجرؤ، وقال:

ـ أنت لا تعلم ما يعنيه استيقاظ المرء كل صباح وهو موقن من أنهم سيقتلونه. ثم تنقضي عشر سنوات دون أن يقتلوه.

فوافق القاضي أركاديو:

ـ لا أعلم، ولا أريد أن أعلم.

ـ افعل كل ما تستطيعه كيلا تعلم بالأمر أبداً ـ قال الحلاق.

أحنى القاضي رأسه. وبعد صمت طويل، سأل: «أتعلم يا غوارديولا؟»

ثم تابع دون أن ينتظر الجواب: «إن الملازم يغرق في هذه القرية. وفي كل يوم يغرق أكثر، لأنه اكتشف متعة لن يرجع منها؛ فهو آخذ بالثراء شيئاً فشيئاً، وبلا ضجة كبيرة» وبما أن الحلاق كان يستمع إليه صامتاً، فقد اختتم قائلاً:

- أراهنك أنه لن يسقط ميت آخر بسببه.

- أتظن ذلك؟

فقال القاضي أركاديو بإصرار:

- أراهنك بمئة مقابل واحد. فليس هناك الآن ما هو أفضل من السلام بالنسبة إليه.

انتهى الحلاق من قص شعره، وأمال الكرسي إلى الوراء، واستبدل الفوط دون أن يقول شيئاً. وعندما تكلم في آخر الأمر، كان لصوته نبرة حيرى:

- من المستغرب أن تكون أنت من يقول هذا... وأن تقوله لي أنا...

كان القاضي أركاديو سيهز كتفيه لولا أن وضعيته لم تسمح له بذلك. فقال مؤكداً:

- ليست المرة الأولى التي أقول فيها ذلك.

- لكن الملازم هو صديقك الحميم - قال الحلاق.

كان قد خفض صوته، وصار يتكلم بصوت متهدج ونَجِيّ. وبينما هو مستغرق في عمله، بدت ملامحه كملامح شخص لا يعرف الكتابة وعليه أن يخط توقيعه.

سأل القاضي أركاديو ببعض الوقار:

- أخبرني يا غوارديولا، ما الفكرة التي تحملها عني؟

كان الحلاق قد بدأ بحلاقة الذقن. ففكر للحظة قبل أن يجيب:

ـ كنت أفكر حتى الآن في أنك رجل يعرف أنه ذاهب، ويود الذهاب.

ابتسم القاضي:

ـ يمكنك الاستمرار في التفكير هكذا.

كان يستسلم للحلاقة بالسلبية الكئيبة نفسها التي قد يستسلم بها للذبح. احتفظ بعينيه مغمضتين بينما الحلاق يدعك له ذقنه بقطعة من حجر الشب، ويرشه بالبودرة، ثم ينفض عنه البودرة بفرشاة ناعمة. وعندما نزع الفوطة عن عنقه، دس له ورقة في جيب قميصه. وقال له:

ـ إنك مخطئ في شيء واحد أيها القاضي. ففي هذا البلد ستحدث اضطرابات.

تأكد القاضي من أنهما مازالا وحدهما في صالون الحلاقة. لكن الشمس اللاهبة، وأزيز ماكينة الخياطة في سكون التاسعة والنصف، ويوم الاثنين الذي لا يمكن اجتنابه، أوحت له كلها بأكثر من ذلك، إذ خُيّل إليه أنهما وحيدان في القرية. عندئذ أخرج الورقة من جيبه وقرأ:

أولاه الحلاق ظهره ليرتب منضدة العمل. وقال مستذكراً ما في المنشور: «سنتان من الخطابات، ومازالت حالة الطوارئ نفسها، والرقابة على الصحافة نفسها والموظفون أنفسهم». وحين رأى من خلال المرآة أن القاضي أركاديو قد انتهى من القراءة، قال له:

ـ أعطه لغيرك.

أعاد القاضي الورقة إلى جيبه وقال:

ـ إنك شجاع.

ـ لو أنني أخطأت يوماً بالشخص الذي أعطيه، لكنت مدروزاً

بالرصاص منذ سنوات ـ قال الحلاق، ثم أضاف بنبرة جدية: ـ وتذكر شيئاً أيها القاضي... لم يعد بإمكان أحد إيقاف هذا.

أحس القاضي أركاديو لدى خروجه من صالون الحلاقة بجفاف في حلقه. طلب في صالة البلياردو كأسين مزدوجتين، وبعد أن تناولهما، واحدة بعد الأخر، أدرك أنه مازال أمامه وقت طويل قبل الوصول إلى النهاية. وتذكر أنه حين كان في الجامعة، وفي يوم سبت النور، حاول معالجة تردده بوصفة تستخدم للحمير، إذ دخل إلى مرحاض إحدى الحانات، وهو مصمم تماماً، ونثر باروداً على قرحة الزهري التي أصيب بها، وأشعل فيها النار.

بعد الكأس الرابعة، قلل دون روكي من كمية الجرعات، وقال مبتسماً: «إذا ما واصلت الشرب على هذا المعدل، فستخرج من هنا محمولاً على الأكتاف كمصارعي الثيران». وابتسم هو أيضاً بشفتيه، لكن عينيه ظلتا مطفأتين. وبعد نصف ساعة من ذلك، ذهب إلى دورة المياه، فتبول، وألقى الورقة السرية في المرحاض قبل أن يخرج.

عندما رجع إلى مكانه وجد زجاجة إلى جانب الكأس، وكان عليها خط بالحبر يشير إلى مستوى ما تحتويه من الشراب. قال له دون روكي الذي كان يهوّي ببطء: «هذا كله لك». سكب القاضي أركاديو نصف كأس وبدأ بتناوله على مهل. ثم سأل قائلاً: «أتعلم؟». وبما أن دون روكي لم يبد ما يشير إلى أنه فهم شيئاً فقد قال له:

ـ ستحدث اضطرابات.

❖ ❖ ❖

كان دون ساباس يزن غداءه الذي بحجم وجبة عصفور بالميزان حين أخبروه بمجيء السيد كارميتشيل لزيارته ثانية، فهمس في أذن زوجته: «قولي له إنني نائم». وبعد عشر دقائق من ذلك كان قد نام

فعلاً. وعندما استيقظ، كان الهواء قد أصبح جافاً، وكان البيت مشلولاً بفعل الحر، بينما كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة.

ـ بماذا حلمت؟ ـ سألته المرأة.

ـ لا شيء.

لقد انتظرت إلى أن استيقظ زوجها بمفرده، ثم غلت له الحقنة العضلية بعد ذلك بقليل، وتولى دون ساباس حقن نفسه بالأنسولين في الفخذ.

قالت المرأة بخيبة أمل:

ـ منذ ثلاث سنوات تقريباً وانت لا تحلم بشيء.

ـ اللعنة ـ صاح ـ. وما الذي تريدينه الآن؟ لا يمكن للمرء أن يحلم بالقوة.

قبل سنوات، وأثناء قيلولته القصيرة في الظهيرة، حلم دون ساباس بشجرة سنديان تتفتح عن امواس حلاقة بدلاً من الأزهار، ففسرت زوجته الحلم وكسب جزءاً من جائزة اليانصيب.

ـ إذا لم يكن اليوم، فسيكون غداً ـ قالت.

فرد دون ساباس فاقداً صبره:

ـ لم يكن اليوم ولن يكون غداً. لن أحلم من أجل أن تقومي انت بحماقات وحسب.

استلقى على السرير ثانية بينما زوجته ترتب الحجرة. كانت الأدوات القاطعة والواخزة، بكل أنواعها، مستبعدة من الغرفة. وبعد نصف ساعة، كان دون ساباس قد اعتدل عدة مرات، محاولاً الا ينفعل، وبدأ بارتداء ملابسه.

عندئذ سأل:

ـ آه، ما الذي قاله كارميتشيل؟

ـ سيعود فيما بعد.

ولم يعودا للحديث إلى أن جلسا إلى المائدة. كان دون ساباس يلتقط وجبته البسيطة كمريض. وسكبت هي لنفسها غداء كاملاً، يبدو للوهلة الأولى أنه يفيض عن حاجة جسمها الهش وكيانها الضعيف. وقد فكرت كثيراً قبل أن تقرر السؤال:

ـ ما الذي يريده كارميتشيل؟

لم يرفع دون ساباس رأسه:

ـ وما الذي يمكن أن يريده؟ النقود طبعاً.

فتنهدت المرأة: «هذا ما تصورته»، ثم تابعت مشفقة: «يا للمسكين كارميتشيل، كانت تتدفق بين يديه أنهار من المال طوال ثلاثين سنة، وهاهو يعيش الآن على الصدقات». وكانت تفقد شهيتها للغداء كلما تكلمت أكثر.

قالت متوسلة:

ـ أعطه يا ساباس. الرب سيعوضك. ـ ثم وضعت الشوكة والسكين وسألت: ـ كم يحتاج؟

ـ مئتا بيزو ـ أجاب دون ساباس.

ـ مئتا بيزو!

ـ تصوري!

وعلى العكس من يوم الأحد، الذي هو أكثر أيامه انشغالاً، كان دون ساباس يتمتع بمساء هادئ في أيام الاثنين. فبإمكانه قضاء عدة ساعات في المكتب، غافياً قبالة المروحة الكهربائية، بينما قطعانه تنمو وتسمن وتتكاثر. ولكنه لم ينل على الرغم من ذلك لحظة راحة واحدة في هذا المساء.

ـ إنه الحر ـ قالت امرأته.

أبدى دون ساباس بريق سخط في حدقتيه الناعستين. كانت النوافذ مغلقة والهواء دافئاً وثقيلاً في المكتب الضيق، حيث توجد منضدة خشبية، وأربعة مقاعد جلدية ومجموعة سروج مكومة فوق بعضها. قال:

ـ هذا ممكن. لم يحدث قطّ حر كهذا في شهر تشرين الأول.

فقالت المرأة:

ـ منذ خمسة عشر عاماً، وفي حر كهذا الحر، وقعت هزة ارضية. اتذكر؟

وقال دون ساباس وهو ساه:

ـ لا أذكر، انت تعلمين اني لا اذكر شيئاً ابداً. ـ واضاف مستاء: ـ ثم إنني غير مستعد للتحدث عن الكوارث هذا المساء.

أغمض عينيه، ووضع يديه متقاطعتين على بطنه، وتظاهر بالنوم مدمدماً: «إذا جاء كارميتشيل فقولي له إنني لست موجوداً». فغمرت وجه زوجته تعابير خيبة رجاء، وقالت:

ـ إنك من طينة شريرة.

لكنه لم يعد إلى الكلام. فغادرت المكتب، دون أن تثير أدنى ضجة لدى إغلاقها الباب المغطى بشبكة معدنية. وعند المغيب، حين كان قد نام فعلاً، فتح دون ساباس عينيه ووجد العمدة يجلس أمامه منتظراً استيقاظه، وكأنه استمرار لحلمه.

ابتسم الملازم:

ـ يجب على رجل مثلك الا ينام وبابه مفتوح.

لم يقم دون ساباس بأية حركة تشي بارتباكه. وقال: «أبواب بيتي مفتوحة لك دوماً». مد ذراعه ليقرع الجرس، لكن العمدة منعه من ذلك بإشارة من يده.

ـ الا تريد قهوة؟ ـ سأله دون ساباس.

فقال العمدة وهو يتفحص الحجرة بنظرة جزعة:

ـ ليس الآن. لقد كنت على أحسن حال هنا، أثناء نومك. أحسست كأنني في بلدة أخرى.

فرك دون ساباس رموشه بظاهر أصابعه:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ نظر العمدة إلى ساعته وقال: «توشك أن تكون الخامسة، ثم اعتدل في مقعده، ودخل إلى موضوعه بنعومة:

ـ فلنتحدث إذن.

ـ لا أظن أني قادر على عمل شيء آخر ـ قال دون ساباس.

فقال العمدة: «لا يوجد ما يستحق ذلك. فالأمر لم يعد سراً على أحد». وأضاف وهو بالوضع المريح ذاته، دون أن يتكلف في حركاته أو في نبرة صوته:

ـ أخبرني يا دون ساباس. كم هو عدد أبقار الأرملة مونتيل التي سطوت عليها ووسمتها بعلامتك مذ عرضت عليك شراءها.

ـ ليس لدي أدنى فكرة عن هذا الذي تقوله.

ـ ولكنك تعرف أن لهذا العمل تسمية ـ أكد العمدة.

فقال دون ساباس محدداً:

ـ سرقة مواشٍ.

ـ وهو كذلك. ـ أكد العمدة، ثم تابع دون توقف: ـ فلنقل مثلاً بأنكم استوليتم على مئتي رأس خلال ثلاثة أيام.

ـ عسى أن يكون كذلك.

فقال العمدة:

ـ مئتان إذن. وأنت تعرف الشروط: خمسون بيزو ضرائب بلدية عن كل رأس.

ـ أربعون.

ـ بل خمسون.

توقّف دون ساباس خاضعاً. كان يستند إلى مسند الكرسي ذي النوابض، محركاً في إصبعه الخاتم ذا الحجر الأسود المصقول، وعيناه مثبتتان على رقعة الشطرنج الوهمية.

كان العمدة يراقبه باهتمام خال تماماً من الشفقة: «ومع ذلك، لن تنتهي الأمور عند هذا الحد في هذه المرة. فقد أصبحت تركة خوسيه مونتيل من المواشي، حيثما كانت، تحت حماية البلدية منذ هذه اللحظة». وبعد أن انتظر دون طائل رد فعل، قال موضحاً:

ـ إن هذه المرأة المسكينة، وكما تعلم حضرتك، مجنونة تماماً.

ـ وكارميتشيل؟

ـ كارميتشيل موجود تحت الرقابة منذ ساعتين ـ قال العمدة.

تفحصه دون ساباس حينئذ بنظرة يمكن أن تكون تعبيراً عن ولاء أو عن دهشة، وانهار على المنضدة، دون إنذار، بجسده اللدن، مهتزاً بضحكة داخلية متدفقة. وقال:

ـ يا للروعة. أيها الملازم. لابد أن الأمر يبدو لك كالحلم.

❖ ❖ ❖

أحس الدكتور خيرالدو عند المغيب بأنه قد توغل عميقاً في ذكريات الماضي. لقد عادت أشجار اللوز التي في الساحة تتعفر بالغبار، وراح شتاء آخر ينقضي، لكن خطواته المكتومة كانت تترك آثاراً عميقة في الذاكرة. كان الأب أنخل عائداً من جولته المسائية حين وجد الطبيب وهو يحاول إدخال المفتاح في قفل باب العيادة. فابتسم قائلاً:

ـ ها أنتذا ترى أيها الدكتور، أنك بحاجة إلى مساعدة الله حتى من أجل فتح الباب.

وابتسم الطبيب بدوره وقال:

- أو أنني بحاجة إلى حسرة.

أدار المفتاح في القفل ثم التفت إلى الأب أنخل. رآه محتقناً وخبازياً على ضوء الغسق المسائي، فقال له: «انتظر لحظة يا أبتاه. أظن أن شيئاً في كبدك لا يسير على ما يرام». وأمسكه من ذراعه.

- أتظن ذلك؟

أضاء الطبيب نور المخرج وتفحص وجه الكاهن باهتمام إنساني أكثر منه مهني. بعد ذلك فتح باب الشبك المعدني وأضاء النور في العيادة، وقال:

- ليس في تكريسك خمس دقائق لجسدك مضيعة للوقت يا أبت. هلم بنا لنرى حالة هذا الضغط الشرياني.

كان الأب أنخل على عجلة من أمره. ولكنه أمام إلحاح الطبيب، دخل إلى العيادة، وهيأ ذراعه لمقياس الضغط.

- في زمني لم تكن توجد هذه الأشياء - قال.

وضع الدكتور خيرالدو كرسياً مقابله وجلس ليضع مقياس الضغط، وقال مبتسماً:

- زمنك هو هذا يا أبتاه، فلا تُخرج جسدك منه.

وبينما الطبيب يراقب ساعة مقياس الضغط، كان الكاهن يتفحص الغرفة بذلك الفضول البليد الذي تثيره صالات الانتظار. كانت على الجدار شهادة دراسية مصفرة، وصورة طفلة مقروحة، أحد خديها متآكل باللون الأزرق، إضافة إلى اللوحة المعروفة التي تمثل طبيباً ينازع الموت امرأة عارية. في طرف الصالة، وراء سرير الفحص المعدني المطلي باللون الأبيض، كانت توجد خزانة زجاجية

تضم أدوات طبية وخزانتان أخريان مترعتان بالكتب. أما الرائحة الوحيدة المميزة في المكان فكانت رائحة الكحول الطبي.

لم يعكس وجه الدكتور خيرالدو أي تعبير عند انتهائه من قياس الضغط. فدمدم الأب أنخل.

- هذه الحجرة تحتاج لقديس.

تفحص الطبيب الجدران وقال: «ليس هذه الحجرة فقط، وإنما القرية كلها أيضاً».

أعاد مقياس الضغط إلى علبته الجلدية، وأقفل العلبة شاداً السحاب بنشاط، وقال:

- اعلم يا أبتاه أن ضغطك في حالة جيدة.

- هذا ما كنت أفترضه - قال الكاهن، ثم أضاف بحيرة: - لم أشعر في أي تشرين بأنني أحسن حالاً مما أنا عليه الآن.

فرد الطبيب:

- ومع ذلك، أنا قلق عليك: يجب الاعتراف بأن نظام حياتك ليس مناسباً لتشرين كهذا.

- إن ربنا متطلب - قال الأب.

أولاه الطبيب ظهره ليتأمل النهر القاتم من خلال النافذة، وقال: «إنني أتساءل إلى أي حد هو كذلك، فأنا لا أظن أن الرب مسؤول عن هذا الاجتهاد والسعي طوال سنوات وسنوات لإخفاء غرائز الناس بقشرة رقيقة، بالرغم من الإدراك الكامل بأن كل شيء تحتها مازال على حاله».

ثم سأل بعد وقفة طويلة:

- ألم تشعر في الأيام الأخيرة بأن جهدك المتواصل قد أخذ بالانهيار؟

فقال الأب أنخل:

- في كل ليلة، وطوال حياتي كلها، أحسست بهذا الشعور. ولهذا أعلم أنه عليَّ أن أبدأ بقوة أكبر في اليوم التالي.

كان قد نهض واقفاً. وقال وهو يستعد لمغادرة العيادة: «الساعة تقارب السادسة». ودون أن يبتعد الطبيب عن النافذة، بدا كأنه يمد يده ليعترض طريقه ويقول له:

- أبتاه. ضع يدك في أحد هذه الأيام على قلبك، واسأل نفسك إذا ما كان عملك ليس أكثر من محاولة وضع لصاقات لترقيع الأخلاق.

لم يستطع الأب أنخل مواراة اختناقه الداخلي الرهيب. وقال: «في ساعة الموت ستعرف كم هي ثقيلة هذه الكلمات أيها الدكتور». تمنى له ليلة سعيدة وأغلق الباب لدى خروجه على مهل.

لم يستطع التركيز في الصلاة. وحين كان يغلق باب الكنيسة، اقتربت منه مينا لتقول له بأن فأراً واحداً فقط سقط في المصايد خلال يومين. كان يشعر بأن الفئران قد تكاثرت في غياب ترينيداد إلى درجة التهديد بتقويض المعبد بالحفر تحته، بالرغم من أن مينا قد نصبت المصايد، وسممت الجبن، ولاحقت أم الفئران، وأغلقت بالإسفلت الجحور الجديدة التي ساعدها هو نفسه على اكتشافها.

قال لها:

- ضعي شيئاً من الإيمان في عملك، وستأتي الفئران إلى المصايد وكأنها الخراف.

تمشى طويلاً قبل أن ينام. وفي وهن الأرق، وعا وعياً كاملاً إحساس الهزيمة الغامض الذي غرسه الطبيب في قلبه. وكان هذا

القلق، ثم جلبة الفئران في المعبد، وسكون حظر التجوال المخيف قد تواطأت كلها لتأتي بقوة عمياء وتسحبه إلى فوضى ذكريات رهيبة.

لقد أيقظوه في منتصف إحدى الليالي وهو حديث العهد بالبلدة ليقدّم مساعدة روحية أخيرة إلى نورا دي خاكوب. وقد تلقى منها اعترافاً دراماتيكياً، عرضته بطريقة جدية، وجيزة ومفصلة، في حجرة نوم مجهزة لاستقبال الموت، ليس فيها سوى صليب فوق رأس السرير، وعدة كراس فارغة مسندة إلى الجدار. وقد كشفت له المحتضرة بأن زوجها، نيستور خاكوب، ليس هو والد ابنتها التي ولدتها حديثاً. ووعدها الأب أنخل بالمغفرة، شريطة أن تعيد اعترافها وتعلن توبتها بحضور زوجها.

تلبيةً لأوامر صاحب السيرك الإيقاعية، قامت زمر العاملين بنزع الأوتاد، فتهاوت الخيمة في انهيار مهيب رافقه صفير متأوه كصفير الريح بين الأشجار. وعند الفجر كانت الخيمة قد طُويت، وبينما النساء والأطفال يتناولون الفطور، نقل الرجال الحيوانات المفترسة إلى المركب. وعندما أطلق المركب صفيره الأول، كانت آثار المواقد في الأرض الخلاء هي المؤشر الوحيد على أن حيواناً خرافياً قد مرَّ من البلدة.

لم يكن العمدة قد نام. وبعد أن راقب من الشرفة تحميل معدات السيرك في المركب، نزل إلى زحمة الميناء وهو لا يزال بلباس الميدان. وكانت عيناه لا تزالان حمراوين من عدم النوم، ووجنتاه خشنتين بلحية لم يحلقها منذ يومين. واكتشف وجود صاحب السيرك الذي كان على سطح المركب، فصاح به:

- تحياتي أيها الملازم. ها أنذا أتخلى لك عن ممتلكاتك.

كان محشوراً في أفرهول فضفاض ومتسخ يطبع وجهه المستدير بمسحة كهنوتية. وكان يحمل المقرعة ملفوفة في قبضته.

اقترب العمدة من الضفة، وصرخ بمزاج رائق، وهو يفتح ذراعيه: «آسف أيها الجنرال. وانتظر أن تكون لديه الشجاعة الأخلاقية لتعلن عن سبب ذهابك». ثم التفت إلى الناس المحتشدين، وأوضح بصوت عال:

- لقد ألغيت تصريحه لأنه لم يوافق على تخصيص عرض مجاني للأطفال.

لكن صفارة المركب الأخيرة، ثم ضجة المحركات غطت على رد رجل السيرك. وانبعثت من الماء رائحة وحل متحرك. انتظر صاحب السيرك إلى أن قام المركب بالدوران في وسط النهر، وعندئذ استند إلى الحافة، وصرخ بكل ما في رئتيه من قوة، مستخدماً يديه كمكبر صوت:

ـ وداعاً أيها الشرطي – ابن – القحبة.

لم يتأثر العمدة بذلك. وانتظر، ويداه في جيبه، إلى أن تلاشت ضجة المحركات. ثم شق طريقه وسط الحشد مبتسماً، ودخل إلى متجر موسى السوري.

كانت الساعة تقارب الثامنة. وكان السوري قد بدأ بإدخال البضائع المعروضة عند الباب.

ـ أنت أيضاً ستذهب إذاً ـ قال له العمدة.

فقال السوري متطلعاً إلى السماء:

ـ لفترة قصيرة فقط. أظن أنها ستمطر.

ـ المطر لا يهطل ايام الأربعاء ـ أكد العمدة.

كان يستند إلى المنضدة مراقباً الغيوم الكثيفة الطافية فوق الميناء إلى أن انتهى السوري من إدخال البضائع وأمر زوجته بأن تأتيهما بالقهوة.

تنهد قائلاً وكأنه يحدث نفسه:

ـ على هذا المعدل سيكون علينا استعارة أناس من القرى الأخرى.

كان العمدة يتناول القهوة برشفات متقطعة. لقد غادرت القرية ثلاث عائلات أخرى، وبهذا يصبح عدد العائلات التي هاجرت، حسب حسابات موسى السوري، خمس عائلات خلال أسبوع واحد.

قال العمدة وهو يتفحص بقايا القهوة الغامقة في قعر الفنجان:

ـ سيعودون عاجلاً أو آجلاً. ـ ثم أضاف وهو شارد الفكر: ـ أينما ذهبوا سيتذكرون أن حبل خلاصهم مدفون في هذه القرية.

وعلى الرغم من نبوءته، فقد اضطر للانتظار في المتجر ريثما يتوقف وابل المطر الغزير الذي أغرق القرية في طوفان خلال لحظات قصيرة. ثم مضى إلى مركز الشرطة، ووجد السيد كارميتشيل لا يزال جالساً على المقعد في وسط الفناء، مبللاً بالمطر.

لم يلتفت إليه. وبعد أن تلقى تقريراً من الشرطي المناوب، طلب فتح الزنزانة حيث كان بيبي أمادور يبدو نائماً نوماً عميقاً وهو ملقى على بطنه فوق الأرضية الحجرية. قلبه بقدمه، وتأمل بشفقة سرية، للحظة، الوجه الذي شوهته الضربات.

ـ منذ متى لم يأكل؟ ـ سأل.

ـ منذ الليلة قبل الماضية.

أمر برفعه. فأسند ثلاثة حراس الجسد وسحبوه عبر الزنزانة لإجلاسه على مصطبة الاسمنت المسلح المثبتة على ارتفاع نصف متر في الجدار. وبقي في المكان الذي كان الجسد فيه ظلاً رطباً.

وبينما أسنده اثنان من الحراس وهو جالس، رفع له الثالث رأسه. ممسكاً به من شعره. كان يمكن الاعتقاد بأنه ميت لولا تنفسه غير المنتظم وتعبير الإنهاك اللانهائي الظاهر على شفتيه.

عندما أفلته الحراس، فتح بيبي أمادور عينيه، واستند باللمس إلى حافة الاسمنت المسلح، ثم انطرح على بطنه فوق المصطبة بحشرجة جافة.

غادر العمدة الزنزانة وأمرهم بتقديم الطعام له وتركه ينام بعض الوقت. وقال: «وبعد ذلك تابعوا العمل معه إلى أن يبصق كل ما يعرفه.

لا أظن أنه قادر على المقاومة لوقت طويل». ومن الشرفة، رأى السيد كارميتشيل ثانية في الفناء، مسنداً وجهه بين كفيه، ومنكمشاً على المقعد. فنادى:

ـ روفيرا. اذهب إلى بيت كارميتشيل وقل لزوجته أن تبعث له ملابس. ـ ثم أضاف بنبرة حاسمة: ـ وبعد ذلك جئني به إلى المكتب.

كان قد بدأ يغفو مستنداً إلى الطاولة، عندما قُرع الباب. كان القادم هو السيد كارميتشيل، مرتدياً ملابس بيضاء وجافة تماماً، باستثناء الحذاء الذي كان منتفخاً ومبللاً كحذاء غريق. وقبل أن يحدثه العمدة بشيء، أمر الحارس بالعودة إلى بيت السيد كارميتشيل لإحضار زوج من الأحذية.

رفع السيد كارميتشيل ذراعه نحو الحارس وقال: «دعِ الأمر هكذا». ثم توجه إلى العمدة بنظرة وقار صارمة، وأوضح قائلاً:

ـ إنه الحذاء الوحيد لدي.

طلب منه العمدة أن يجلس. لقد سيق السيد كارميتشيل قبل أربع وعشرين ساعة إلى المكتب المصفح، وأخضع لاستجواب مركز حول أملاك مونتيل. وقد قدّم عرضاً مفصلاً بها. وأخيراً، عندما أفصح العمدة عن نيته بشراء الإرث بالسعر الذي يقره اختصاصيو البلدية، أعلن عن قراره الحازم بأنه لن يسمح بذلك ما لم تتم تصفية التركة.

وفي مساء هذا اليوم، بعد يومين من الجوع والبقاء في العراء، كشفت إجابته أنه مازال يحتفظ بالعناد نفسه.

ـ إنك بغل يا كارميتشيل ـ قال له العمدة ـ . إذا ما انتظرت حتى تتم تصفية التركة، فسينتهي هذا اللص المدعو دون ساباس إلى وسم جميع مواشي مونتيل بميسمه.

هز السيد كارميتشيل كتفيه بلا مبالاة.

وقال العمدة بعد توقف طويل:

ـ حسناً. من المعروف أنك رجل نزيه. ولكن عليك أن تتذكر شيئاً. منذ خمس سنوات قدم دون ساباس لخوسيه مونتيل قائمة كاملة بأسماء من هم على علاقة برجال حرب العصابات، ولهذا السبب كان هو زعيم المعارضة الوحيد الذي استطاع البقاء في البلدة.

فقال السيد كارميتشيل بلهجة فيها شيء من السخرية:

ـ لقد بقي شخص آخر: طبيب الأسنان.

تجاوز العمدة هذه المقاطعة دون تعليق.

ـ هل تظن أن شخصاً كهذا، باع جماعته مقابل لا شيء، يستحق أن تبقى من اجله اربعاً وعشرين ساعة تحت الشمس دون نوم؟

أحنى السيد كارميتشيل رأسه وراح يتأمل أظفاره. جلس العمدة فوق الطاولة، وقال أخيراً بلهجة رقيقة:

ـ فكر في أبنائك أيضاً.

كان السيد كارميتشيل يجهل أن زوجته وابنيه الكبيرين قد زاروا العمدة في الليلة السابقة، وانه وعدهم بالإفراج عنه قبل مضي 24 ساعة.

قال السيد كارميتشيل:

ـ لا تقلق. سيعرفون كيف يتدبرون أمرهم.

لم يرفع راسه إلا بعد ان شعر أن العمدة أخذ يتمشى من جهة إلى أخرى في المكتب. عندئذ أطلق تنهدة وقال: «مازالت أمامك وسيلة أخرى أيها الملازم». وقبل أن يخطو العمدة إلى الأمام نظر إليه بوداعة رقيقة:

ـ أن تطلق عليَّ رصاصة.

لم يتلق أي رد. وبعد لحظة من ذلك، كان العمدة ينام في غرفته نوماً عميقاً، وكان السيد كارميتشيل قد عاد إلى المقعد.

❖ ❖ ❖

على بعد كوادرتين من الثكنة فقط، كان سكرتير مكتب القاضي سعيداً. لقد أمضى فترة الصباح متناوماً في القسم الداخلي من المكتب. وقد رأى، دون أن يستطيع منع نفسه من ذلك، نهدي ريبيكا دي آسيس الرائعين. حدث ذلك وكأنه وميض برق في الظهيرة، فقد فتحت المرأة الجميلة باب الحمام فجأة، وليس عليها سوى منشفة ملفوفة حول رأسها، فأطلقت صرخة صامتة وسارعت إلى إغلاق النافذة.

تحتمل السكرتير مرارة تلك الرؤيا مدة نصف ساعة وهو في عتمة المكتب. وفي حوالي الثانية عشرة، أقفل الباب ومضى ليقدم لذاكرته شيئاً من القوت.

عند مروره أمام مكتب التلغراف، أومأ له مسؤول البريد قائلاً: «سيأتينا كاهن جديد... لقد كتبت الأرملة دي آسيس رسالة إلى رئيس الأسقفية». فأعرض السكرتير عنه قائلاً له:

ـ إن أفضل مزية للرجل هي معرفته الاحتفاظ بسر.

وعند منعطف الساحة التقى بالسيد بنجامين، الذي يفكر مرتين قبل أن يقفز عن برك الماء المتجمعة أمام دكانه. فبادر السكرتير: «لو أنك تعلم يا سيد بنجامين».

ـ ماذا؟ ـ سأله السيد بنجامين.

ـ لا شيء. سأحمل هذا السر معي إلى القبر ـ قال السكرتير.

هز السيد بنجامين كتفيه. ورأى السكرتير وهو يقفز فوق برك الماء برشاقة شاب، مما جعله يقدم على المغامرة أيضاً.

أثناء غيابه وضع أحدهم في القسم الخلفي من الدكان وعاء طعام مؤلف من ثلاث طبقات، مع صحون وأدوات طعام، وشرشف مطوي. فرد السيد بنجامين الشرشف على المنضدة، ورتب الأطباق للغداء. فعل كل ذلك بدقة مبالغ فيها. تناول أولاً الحساء المائل إلى الاصفرار، والذي تطفو فيه دوائر كبيرة من الدهن، وعظمة معروقة. وتناول من طبق آخر أرزاً أبيض، ولحماً مطبوخاً، وقطعة يكة مقلية. كان الحر قد بدأ، لكن السيد بنجامين لم يوله اهتماماً. وعندما انتهى من الغداء، وكدس الصحون فوق بعضها وأعاد طبقات وعاء الطعام إلى ما كانت عليه، تناول كأس ماء.

وكان يستعد لتعليق أرجوحة نومه عندما أحس أن أحداً قد دخل إلى الدكان.

ـ هل السيد بنجامين موجود؟ ـ سأل صوت ناعس.

مط رأسه ورأى امرأة ترتدي السواد وشعرها مغطى بمنشفة، وبشرتها بلون الرماد، إنها والدة بيبي أمادور.

ـ لست موجوداً ـ قال السيد بنجامين.

ـ إنك أنت ـ قالت المرأة.

ـ أعرف هذا ـ قال ـ، ولكني كما لو كنت لست أنا، لأني أعرف لماذا تريدينني. ترددت المرأة أمام الباب الضيق المؤدي إلى القسم الخلفي من الدكان، بينما كان السيد بنجامين يعلق أرجوحة نومه. ومع كل نفس تزفره رئتاه كان يخرج صفير خفيف.

قال السيد بنجامين بصرامة:

ـ لا تبقي هناك. إما أن تذهبي أو تدخلي إلى هنا.

احتلت المرأة الكرسي الذي يقابل الطاولة وراحت تبكي بصمت.

ـ اعذريني ـ قال لها ـ عليك أن تدركي أنني تعهدت بالبقاء هنا، على مرأى من الجميع.

كشفت والدة بيبي أمادور عن رأسها ومسحت عينيها بالمنشفة. وبمحض العادة، جرب السيد بنجامين متانة حبال أرجوحة النوم عندما انتهى من تعليقها. وبعد ذلك التفت إلى المرأة، وقال:

ـ أنت تريدين أن أكتب لك مذكرة إذاً.

أكدت المرأة ذلك بحركة من رأسها.

فتابع السيد بنجامين:

ـ هكذا إذاً. حضرتك مازلت تؤمنين بالمذكرات ـ ثم أوضح خافضاً صوته: ـ العدالة في هذا الوقت لا تتحقق بالأوراق. وإنما بالرصاص.

ـ هذا ما يقوله الجميع ـ أجابت ـ، ولكن المصادفة جعلتني الوحيدة التي ابنها في السجن.

وبينما هي تتكلم، حلت عقدة المنديل الذي كانت تضغط عليه في قبضتها حتى ذلك الحين، وأخرجت منه عدة أوراق نقدية مبللة بالعرق، ثمانية بيزوات. قدمتها إلى السيد بنجامين.

ـ هذا هو كل ما أملك ـ قالت.

تأمل السيد بنجامين النقود. هز كتفيه، وتناول الأوراق النقدية ووضعها على المنضدة قائلاً: «أعلم أنه لا جدوى من هذا. ولكنني سأفعله لأثبت للرب فقط أنني لست رجلاً عنيداً». شكرته المرأة بصمت وعادت للبكاء من جديد.

نصحها السيد بنجامين:

ـ حاولي على كل حال إقناع العمدة بأن يسمح لك برؤية الفتى، واقنعيه بأن يقول لهم كل ما يعرفه. وما سوى ذلك سيكون كتقديم مذكرات إلى الخنازير.

مسحت أنفها بالمنشفة، وغطت رأسها ثانية وخرجت من الدكان دون أن تلتفت إلى الوراء.

نام السيد بنجامين القيلولة حتى الساعة الرابعة. وعندما خرج إلى الفناء ليغسل وجهه، كان الجو صحواً وكان الفضاء مليئاً بنمل طيار. وبعد أن استبدل ملابسه وسرح الشعرات القليلة المتبقية في رأسه، مضى إلى مكتب التلغراف ليشتري ورقة عرض حال مختومة.

كان عائداً إلى الدكان ليكتب المذكرة حين أدرك أن شيئاً قد حدث في القرية. سمع صرخات بعيدة. وسأل مجموعة من الصبية مروا راكضين بجواره ما الذي يحدث، فردوا عليه دون أن يتوقفوا. حينئذ رجع إلى مكتب التلغراف وأعاد ورقة المذكرة المختومة قائلاً:

- لم أعد بحاجة لها. لقد قتلوا بيبي أمادور الآن.

❖ ❖ ❖

نزل العمدة أدراج حجرة النوم وهو لا يزال شبه نائم، حاملاً الحزام بإحدى يديه، ومستخدماً اليد الأخرى في تثبيت أزرار السترة العسكرية، وقد شوش لون الضوء إحساسه بالوقت. وقبل أن يعرف ما الذي يجري، أدرك أن عليه الذهاب إلى المركز.

كانت نوافذ البيوت تغلق لدى مروره. وكانت هناك امرأة تتقدم راكضة وذراعاها مفتوحتان، في وسط الشارع، باتجاه معاكس لاتجاهه. وكانت توجد أعداد كبيرة من النمل الطيار في الجو النظيف. ودون أن يدري ما الذي حدث حتى الآن، أخرج العمدة مسدسه من قرابه وانطلق راكضاً.

كانت هناك مجموعة من النساء يحاولن خلع باب مركز الشرطة. وكان عدد من الرجال يجادلون لمنعهن من ذلك. أبعدهم العمدة بقبضتيه، واستند بظهره إلى الباب، وسدد مسدسه نحو الجميع.

ـ من سيقترب سأحرقه.

رجل الشرطة الذي كان يدعم الباب من الداخل، فتحه حينئذ وهو يحمل بندقيته المهيأة، وأطلق صافرة. فهرع اثنان آخران من رجال الشرطة إلى الشرفة، وأطلقا عدة رشقات من الرصاص في الجو، فتفرق الحشد باتجاه نهاية الشارع. في هذه اللحظة، ظهرت المرأة وهي تنبح مثل كلب عند ناصية الشارع. فتعرف العمدة فيها على أم بيبي أمادور. قفز إلى داخل المركز وامر الشرطي وهو على السلم:

ـ تول أمر هذه المرأة.

كان الصمت مطبقاً في الداخل. والواقع أن العمدة لم يعرف ما الذي جرى إلى أن أبعد الشرطة الذين كانوا يسدون الزنزانة، ورأى بيبي أمادور. كان ملقى على الأرض، منكمشاً على نفسه، ويداه بين فخذيه. كان شاحباً ولكن دون آثار دماء عليه.

بعد تأكُدٌ العمدة من عدم وجود أية جراح، مدد الجسد على ظهره، ودس أذيال قميص الجثة في السروال ثم زرر فتحة البنطال، وشد أخيراً إبزيم الحزام.

عندما نهض، كان قد استعاد هدوءه، لكن الملامح التي واجه بها رجال الشرطة كشفت عن بداية إرهاق.

ـ من الذي فعل هذا؟

ـ جميعنا. لقد حاول الفرار ـ قال المارد الأشقر.

نظر العمدة إليه مفكراً، وبدا للحظات أنه ليس لديه ما يقوله. ثم قال: «لم يعد هناك من يبتلع هذه القصة»تقدم نحو المارد الأشقر ويده ممدودة:

ـ أعطني المسدس. نزع الشرطي حزامه وسلمه إياه. كان قد استبدل الرصاصتين اللتين أطلقهما برصاصتين جديدتين، فخبأ

العمدة الطلقات في جيبه ثم أعطى المسدس لشرطي آخر. وانقاد المارد الأشقر، الذي كان يبدو عن قرب وكأنه مضاء بهالة صبيانية، إلى الزنزانة المجاورة. جرى كل شيء دون إسراع، كما في طقوس مدروسة. وأخيراً، أغلق العمدة نفسه زنزانة الميت وخرج إلى شرفة الفناء. كان السيد كارميتشيل لا يزال على المقعد.

بعد حمله إلى المكتب، لم يستجب للدعوة بالجلوس. وظل واقفاً قبالة المنضدة. وكانت ملابسه قد تبللت ثانية، ولم يكد يحرك رأسه حتى سأله العمدة إذا ما كان قد أدرك كل ما حدث.

ثم قال العمدة:

- حسناً. لم يُتح لي الوقت للتفكير في ما سأفعله بعد، بل إنني لا أعرف إن كنت سأفعل شيئاً. ــ ثم أضاف: ــ ولكن أي شيء سأفعله، تذكر هذا، سواء شئت أم لا، ستكون في قالب الحلوى.

ظل السيد كارميتشيل ذاهلاً أمام منضدة المكتب. كانت ملابسه ملتصقة بجسده وعلى جلده بدايات أورام، وكأنه لم يطفُ بعد رغم مرور ثلاث ليال على غرقه. وانتظر العمدة بلا طائل علامة من علائم الحياة.

- انتبه للوضع إذاً يا كارميتشيل، نحن الآن شريكان.

قال ذلك بهدوء، بل وببعض الدراماتيكية. ولم يبد أن دماغ السيد كارميتشيل قد استوعب ذلك. بقي جامداً قبالة المنضدة، منتفخاً وحزيناً، حتى بعد أن أغلق الباب المصفح.

أمام مركز الشرطة، كان هناك شرطيان يمسكان بمعصمي والدة بيبي أمادور. وكان الثلاثة يبدون وكأنهم يرتاحون. كانت المرأة تتنفس بإيقاع هادئ وقد جفت الدموع في عينيها. ولكن ما إن ظهر العمدة من الباب حتى أطلقت عواء أبح وارتعشت بعنف جعل أحد الشرطيين يفلتها والآخر يثبتها في الأرض.

لم ينظر العمدة إليها. وإنما مضى برفقة شرطي آخر وواجه المجموعة التي تتفرج على الصراع من الناصية. وقال دون التوجه إلى شخص معين بينهم:

- إذا كنتم تريدون منع وقوع ما هو أسوأ، فليحمل أحدكم هذه المرأة من هنا.

وبرفقة الشرطي كذلك، شق طريقه وسط الحشد ووصل إلى مكتب القاضي. لم يجد أحداً. عندئذ مضى إلى بيت القاضي أركاديو، وصرخ وهو يدفع الباب دون أن يطرقه:

- أيها القاضي.

وردت امرأة القاضي في الظلام، وهي مثقلة بمزاج الحبَل الكثيف:

- لقد غادر.

لم يتحرك العمدة عن عتبة الباب:

- إلى أين؟

فقالت المرأة:

- وأين سيكون... إلى الجحيم.

أومأ العمدة للشرطي بالتقدم. ومرا إلى جوار المرأة دون أن ينظرا إليها، وبعد أن فتشا غرفة النوم وتأكد لهما أنه لا وجود لأشياء خاصة برجل في أي مكان، رجعا إلى الصالة.

- متى ذهب؟ - سأل العمدة.

- منذ ليلتين - قالت المرأة.

احتاج العمدة لوقفة طويلة كي يفكر. ثم صاح فجأة:

- ابن العاهرة. بإمكانه أن يختفي تحت خمسين متراً من التراب... وبإمكانه أن يعود ليندس ثانية في بطن أمه العاهرة، ولكننا سنخرجه من هناك حياً أو ميتاً. فيد الحكومة طويلة جداً.

ـ ليسمع الله كلامك أيها الملازم ـ تتهدت المرأة.

بدأ الظلام يخيم. وكانت لا تزال هناك بعض المجموعات التي أوقفها رجال الشرطة عند ناصية المركز، ولكنهم كانوا قد أخذوا والدة بيبي أمادور، وكانت القرية تبدو هادئة.

اتجه العمدة مباشرة إلى زنزانة الميت. ثم أمر بإحضار قطعة من قماش الخيام، وبمساعدة الشرطي، ألبس الجثة القبعة والنظارة ثم لفها بقطعة القماش. بحث بعد ذلك في المركز عن أسلاك وحبال، وربط الجسد بلفة بشكل حلزوني من العنق حتى الكاحلين. كان يتصبب عرقاً عندما انتهى، ولكن مزاجه كان قد اعتدل. فقد بدا وكأنه أزاح عن كاهله ثقل الجثة. حينئذ فقط أضاء نور الزنزانة. «ابحث عن الرفش والمعول وعن مصباح»، أمر الشرطي. «ثم استدع غونثاليس، واحفرا معاً حفرة عميقة في الجزء الخلفي من الفناء، فهو الأكثر جفافاً». قال ذلك وكأنه يريد استيعاب مغزى كل كلمة بعد أن ينطق بها.

ثم انتهى قائلاً:

ـ وتذكروا أمراً طوال حياتكم: هذا الفتى لم يمت.

بعد ساعتين من ذلك، حين لم يكونوا قد انتهوا من حفر القبر. لاحظ العمدة من الشرفة أنه لم يبق أحد في الشارع، ما عدا شرطياً كان يقوم بالحراسة متنقلاً من زاوية إلى أخرى. فأضاء نور السلم، وجلس ليستريح في أكثر أركان الصالة عتمة، وبالكاد كان يسمع صرخات متفرقة يطلقها كروان ناء.

انتزعه صوت الأب أنخل من تأملاته. سمعه يتحدث إلى شرطي الحراسة أولاً، ثم إلى شخص آخر يرافقه... وأخيراً تعرف على الصوت الآخر. بقي منحنياً على الكرسي، إلى أن سمع الأصوات من جديد،

وقد أصبحت داخل الشكنة، ووقع الخطوات الأولى على السلم، حينئذ مد يده اليسرى في الظلام وأمسك البندقية.

توقف الأب أنخل حين رآه يظهر في أعلى السلم. وتحته بدرجتين كان الدكتور خيرالدو، وهو يرتدي روباً قصيراً، أبيض ومنشى، ويحمل حقيبته بيده. كشف عن أسنانه اللامعة، وقال بمزاج رائق:

لقد خاب أملي أيها الملازم. فقد أمضيت طوال ما بعد الظهر وأنا أنتظر أن تستدعيني لإجراء التشريح.

ثبت الأب أنخل فيه عينيه البراقتين والوديعتين، ثم التفت بهما نحو العمدة. فابتسم هذا الأخير وقال:

ـ لا يوجد أي تشريح، لأنه لا وجود لميت.

ـ نريد رؤية بيبي أمادور ـ قال الكاهن.

تابع العمدة موجهاً الكلام إلى الطبيب وهو يحمل البندقية موجهاً سبطانتها إلى الأسفل: «وأنا أريد ذلك أيضاً، ولكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً». ثم توقف عن الابتسام ليقول:

ـ لقد هرب.

تقدم الأب أنخل درجة. فرفع العمدة البندقية باتجاهه وقال محذراً: «ابق مكانك يا أبت». وتقدم الطبيب بدوره درجة أخرى، وقال وهو لا يزال يبتسم:

ـ اسمع أيها الملازم. لا يمكن إخفاء أسرار في هذه القرية. منذ الرابعة بعد الظهر والجميع يعلمون أنكم قد فعلتم بهذا الفتى ما كان يفعله دون ساباس بالحمير التي يبيعها.

ـ لقد هرب ـ كرر العمدة.

وبينما هو يراقب الطبيب، لم يكد يتيح له الوقت للتأهب عندما صعد الأب أنخل درجتين معاً رافعاً ذراعيه إلى أعلى.

شد الطبيب الكاهن من كم ردائه الكهنوتي. وأخذ الأب أنخل بالسعال.

قال الطبيب وقد تصلب صوته لأول مرة منذ زمن بعيد:

ـ ليكن لعبنا نظيفاً أيها الملازم. لابد من إجراء التشريح. وسنكشف الآن سر الإغماءات المميتة التي تصيب المعتقلين في هذا السجن.

ـ إذا تحركت من مكانك يا دكتور فسأحرقك. ـ قال العمدة ذلك ومال قليلاً ببصره نحو الكاهن: ـ وأنت كذلك يا أبتاه.

جمد الثلاثة في أماكنهم دون حراك.

وتابع العمدة متوجهاً إلى الكاهن:

ـ ثم إنك يجب أن تكون سعيداً يا أبتاه، فهذا الفتى هو الذي كان يعلق المنشورات.

ـ من أجل حب الرب ـ قال الأب أنخل مبتدئاً كلامه.

لكن نوبة سعال حادة منعته من الاستمرار. وانتظر العمدة إلى أن مرت النوبة، وقال:

ـ اسمعا. سأبدأ بالعد. وعندما أصل إلى الثلاثة، سأشرع بإطلاق النار نحو هذا الباب وأنا مغمض العينين ـ ثم قال للطبيب محذراً: ـ اعلم الآن وإلى الأبد. لقد انتهى زمن المزاح. إننا في حرب يا دكتور.

سحب الطبيب الأب أنخل من كمه. وشرع بالنزول دون أن يولي ظهره للعمدة ثم انطلق فجأة في ضحكة مجلجلة. وقال:

ـ هكذا تعجبني أيها الجنرال. فقد بدأنا نفهم بعضنا الآن.

ـ واحد ـ بدأ العمدة العدّ.

لم يسمعا العدد التالي. وحين افترقا عند زاوية الثكنة، كان الأب منهوكاً، وقد اضطر إلى إخفاء وجهه لأن عينيه كانتا

مضمختين بالدموع. فربت الدكتور خيرالدو على كتفه دون أن يتوقف عن الابتسام، وقال له: «لا تستغرب يا أبتاه، فكل هذا هو الحياة». وعندما انعطف نحو بيته رأى الساعة على ضوء عمود النور، كانت تشير إلى الثامنة إلا ربعاً.

❖ ❖ ❖

لم يستطع الأب أنخل أن يأكل. وجلس بعد أن دقت إشارة حظر التجوال ليكتب رسالة. وظل منحنياً على المنضدة إلى ما بعد منتصف الليل، بينما المطر الخفيف يمحو العالم من حوله. كتب بأسلوب صارم، راسماً حروفاً متساوية، مع ميل إلى التنميق، وكان يفعل ذلك بولهٍ شديد، لدرجة أنه لم يكن يغمس الريشة إلا بعد أن يكون قد خط كلمتين لا مرئيتين، مجرحاً الورقة بالريشة الجافة.

في اليوم التالي، بعد القداس، وضع الرسالة في البريد رغم معرفته بأنها لن تخرج من هناك حتى يوم الجمعة. كان الهواء رطباً ومحملاً بالضباب في ساعات الصباح، ولكنه ما لبث أن راق عند الظهيرة. وبرز عصفور تائه في الفناء، ظل يقفز ككسيح بين أزهار الناردين لنصف ساعة، وغرد لحناً متدرجاً، صاعداً طبقة صوتية بعد أخرى، إلى أن أصبح اللحن حاداً وصار لابد من تخيله.

أحس الأب أنخل موقناً، أثناء جولته المسائية، أن رائحة خريفية قد لاحقته طوال الأصيل. وفي بيت ترينيداد، وخلال تبادله مع الناقهة حديثاً كئيباً حول أمراض تشرين، ظن انه ميز رائحة بعثتها بمكتبه في أحد الليالي ريبيكا دي آسيس.

في طريق عودته زار أسرة السيد كارميتشيل. كانت زوجته وابنته الكبرى كئيبتين، وكلما ذكرتا اسم المعتقل كانتا تطلقان آهة زائفة. لكن الأطفال كانوا سعداء لأنهم تخلصوا من صرامة

أبيهم، وكانوا يحاولون تقديم الماء في كأس لأرنبين بعثت بهما إليهم أرملة مونتيل. وفجأة قطع الأب أنخل المحادثة وقال بعد أن رسم إشارة بيده:

- أعرف... إنه أكونيتو.

لكنه لم يكن أكونيتو.

لم يكن هناك من يتحدث عن المنشورات. ففي خضم الأحداث الأخيرة، بدت قضية المنشورات كأنها حكاية طريفة من الماضي. وقد تأكد الأب أنخل من ذلك أثناء جولته المسائية، ثم بعد القداس، عند تبادله الحديث في المكتب مع مجموعة من السيدات الكاثوليكيات.

أحس بالجوع عندما بقي وحيداً، فأعد شرائح مقلية من الموز الأخضر وقهوة بالحليب وأرفق ذلك بقطعة جبن. وقد جعله امتلاء معدته ينسى الرائحة. وبينما هو يخلع ملابسه لينام، ثم حين صار داخل الكلّة، متصيداً البعوضات التي نجت من المبيد الحشري، تجشأ عدة مرات. كان في معدته طعم حموضة، لكن روحه كانت تنعم بالسلام.

نام كقديس. وسمع في سكينة حظر التجوال الهمسات العاطفية، والمحاولات التمهيدية للأوتار المرتعشة بجليد الفجر، ثم سمع أخيراً أغنية من زمن آخر. وفي الساعة الخامسة إلا عشر دقائق انتبه إلى أنه مازال على قيد الحياة. فنهض بجهد مهيب، وفرك رموشه بأصابعه، وفكر: **«الجمعة 21 تشرين الأول»**. ثم تذكر بصوت مرتفع: **«يوم القديس هيلاريون»**.

ارتدى ملابسه دون أن يغتسل ودون أن يصلي. وبعد أن ضبط أزرار ثوبه الكهنوتي، لبس جزمته اليومية المشققة التي بدأت مسامير

نعلها تفلت من أماكنها. وحين فتح الباب المطل على أزهار الناردين تذكر كلمات أغنية. فتنهد:

- *سأبقى في أحلامك حتى الموت.*

دفعت مينا باب الكنيسة بينما هو يقرع الدقة الأولى. اتجهت إلى موقع العماد، ووجدت الجبن سليماً لم يمس، والمصايد لا تزال منصوبة. وفتح العمدة الباب المطل على الساحة.

قالت مينا وهي تهز علبة الكرتون الفارغة:

- حظ سيء. لم يقع ولا فأر واحد في المصايد اليوم.

لكن الأب أنخل لم يولها أي اهتمام. كان النهار ينشق عن يوم مشرق، هواؤه صاف، وكأنه إعلان عن أن شهر كانون الأول سيكون دقيقاً في ميعاده هذه السنة أيضاً. ولم يَبدُ فيه صمت باستور بيّناً كما بدا له يومها.

- كان ثمة سيرناد هذه الليلة - قال.

فأكدت مينا:

- ولكن بالرصاص. لقد دوت الأعيرة النارية إلى ما قبل قليل.

تأملها الأب أنخل للمرة الأولى، فرأى أنها هي، الشاحبة إلى أقصى الحدود، تستخدم كذلك مثل جدتها العمياء، حزاماً أزرق من أحزمة الجمعيات غير المتدينة. ولكنها على العكس من ترينيداد، ذات الهيئة الرجولية، آخذة بالنضوج كأنثى.

- أين؟

- في كل الأنحاء - قالت مينا -. يبدو لي أن مساً أصابهم في البحث عن الأوراق السرية. يقال إنهم نزعوا أخشاب أرضية صالون الحلاقة مصادفة، ووجدوا هناك أسلحة. السجن مليء، ولكنهم يقولون إن الرجال يهربون إلى الجبل للالتحاق بالثوار.

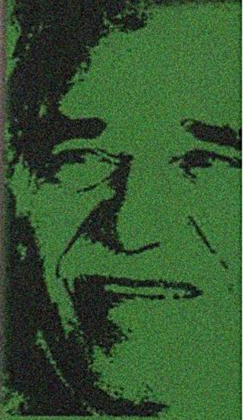
تنهد الأب أنخل وقال:

ـ لا ترو لي شيئاً.

سار نحو عمق الكنيسة، ولحقت به صامتة حتى المذبح الكبير.

ـ وليس هذا هو كل شيء ـ قالت مينا ـ يذكر. ففي الليل، ورغم حظر التجوال ورغم الرصاص...

توقف الأب أنخل، والتفت إليها بعينيه المستكينتين، بزرقتهما البريئة. فتوقفت مينا أيضاً، والعلبة الفارغة تحت إبطها، وبدأت تبتسم ابتسامة عصبية قبل أن تنهي عبارتها.



● ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام 1928 في أراكاتاكا، شمال كولومبيا، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية، لينتقل بعدها إلى الجامعة.

● عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمّها روما، وباريس .عام 1960 كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده، فاضطر إلى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء! كتب حينذاك روايته "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه". كما أنه أقام في مكسيكو وكتب سيناريوهات عدة سينمائية. نشر ماركيز أوّل قصة له عام 1955 وكانت "غرباء الموز"، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة.

● ذاع صيته بعد نشره لرائعته "مائة عام من العزلة" عام 1967، والتي نبّهت العالم إليه ككاتب متميّز (تُرجمت إلى 32 لغة بينها العربية)؛ لا بل فجّرت اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل.

محطة نوبل 1982

ISBN 2-84305-975-X

9 782843 059759